خواطر
في الاقتصاد الاشتراكي

للدكتور شفيق الأخرس

الوضوح في الاهداف القومية لأمتنا في طرق تحقيقها شرط اسامي لبلوغها أفضل الشروط انسانياً واجتماعياً أولاً واقتصادياً ثانياً . ومن بين أهدافنا هذه: الاشتراكية . ولكن هذه الكلمة مع استمرار جاذبيتها بالنسبة لكثرة من الناس فانها قد فقدت الكثير من وضوحها ، مع الزمن ، ومن كثرة المفاهيم والتفسيرات التي أعطيت لها . وحسبي أن أعدد بعضاً منها لأقنع قارئي بما أقول ؛ فهناك اشتراكية سوفيتية ، وصينية ، وشرقية ، ويوغوسلافية ، وأوروبية ، وهي تختلف عن الاشتراكية في انكلترا وفي البلدان الاسكندنافية ... والى جانب تعدد أنواع الاشتراكية حسب البلدان المطبقة فيها أو التي تدعي تطبيقها ، تعددت أنواع الاشتراكية حسب الأوصاف التي تعطى لها ؛ فهناك اشتراكية علمية واشتراكية عملية ، واشتراكية تلائم الظروف الخاصة لكل بلد ، واشتراكية سمحاء ، بناءة ، خلاقة ، ايجابية ... الخ ، وهي جميعاً أوصاف تزيد في غموضها .

ولنتساءل بعد هذا التعداد أين تقع اشتراكيتنا بين هذه الاشتراكيات التي سردناها على سبيل المثال لا الحصر ، وهو أمر ، على ما نعتقد ، قد يتعذر على أئمة الاشتراكية .

الجواب الذي نرغب أن نعطيه على هذا السؤال جواب شخصي ، لا يدعي تعريف الاشتراكية واضافة مفهوم جديد لها ، وانما سنسعى لابداء رأي حول النقاط الرئيسية التي يثيرها بناء اقتصادنا على أساس اشتراكي يحقق أهدافنا الاقتصادية والاجتماعية .

وفي اعتقادي أن أهم النقاط التي تستوجب تركيزاً أو انتقاءاً لتحديد مفهوم الاشتراكية العربية ولايضاح مضمونها ورسم حدودها هي نفس النقاط التي تثير الآن جدلاً في تطور الفكر والتجارب الاشتراكية معاً وهي : الملكية، والعلاقة بين الملكية وادارة الوحدات الاقتصادية ، ثم العلاقة بين هذه الادارة والتخطيط الاقتصادي ، واخيراً توزيع ثمرات الاقتصاد الاشتراكي بين مختلف عوامل الانتاج والمواطنين من جهة وبين هؤلاء والدولة من جهة أخرى .

الملكية في بنائنا الاقتصادي والاجتماعي

ان محور كل بناء اقتصادي واجتماعي هو الملكية ، ونظام الملكية هو الذي يحدد علاقات الانتاج في هذا البناء ، وهو الناظم لتوزيع الانتاج بين مختلف فئات المجتمع ، وبينها وبين الدولة من جانب آخر . فالملكية الخاصة غير المحدوده تعني تمركز تكوين رأس المال وخلق الطاقات الانتاجية بيد من يملك وسائل الانتاج .

والملكية العامة تنقل هذا التمركز لصالح الدولة كممثلة للمجتمع ، في ظل نظام رأسمالية الدولة أو للمجتمع كوحدة ، وذلك في نظام مايسمى بالملكية

الاجتماعية حيث تكون وسائل الانتاج ملكاً للمجتمع بكامله . وثمة نظم أخرى تقبل بكلا النوعين من الملكية : العامة والخاصة وقد يتميز البعض منها بالتعايش المثمر بين الملكية العامة والملكية الخاصة .

وعلى هذا الأساس يمكننا التمييز بين فئتين من الأنظمة الاشتراكية : الفئة الأولى وهي تضم النظم الاشتراكية التي تعتمد الملكية العامةوحدها ولا تترك مكاناً للملكية الخاصة في النشاط الاقتصادي . ومما لاشك فيه أن أبرز البلدان التي يتسم نظامها بهذه الخاصة هو الاتحاد السوفييتي . أما الفئة الثانية فتضم النظم الاشتراكية التي تعتمد على الملكية العامة لوسائل الانتاج ولكنها تقبل بالملكية الخاصة لهذه الوسائل أو لبعض منها وذلك في حدود تختلف فيما بينها . ويميز هذا الاختلاف في حدود الملكية الخاصة من جهة وفي شمولها من جهة أخرى ، نظم اشتراكية يزداد عددها يوما بعد يوم بسبب تطور تجاربها أو الاستفادة من تجارب غيرها في رسم حدود الملكية الخاصة وتحديد مجالاتها وشمولها .

وطبيعي أن يثير تعايش هذين النوعين من الملكية ، العامة والخاصة ، موضوع تنظيم العلاقة بينها وكيفية تعاونهما . فقد تخضع الملكية الخاصة للملكية العامة وتكون تابعة لها ، وقد تخضعان معاً لتخطيط شامل واحد تضعه الأجهزة المركزية في الدولة ، أو السلطات الاقليمية ، أو المحليـــة أو بالتعاون بينها جميعا . ولايضاح ماسبق نورد على سبيل المثال بعض النظم الاشتراكية الـــتي يختلف اقتصادها عن الاقتصاد الجماعي المطبق في الاتحاد السوفييتي ، نتيجة لاختلاف كل من النظامين في قبول الملكية الخاصة ، وبالتالي في تقديرهما للحافز الشخصي والحافز الجماعي في ميدان النشاط الاقتصادي . فيوغوسلافيا مثلا بعد أن اتبعت في السنوات الأولى التي أعقبت الحرب العالمية الثانية النمط الاقتصادي السوفييتي ،

اتجهت منذ عام ١٩٥٠ الى الأخذ بنظام اقتصادي اكثر حرية فبينما احتفظت الدولة بالملكية العامة لكل المشروعات الصناعية والتجارية فيما عدا المشروعات الصغيرة ، نجد أنها قد فتحت المجال واسعاً لتنمية الحافز الشخصي لدى المزارعين وأصحاب الحرف . فالى جانب الملكية العامة لوسائل الانتاج في معظم المشروعات في قطاعي التجارة والصناعة ، يلاحظ أن الأفراد يمتلكون كافة وسائل الانتاج في ميادين الزراعة والنشاط الحرفي ، حيث يمتلك الأفراد من الفلاحين حوالي ٩٠ ٪ من الأراضي الزراعية على أساس الملكية الخاصة ، وتمتلك الدولة الباقي .

وفي عالمنا العربي يمكن ذكر تجربة القطر المصري ، حيث اعتمدت الملكية الخاصة وبصورة رئيسية في القطاع الزراعي عن طريق تمليك صغار الفلاحين الاراضي المستولى عليها تنفيذاً لقانون الاصلاح الزراعي بينما لاتزال حدود الملكية الخاصة غير واضحة عبر هذه التجربة في القطاعات الاخرى وبخاصة في القطاعين الصناعي والتجاري . فبالرغم من أن الميثاق القومي قد حدد ، بشيء من التفصيل حدود كل من القطاعين العام والخاص ، بمختلف النشاطات الاقتصادية ، فقد دلت التجربة العملية على أن تطبيق المبادىء التي نص عليها الميثاق لم يأت مطابقاً لها بدليل التأميمات الاخيرة التي شملت قطاعات عديدة ووحدات انتاجية بمختلف الاحجام ، كان يتوقع أن تبقى في مجال القطاع الخاص وفقاً لما جاء في الميثاق ولهذا يمكن القول بأن دور الملكية الخاصة في النظام المصري لايزال عرضة لتغيرات جديدة حتى تأخذ التجربة مداها في التطبيق .

أما في الجزائر العربية فيبدو أن الموقف من الملكية الخاصة متأثر الى حد كبير بوجود قسط كبير منهـــا في ايدي المستوطنين . فالحكومة الجزائرية مع تأكيدها على قبول نظامها الاشتراكي للملكية الخاصة لاتزال

تلمس طريقها في رسم حدود هذه الملكية . أما بالنسبة للملكية العامة فيلاحظ أن القطر الشقيق قد نوع تجربته في هذا المجال حيث لجأ الى التأميم وادارة الدولة لبعض المشاريع المؤممة ، وهي مرحلة رأسمالية الدولة ، بينما طبق نظام الملكية الاجتماعية والادارة الذاتية في مجالات اخرى .

وفي سورية العربية لاتزال التجربة الاشتراكية في بدء تطبيقها ، وهي تحتاج ، في اعتقادنا ، الى تخطيط يحدد بوضوح موقفها من الملكية الخاصة في عدد كبير من القطاعات ، والواقع يدل على أن دور هذه الملكية وحدودها واضحان في القطاع الزراعي اذ اعتمدت الملكية الخاصة كأساس للاصلاح الزراعي ، وذلك بتمليك صغار الفلاحين الاراضي . وهي تتميز بذلك عن نظام الملكية الجماعية التي اخذ بها الاتحاد السوفييتي في القطاع الزراعي .

أما في القطاعات الاخرى ، فان التشريعات القائمة ، وخاصة المرسوم التشريعي الخاص بتنظيم الشركات الصناعية الصادر في العهد السابق ، قد اخذت بتحديد الملكية الخاصة في الشركات الصناعية المساهمة بحيث تمنع تمركزها في الشركة الواحدة واساءة استعمال مركزها فيها . ولكن هذا التحديد ليس نهائياً ولا يشكل حداً فاصلا للملكية الخاصة وقد واجه العهد الحالي ذلك صراحة ، بدليل تأميم المصارف مؤخراً . اذن لا بد من تحديد موقف الاشتراكية العربية في سورية مجدداً من الملكية الخاصة بوضوح وصراحة في القطاعات غير الزراعية .

ونعتقد في هذا المجال أن يتم تحديد دور الملكية الخاصة التي تم قبولها من حيث المبدأ ، كما ورد في ميثاق القاهرة وعلى الشكل التالي :

١ ــ الاحتفاظ بملكية وحق انشاء المشاريع الأساسية في مختلف القطاعات ، للدولة وحدها .

٢ ــ حصر ملكية وسائل الانتاج في القطاعات الأساسية ، وحق انشاء هذه القطاعات بالدولة سواء بسبب أهميتها في تطوير الاقتصاد القومي على أساس اشتراكي،أم بسبب صبغتها الاحتكارية،أم لأسباب استراتيجية. وللدولة الحق في تمليك القائم من القطاعات المذكورة لقاء تعويض عادل يدفع لأصحابها في مدد معقولة .

٣ ــ اشتراك الدولة في ملكية وسائل الانتاج في القطاعات والمشاريع التي لاتكفي مراقبة الدولة وحدها للحيلولة دون اساءة الفرد واستغلاله للملكية لها . وللدولة تحقيق هذا الاشتراك اما بالمساهمة في رأسمالها عند تأسيسها أو بتمليكها لقاء تعويض عادل يدفع لاصحابها في مدد معقولة .

٤ ــ ان يتلازم حق التمليك والواجبات المقابلة لهذا الحق ، وأن تلعب الملكية الخاصة دورها الاقتصادي والاجتماعي معا وبالمقدار نفسه في بناء المجتمع الاشتراكي الجديد .

٥ ــ اشعار كل مواطن بتملكه جزءاً من ثروات هذا الوطن وذلك باعادة توزيع الملكية وتيسير سبل التملك لصغار المنتجين والفلاحين والعمال .

٦ ــ عدم تمركز رأس المال الخاص في المشروع الواحد حتى لاتستأثر بهذا المشروع فئة دون غيرها ولا تبسط نفوذها عليه ، ولاتستغله لصالحها ، فتهدد بذلك بقية المالكين ، والدولة والمجتمع ، وذلك بتحديد الملكية في المشروع الواحد .

٧ ــ اعادة توزيع الدخل القومي بين مختلف الفئات الاجتماعية عن طريق توسيع الخدمات العامة وعن طريق الاعفاءات الضريبية بالنسبة

لذوي الدخول الضعيفة والمحدودة وتصاعد الضريبة بالنسبة لذوي الدخول المرتفعة .

٨ — ترجيح القطاعات الانتاجية على غيرها ، للاسراع في زيادة الانتاج القومي ، والاستفادة من هذه الزيادة في انشاء الخدمات العامة والتوسيع بها وتحمل أعبائها . ولكن هذا الترجيح يجب ألا يمنع أو يؤخر تنفيذ مشاريع الخدمات الاساسية وخاصة تلك التي تستفيد منها أكثرية الشعب .

٩ — توزيع المشاريع بين القطاعين العام والخاص على أساس واضح يحدد بصورة خاصة المشاريع التي ستترك الدولة مسؤولية تنفيذها للقطاع الخاص . على أن يكون التوزيع مبنيا على أساس حصر حق انشاء المشاريع الأساسية والمشاريع المتعلقة بالدفاع الوطني والمرافق العامة ، وجميع الصناعات التي تشكل احتكارا ، بالدولة .

وأما مشاريع القطاع الخاص فهي التي تسمح الدولة بتأسيسها ، وتكون داخلة في خطة التنمية في نطاق القطاع الخاص ، وتبقى في ذلك النطاق بعد انشائها . كما تسمح للأفراد بانشاء المشاريع في مختلف القطاعات الانتاجية وبصورة خاصة في الصناعة ، ويشترط في هذه المشاريع حينئذ عدم الاستغلال والاحتكار سواء بالنسبة للعمال أو بالنسبة للمستهلكين وعدم تمركز رأس المال الخاص فيها . وضمان عدالة توزيع عوائد الانتاج وأرباحه بين مختلف الفئات التي ساهمت فيه .

العلاقة بين الملكية والادارة

لقد برهنت معظم التجارب الاشتراكية المطبقة في العالم على قوة العلاقة بين ملكية وسائل الانتاج وادارتها . ذلك أن نقل ملكية وسائل الانتاج كليا

أو جزئياً من الأفراد للدولة أو للمجتمع لاتكفي بمفردها لبناء اقتصاد اشتراكي يحقق لكافة المواطنين وفاء حاجاتهم المادية والمعنوية وارتقائهم اقتصادياً واجتماعياً . وانما يجب ادارة وسائل الانتاج بالشكل الذي يحقق هذه الغاية . فقد تسيء الدولة مثلاً ادارة وسائل الانتاج وتوجيـــــه استثمارها نحو غايات لاتفي بحاجات المواطنين المادية والمعنوية وقد تثقل الدولة بأجهزتها البيروقراطيـة ادارة وسائل الانتاج بحيث تأتي نتائجها غير اقتصادية وتهدر طاقات انتاجيـة ، أو جزءاً من الانتاج القومي .

ولعل تجربة الاتحاد السوفييتي خير مثال على ماسبق ذكره اذأنهااضطرت الى تعديل نظم ادارة وسائل الانتاج منذ الثورة حتى عام ١٩٣٢ أكثر من مرة، وظلت تتلمس الطريق للوصول الى حل سليم .

وتقدم التجارب الاشتراكية في الدول الأخرى أمثلة عديدة متنوعةعن ادارة وسائل الانتاج فمنها من يأخذ بادارة الدولة ، كما فعلت الدول الاشتراكية الشرقية في معظم القطاعات الاقتصادية ومنها من يأخذ بالادارة الذاتية بالاشتراك مع الدولة أو بدونها ومنها من أخذ بالحلين معاً أي بادارة الدولة مع اشراك ممثلين عن العمال والموظفين ، كما فعل القطر المصري .

وفي رأينا أن الحل الأمثل بالنسبة للقطر السوري أن تتجه التجربة الاشتراكية نحو الادارة الذاتية من قبل العمال والموظفين في مختلف القطاعاتغير الزراعية ، على اعتبار أن الادارة المباشرة من قبل المالك ، والتعاون بين المالكين في اطار التعاونية ، هو النظام السائد في القطاع الزراعي .

على أن تحقيق الادارة الذاتية ونجاحها يستوجبان توفر شروط عديدة أهمها تأهل العمال والموظفين لها . وفي رأينا أن يتم هذا التأهيل تدريجيـاً وعلى

مراحل يشترك خلالها ممثلو الدولة مع ممثلي العمال والموظفين في الادارة مع تقليص نسبة ممثلي الدولة تدريجياً وفقاً لتقدم تأهل العمال والموظفين حتى بلوغ المرحلة النهائية ، حيث يقتصر حينئذ دور الدولة على التخطيط بالتعاون مع ادارة الوحدات الانتاجية المنظمة على أساس الادارة الذاتية .

وفي اعتقادنا أن الادارة الجماعية الذاتية تؤمن هدفين رئيسيين أولهما جعل الملكية في القطاع العام ملكية اجتماعية ، عوضاً عن تمركزها في الدولة وخلق نظام أقرب الى رأسمالية الدولة منه الى النظام الاشتراكي . وفي الوقت نفسه تحقق هذه التجربة فصل الملكية عن الادارة ، بحيث يدير وسائل الانتاج التي يملكها المجتمع ممثلون عن العاملين في استثمار وسائل الانتاج وتشغيلها وأخيراً تفتح الادارة الجماعية الذاتية أمام العمال مجالات تمكنهم من الارتقاء وظائفياً وبالتالي اجتماعياً واقتصادياً .

ومما لاشك فيه أن مشكلة ادارة وسائل الانتاج أصبحت في المرحلة الحالية من تطور الاشتراكية في العالم من ابرز المشاكل التي تخوض هذه التجربة حديثاً لمعالجتها بالاستفادة من تجارب الدول التي سبقتها في التطبيق ، وتوفيقها مع أوضاعها الخاصة . وانا شديدو القناعة بأن معظم النتائج العكسية التي ظهرت في التجارب الاشتراكية السابقة ، والتي قد تظهر في التجارب المقبلة من جراء نقل ملكية جزء أو كل وسائل الانتاج للدولة أو للمجتمع ، حصلت بسبب نظم الادارة المطبقة والادارة البيروقراطية التي يقوم بها موظفون يمثلون الدولة . ولهذا نلاحظ أن عدداً من النظم الاشتراكية القديمة والحديثة قد تطور أو يتطور تدريجياً نحو التخلص من الادارة البيروقراطية الى الادارة الجماعية الذاتية ، أو الى حل وسط يجمع بين الادارة الذاتية وادارة الدولة ، وتختلف هذه النظم

بصورة خاصة في طبيعة وأهمية دور ممثلي الدولة في ادارة وسائل الانتاج . فمنها من يقتصر على تسهيل مهمة الدولة في التخطيط ومنها من يشارك في التوجيه والتنفيذ ومنها من يعطي ممثل الدولة حق الاعتراض ورفض القرارات التي تتخذها ادارات الوحدات الانتاجية العامة .

ونحن نميل الى النظم التي يقتصر دور ممثلي الدولة فيها على تيسير مهمتها في التخطيط ومراقبة تنفيذه ، وعرض مقترحاتهم على الاجهزة المركزية التخطيطية والتنفيذية دون أن يكون لهم حق رفض القرارات مالم يصدر مثل هذا التوجيه من الاجهزة المركزية لأسباب تتعلق بالتخطيط العام للاقتصاد القومي . وهذا مايقودنا للبحث عن مشكلة أخرى من مشاكل الاقتصاد الاشتراكي وهي مشكلة التخطيط .

التخطيط والاقتصاد الاشتراكي

بالرغم من عدم التلازم بين التخطيط والاقتصاد الاشتراكي وامكانية تطبيق التخطيط في نظم اقتصادية غير اشتراكية ، لأن التخطيط اداة وليس بنظام ، فما لاريب فيه أن نصيب النجاح أعظم في الاقتصاديات التي يتسع فيها القطاع العام منه في الاقتصاديات التي تسود فيها الملكية الخاصة ، لأن التخطيط في مثل هذه النظم يقوم على اساس التوجيه والترغيب والتشويق ، وقد لا تؤدي جميعها الى تنفيذ الخطة من القطاع الخاص والتقيد بها . بينما يساعد تمركز دور التخطيط والتنفيذ في سلطة واحدة في النظم الاقتصادية الاشتراكية ، على تنفيذ الخطة ، وتكييفها خلال التنفيذ وتعديلها وفق نتائجه ، وبلوغها الأهداف المحددة لها بقسط أوفر من النجاح عن الذي يتوفر لها في الاقتصاد الرأسمالي .

ولقد تطور التخطيط في النظم الاقتصادية الاشتراكية مستفيدا من التجربة العملية فيها ، وتناول هذا التطور بصورة خاصة تنظيمه ووسائله .

فبالنسبة لتنظيم التخطيط دلت التجربة أن اللامركزية فيه شرط أساسي لنجاحه ، وهذا مادفع بالاتحاد السوفييتي ويوغوسلافيا معا الى تطوير تنظيم التخطيط فيها بحيث تتيح للسلطات المحلية أن تلعب دوراً كبيرا في وضع الخطط حتى تكون أقرب الى واقع الاقتصاد القومي وامكانياته ، وتتجاوب مع السلطة المركزية في تنفيذ الخطة تجاوبا يستند الى مسؤوليتها في رسم الخطة وتقديراتها .

ولهذا فاننا نوصي بان يعاد النظر في تجربتنا بحيث تساهم الوحدات الانتاجية والسلطات المحلية في اعداد الخطة وأن يرافق التخطيط على الصعيد القومي تخطيط محلي .

اما بالنسبة الى وسائله الفنية ، فمما لاريب فيه أن انتقاء هذه الوسائل يجب أن يأخذ بعين الاعتبار وضع وامكانات جهازنا الاحصائي وقدرته على التطور ، لأن التخطيط يستند أول مايستند الى المسح الاحصائي ، ولهذا فليس الخيار لنا في انتقاء الوسائل التي يضعها العلم الحديث بين أيدي المخططين ، كما ينبغي لنا أن نأخذ بأبسطها بحيث يمكن الاستفادة منها على ضوء مايتوفر في بلدنا من معلومات رقمية ، ثم نستزيد فائدة من هذه الوسائل بقدر مانتمكن من تطوير جهازنا الاحصائي .

ولهذا فاننا نوصي بأن نبدأ بأسلوب الموازين وهو أسلوب بسيط لايسمح لنا المكان هنا ببحث تفاصيله ، وانما نقتصر على القول أن أهم مزاياه انه يمكن من التخطيط في بلد يفتقر الى الاحصاءات تماما كما فعل الاتحاد السوفييتي حتى عدة سنوات خلت ، حيث بدأ بتحسين هذا الاسلوب والاستفادة من الوسائل التخطيطية المطبقة في بعض دول الغرب ، كجداول الناتج والمستخدم التي وضعها الاقتصادي ليونتييف ، والمحاسبة القومية

المطبقة في بعض دول وأوروبا الغربية وبصورة خاصة الوسائل التي تستعمل في أعداد ميزانيات اقتصادية تقوم على اساس التنبؤ بالاستناد الى الحسابات السنوية في السنين السابقة .

توزيع الاستثمار

وأخيراً ، لا آخراً ، فمن جملة المشاكل التي يجب معالجتها لبناء اقتصاد اشتراكي ، تأتي مشكلة توزيع الاستثمار ، خلافا لما يعتقد بأن مشكلة التوزيع مشكلة رأسمالية تزول في النظام الاشتراكي بسبب زوال أسبابها . ومن أهمها : الملكية الخاصة ، واحتكار رأس المال وسيطرته الخ... ، فان هذه المشكلة تبقى مطروحة حتى في النظم الاشتراكية وان اختلفت مظاهرها باختلاف نظام الملكية المطبق وادارة وسائل الانتاج . ففي النظام الذي يستبعد الملكية الخاصة لوسائل الانتاج والذي يتركز فيها تخطيط الاقتصاد القومي وادارته في أجهزة الدولة ، يجري توزيع الناتج القومي وفق خطة الدولة التي تحدد فيها الأجور والأسعار، وتكيف هذه الأجور وفق اعتبارات عملية قد لا تكون عادلة ، وان كفلت لصغار العمال حداً أدنى للأجور ، يضاف اليه عدد من الخدمات الاجتماعية كما هو الحال في الاتحاد السوفييتي . وفي النظم التي يتمايش فيها قطاعان ، عام وخاص ، يجري توزيع الدخل وفق قواعد تختلف في القطاعين مها حاولت الدولة التوفيق بينها على أساس تكييف قواعد التوزيع والتأثير عليها في القطاع الخاص بحيث تحقق عدالة نسبية في التوزيع وتحول دون تباينها مع عدالة التوزيع التي تراها الدولة في قطاعها العام .

وقد يقول قائل بأن ملكية وسائل الانتاج هي التي تحدد توزيع الناتج القومي ، ولهذا فان انتقال هذه الملكية للدولة أو للمجتمع يحقق العدالة في توزيع الناتج القومي بالغاء الريع والفائدة (بمعناهما الاقتصادي والعلمي) اللذين يسببان

سوء توزيع الدخل القومي في النظام الرأسمالي . وقد يكون ذلك صحيحاً جزئياً ولكن الغاء الربح والفائدة هو مظهر سلبي من مظاهر بناء اقتصاد اشتراكي . أما مظاهره الايجابية فهي التي تساعد في تعميم ثمار النشاط الاقتصادي على كافة المواطنين كل حسب استحقاقه الذي تحدده مساهمته في تكوين الدخل القومي مع تأمين حد أدنى من الدخل لكل مواطن يسمح له بالعيش كما تقتضي انسانيته . ولكي ينال كل مواطن النصيب الذي يستحقه من الدخل القومي على الأساس السابق ذكره ، لا بد من معايير تحدد هذا الاستحقاق . فما هي هذه المعايير . وكم تحدد مثلا قيمة ساعة عمل العامل العادي ، وساعة العامل الماهر ، وساعة عمل الموظف والمهندس ... الخ ؟ في النظام الرأسمالي يشكل السوق وعنصراه الرئيسيان العرض والطلب المقياس والناظم الرئيسي لتوزيع الدخل القومي بين مختلف عوامل الانتاج مع الأخذ بعين الاعتبار كامل العوامل المؤثرة على هذه السوق كالاحتكار ، والتلاعب ، والمضاربة ... الخ والتي تصيبه بخلل يكون في معظم الحالات لصالح الرأسماليين . أما في النظام الاشتراكي فان التخطيط المسبق يصبح بديلا عن السوق وان كانت الدولة الاشتراكية كثيراً ماتضطر للجوء الى وسائل السوق لتكييف تخطيطها مع النتائج الواقعية . كتخفيض سعر سلعة تبين أن انتاجها فاق ماقدر لها من استهلاك أو العكس . والتخطيط لا يصبح بديلا كاملا للسوق الا اذا كان شاملا للقطاعين العام والخاص . وحتى في هذه الحالة فان التخطيط قد يعجز عن تحديد ضوابط لتوزيع الدخل القومي في القطاع الخاص . ولا بد له من اللجوء الى وسائل غير مباشرة لتعديل التوزيع الذي يتم عفوياً ، كفرض ضرائب تصاعدية تساهم في تسوية أو تذويب الفوارق بين الدخول ولو جزئياً .

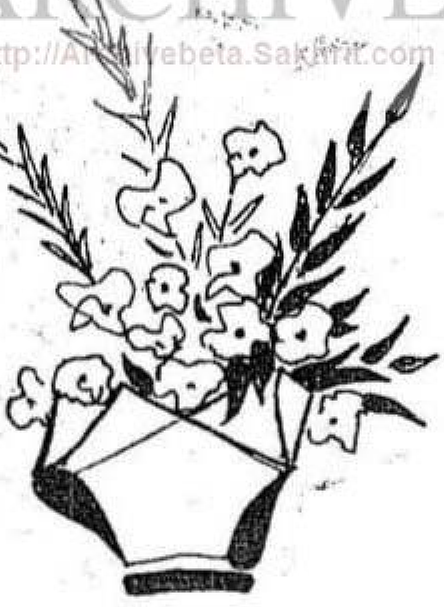
ولايضاح أهمية المشكلة التي تثيرها بصدد توزيع الانتاج القومي ، نورد

على سبيل المثال تجربة الاتحاد السوفييتي في تحديد الاجور التي تطورت اكثر من مرة مكيفة وضعها مع نتائج التخطيط ، حتى وصلت الى درجة من تعدد الاجور واتساع الفوارق بينها ، ليس لها مثيل حتى في الدول الرأسمالية ، وذلك للتعويض عن فقدان الحافز الشخصي ، بزوال الملكية الخاصة . ويستنتج من ذلك أن تحديد الاجور لم يأخذ بعين الاعتبار معايير موضوعية تستند الى قياس الجهد المبذول وانما اضطر الى اثارة هذا الجهد وزيادته باغرائه بدخل اضافي . ثم اضطر فيما بعد الى تأمين سبل لاستعمال هذا الدخل الاضافي لتثبيت الحافز الشخصي ولكي يجد العامل أو المهندس مايشجعه على زيادة الجهد وبالتالي زيادة دخله ثم التمكن من استعمال دخله حسب رغبته . فتنوعت السلع الاستهلاكية لاستيعاب الدخول الاضافية وسمح بايداع الفائض من الدخل في صناديق الادخار لقاء فائدة تصل الى ٣٪ سنويا ، تماماً كما هو الحال في الدول الرأسمالية ، واعطيت حرية التصرف بهذا الدخل الفائض .

ونعتقد أن توزيع الدخل القومي في الاقتصاد الاشتراكي يثير مشاكل عديدة في المراحل الأولى لبناء الاقتصاد الاشتراكي حيث يتوجب تقليص الاستهلاك وزيادة الادخار لاستعماله في خلق طاقات انتاجية جديدة . ويمكن تقليص الاستهلاك عن طريقين : أولهما تحويل الفائض من الدخل عن الاستهلاك لصالح الدولة وثانيهما الحفاظ على هذا الفائض لصاحب الدخل وايجاد السبل اللائمة لتوظيفه بحيث يستفاد منه في تمويل التنمية الاقتصادية في نفس الوقت الذي يبقى فيه ريعه حقاً لصاحبه، وهذا مانوصي به في بلدنا خاصة . وأن الاتحاد السوفييتي بعد تجربة عشرات من السنين اضطر الى تبني هذا الطريق بالرغم من قرابته للقواعد المألوفة في النظم الرأسمالية . ومما يؤيد هذا الاتجاه أن ضغط الاستهلاك في البلدان المتخلفة أمر عسير جداً لضعف المستوى المعاشي ، وهو غير مرغوب فيه ، ولذلك فانه من الايسر

تحقيقه عن طريق احتفاظ مايفيض من الدخل لصاحبه ، علـه يجد في ذلك حافزاً لقبول تقليص استهلاكه وادخار المزيد من دخله وقبول تحويله لتمويل التنمية الاقتصادية .

هذه خواطر حول المشاكل التي يثيرها بناء الاقتصاد الاشتراكي، استهدفت آثارتها أكثر من معالجتها ، على أمل المساهمة مع الباحثين الاقتصاديين في القاء بعض الأضواء عليهـــا كيما تنير معاً الطريق الذي سنسلكه ونحن في طريقنا نحو تحقيق الاشتراكية .



الاشتراكية العربية
مبادئها وخصائصها وفلسفتها

للدكتور سعدي بسيسو

- ٣ -

اسسها الفلسفية :

تكلمنا في بحثنا السابق[١] عن تعريف الاشتراكية العربية ومدلولها وعن مبادئها وخصائصها الذاتية التي تفرقها عن أنواع الاشتراكية الاخرى ، ويتوجب علينا بعد ذلك أن نستكشف ذلك الينبوع الفياض من المثل الاخلاقية والانسانية والحقائق الجوهرية الذي تستقي منه اشتراكيتنا أسسها الفلسفية ومعالم روحها الثورية . ولعل من الجائز اجمال تلك المثل والحقائق في أربع قواعد أساسية هي

القاعدة الاولى : لكل انسان عربي ، بوصفه انساناً ، حق كرامة بشرية .

القاعدة الثانية : لكل مواطن عربي ، بوصفه مواطنا ، حق عدالة اجتماعية .

القاعدة الثالثة : الملكية الفردية وظيفة عامة

القاعدة الرابعة: التضامن هو أساس المجتمع الاشتراكي العربي .

---

(١) راجع المعرفة : العدد السادس ـ السنة الثانية ـ حيث نشر القسمان ١ و ٢ من هذا البحث .

وسنوضح فيما بعد كلا من هذه القواعد على انفراد :

القاعدة الاولى :ففيما يتعلق بالقاعدة الأولى فان الاشتراكية العربية انسانية بمفاهيمها واهدافها، وترتكز على حقيقة جوهرية هي ان الانسان ، الخلية الحية الأصيلة في جسم الامة ، هو صاحب الشأن الأول في الحياة بالاجتماع ، وأن كل مايتمثل في الوجود من مظاهر الحركة والنشاط والفعاليات المختلفة انما القصد منه بالدرجة الاولى رعاية هذا الانسان ماديا ومعنويا ، وتوفير ماينبغي له من أسباب البقاء والنمو والارتقاء.

وفي الواقع فان النقود والاراضي والحقول والمباني وكذا الانهار والمصانع والمعادن وغيرها من الكنوز والأموال في الدولة لاقيمة لها إذا لم تكن وسيلة بالفعل لخدمة الانسان ورفع شأنه ، ولا سيما انقاذه من غوائل الحاجة والفقر وتخليصه من عوامل الجهل والمرض والقلق وامثالها التي تحطم الشخصية وتورث المذلة.

ولاجدل في اعتقادنا ان تلك الثروات جميعها تظل عديمة الجدوى أيضاً اذا ماحصرتها في يديها بعض العناصر المتنفذة واتخذتها اداة تستبيح بها اذلال وهدر كرامته واستغلال طاقاته تحقيقاً لمنافعها ومصالحها وبلوغ غاياتها ومآربها الخاصة . ولا ضير عندئذ بالطبع في مجتمع تعيش اكثريته العظمى عيشة بدائية أو متخلفة تفتك بها الامراض الاجتماعية وجراثيم الفاقة والجهل مثلا . ولا شأن لمجتمع لايحيا حياة الانسان الكريم فيه غير فئة محظوظة قليلة العدد بينما نرى الاغلبية في صفوفه حفاة عراة أو بائسة تصارع الاقدار بمرارة في سبيل تحصيل القوت اليومي وما قد تسد به الرمق .

فلكل هذا ليس بمستغرب قط أن تنهض الاشتراكية العربيـة في بناء مجتمعنا الأمثل على تلك القاعدة الاساسية التي تفرض أن يكون لكل انسان عربي بوصفه انساناً حق كرامة ، وان يتم القضاء على كل ما من شأنه أن يسبب

له المذلة وانحلال الشخصية . والحق فان أهم ثروة في الأمة هم ابناؤهـا الذين هم سر بقائها ودعائم أمنها وسلامتها ، وبناة مجدها وحاملو رسالتها ، وبمثل ما تكون عليه حالهم من عز أو مهانة تكون حالتها في الحاضر والمستقبل .

وغني عن القول أن في مقدمة الامور التي تحفظ للانسان ، أي انسان ، معاني انسانيته وآدميته حق الكرامة البشرية ، تلك الكرامة التي يصبح بدونها من غير شك كالآلة الجامدة تدور كما يراد لها أن تدار ، وتعمل وتتحرك ليل نهار بلا هدف تنشده او غاية تسعى اليها . وأية قيمة بعد لمثل ذلك الانسان الذي تجردت شخصيته من جوهرها ، ومشى في التيه والظلام غافلا لايدرك من معاني وجوده شيئاً يذكر .

ولعل من الضروري قبل أن نحدد معنى الكرامة البشرية تحديداً علمياً أن نقرر بان كسب الحرية السياسية واقامة حكم وطني مستقل في البلاد بعد طرد الاجنبي الحاكم أو المحتل لايكفيان وحدهما دائماً كما تنال الجماهير الشعبية حقوقها كاملة في الحرية الاجتماعية والكرامة الانسانية . وكثيراً ماتظل هذه الجماهير أو معظمها في عهود مابعد الاستقلال على حالتها الاولى من البؤس والتعاسة رغم انها هي قبل غيرها التي حققت النصر والجلاء بالأرواح والدماء . وهكذا يبدو الأمر وكأن الاستقلال لم يكن الا استقلال الطبقة الحاكمة ، والحرية لم تكن الا حرية ذوي النفوذ والسلطان .

ومن ذلك يظهر لنا انه لافائدة ترجى في الحقيقة للانسان العربي من عيشة تافهة على هامش الحياة لاتتوفر له فيها الكرامة البشرية التي هي دونما ريب أسس انسانيته وروح اجتماعيته .

واننا نعني بالكرامة البشرية تحرر الفرد من جميع العوامل الشخصية

والبيئة التي تسبب اذلالاً للنفس وتورث هدم القيم الانسانية مثل الحرمان من وسائل العيش الضرورية كالغذاء والمسكن والملبس والعلاج ، وفقدان عناصر تكامل الشخصية كالتربية الخلقية والقومية والتعليم والتهذيب ومبادىء الثقافة العامة . ليس هذا فحسب بل أن مايهـــدد الكرامة الفردية أيضاً تعاظم الأقوياء واحتقارهم للضعفاء وامتهان الاغنياء للفقراء وتحكمهم بهم احياناً كثيرة تحكماً خالياً من الرحمة ويأباه الضمير الحي . وكذلك اقدام الفئات المحظوظة بالصدفة أو بالوراثة على تسخير سواد الشعب في نظام بال يقوم كله على الظلم والفساد والتنافس الجشع لتجميع الأموال والثروات وتكديسها لحساب الاحتكاريين والمستغلين الذين مات فيهم كل حس اجتماعي ولا يعرفون في حياتهم حد القناعة والا كتفاء.

وفي مواجهة هذه المفاسد الشائنة بحق الانسان العربي في كثير من انحاء وطننا ومكافحتها تعالت صيحات الاشتراكية العربية الثورية داعية الى القضاء على تلك الشرور من جذورها ووجوب توفير مايضمن للفرد بخاصة وللجماهير الشعبية بعامة كل ما يحفظ لها الكرامة البشرية في أحوال الصحة والمرض والشيخوخة والعوز ، وتأمين حد ادنى لها من الحاجات والخدمات المادية والمعنوية التي تحقق للمجموع عيشة لائقة ومستوى اجتماعياً حسناً . وتلك لعمر الحق مثل انسانيـــة واخلاقية رفيعة قل أن رأينا لها مثيلاً في بلادنا من قبل ، مثل تعتز بها اشتراكيتنا المؤمنة بها ، وتجعل هذه الاشتراكية جديرة بكل ماتناله في الاوساط الشعبية من اقبال وترحيب وتأييد .

القاعدة الثانية : ولا يقل حق العدالة الاجتماعية في فلسفة الاشتراكية العربية أهمية عن حق الكرامة البشرية . وانه لأمر مسلم به ، كما نعتقد ، بأن تـــأمين الحاجات المادية والجسدية للانسان لا يكفي وحده لبلوغ التقدم والسعادة والرقي في

مدارج الحياة، وأن لا بد بالضرورة من توافر لوازم أدبية ونفسية هامة مثل اسباب الطمأنينة والاستقرار وامل الوصول الى المستقبل الاسعد التي لا تتحقق الا في ظل الامن والعدل .

وتعني العدالة الاجتماعية المساواة وتكافؤ الفرص للمواطنين جميعاً بغض النظر عن الوراثة والمولد والميزات الاخرى ، وهي تروم ازالة المظالم الاجتماعية الناجمة عن التفاوت الكبير في الثروة والدخل ، وتخفيف هوة الفوارق الواسعة التي تفصل بين الطبقات من حيث الغنى والنفوذ ومستوى المعيشة المادي والفكري والاجتماعي ، والسعي لاذابتها وازالتها قدر المستطاع .

وجدير بالملاحظة ان الاشتراكية العربية لا تقصد بالمساواة أن يصبح الغني فقيراً أو الملاك أجيراً . كلا فان اشتراكيتنا لا تستهدف غير ازالة مظاهر الفقر ومحو عناصر الاستغلال على ما سنوضحه فيما بعد .

ويقيناً فان هم الاشتراكية العربية هو العمل على ايجاد الظروف الملائمة التي تمكن كل فرد من الطبقات العاملة والكادحة من الحصول على مزيد من الدخل وخدمات الدولة بما يساعده على تحسين معيشته ورفع مستواها ، وعلى استكمال الحاجات التي تهيء له سبل التقدم الاجتماعي دون محاولة هدم الغنى والثراء في الدولة.

وكذلك فان المقصود بتكافؤ الفرص ان تكفل الدولة لرعاياها من غير تفريق أو تمييز بينهم فرصاً متماثلة في التعليم والعمل والخدمات المدنية كافة ، وان تقدم لكل من لا تتوافر فيهم القدرة على الكسب لأي سبب الاسعافات اللازمة لتأمين حياة لائقة كريمة .

وخلاصة القول فان الاشتراكية العربية اذ تحمل مشعل العدالة الاجتماعية في وطننا تصر على وجوب تأميم أدوات الانتاج الرئيسية ولتوجيهها للخير المشترك ،

وعلى سن التشريعات الزراعية الثورية وحماية حقوق العمال ومصالحهم وبالاجمال استخدام جميع الموارد القومية ، المادية والبشرية لتحقيق الرفاهية والازدهار لمجموع الشعب .

القاعدة الثالثة : — وأما القاعدة الثالثة من قواعد فلسفة الاشتراكية العربية فتختص بالملكية الفردية ودورها في الحياة الاجتماعية . والملكية كما نعلم قوة ذات بأس لايستهان بها ، وهي في الواقع سلاح ماض ذو حدين ، فهو من جهة يصلح للدفاع عن النفس وصد الاخطار وقهر الاعداء ، ومن الجهة الثانية يمكن أن يكون أداة غدر وجور وطعن الابرياء في القلب أو الصدر أو الظهر ، وفي أية حال فان الأموال والثروات كما تستخدم أحياناً في أعمال البر والخير وانجاز المشروعات النافعة للناس فكذلك تستخدم أحياناً أخرى في أعمال التعسف والاستغلال وشراء الضمائر وافساد الذمم وتخريب انظمة الحكم . ومن ذلك يتضح بان حرية الملكية الخاصة لايجوز أن تبقى مطلقة ، بل يلزم أن ترسم لها حدود تقف عندها وقيود تلتزم بها حتى تظل كما ينبغي لها ان تكون وسيلة فقط للاهداف الايجابية والاغراض السامية لاغاية في ذاتها تتمثل فيها المادية والانانية بأبشع صورها.

وبعبارة أصح فان الملكية وظيفة اجتماعية لها حقوقها وصلاحياتها وعليها واجباتها ومسئولياتها ، وان لهذه الوظيفة دوراً خطيراً عليها القيام به لصالح المجتمع وبوجه خاص اجتناب ايقاع الضرر بالفئات الشعبية العاملة واستغلال البسطاء والعامة.

نعم ان حق التملك محترم وهو يخول صاحبه صلاحية الانتفاع والاستمتاع والتصرف بالأموال والثروات على النحو الذي يشاء ، ولكنه حق غير مطلق بالمرة ومقيد بشرط واحد هو اجتناب الاضرار بالمصالح العامة ، وبخاصة استئثار الأقلية بأغلبية الملكية وحرمان الجماهير الشعبية من حقوقها الطبيعية في الكرامة والمساواة .

ولما كانت الحقائق العلمية والتجارب العملية قــد اكدت بان الملكيات الضخمة ورؤوس الاموال الكبيرة ميالة بطبعها وعاداتها الى تخطي الحدود المرسومة لها وتجاوز القيود المفروضة عليها فقد وجب أن تضع الاشتراكية الامور في نصابها السليم ، وان تقيم التوافق والتوازن بين الملكية الفردية وبين أهداف المجتمع ، وذلك بالتأميم وتحديد الملكيات الكبيرة وحمـــاية حقوق العمال وغيرها كما سبق ان أوضحناه قبلاً .

وثمة ناحية هامة سبقت الاشارة اليها أيضاً وهي ان الاشتراكية العربية لا ترمي في تخطيطها وسياستها أن تحيل الملاك الى اجراء او أن تحول الاغنياء الى فقراء. إن هذا مجرد وهم خاطىء كما نرى ، فكل ماتنشده اشتراكيتنا هو افساح المجال أمام الاجراء كي يصبحوا كلهم أو بعضهم طبقاً لمقتضيات الحال ملاكا ، وازالة عوامل البؤس والفقر، واتاحة فرص رفع مستوى المعيشة للجميع من غير استثناء . وبدهي ان من يعمل على توسيع دائرة الملكية حتى تشمل اكثرية المواطنين لا يقدم على الغائها ، ومن يجد في تحقيق الرفاهية والرخاء للاغلبية العظمى من السكان لا يعقل ان يحرم منها أية فئة من فئات الشعب .

القاعدة الرابعة : وآخر القواعد التي ترتكز عليها اشتراكيتنا في مفاهيمها الاخلاقية والانسانية هي أن التضامن اساس المجتمع الاشتراكي العربي . فلقد أصبح ثابتاً ان دور الدولة قد تجاوز في العصر الحديث مهمة حفظ الأمن والنظام وتصريف شئون القضاء والتعليم وغيرها ، وانيطت بها مسؤليات جسيمة في ادارة معظم المرافق العامة وتوجيهها وحل المشاكل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية على اختلافها . وطبيعي ان الدولة لا تستطيع انجاز واجباتها هذه على الوجه الافضل الا بالتعاون الوثيق بين الافراد انفسهم من ناحية ، وبينهم وبينها من ناحية اخرى ، وبأن يتحمل كل فريق في علاقاتـــه المتبادلة مع الآخرين التبعات المترتبة عليه

ويوفيها حقها . وبذلك يرتفع التضامن الى درجة يصبح معهـا نوعاً من المشاركة الايجابية في تحمل مسئوليات الحياة وأعبائها الخاصة والعامة .

هذا ولن يفوتنا بعد ذلك ان نشير الى حقيقتين هما :

الاولى : ـ ان المجتمع في جوهره وحدة متكاملة وان كل خلية فيـه سواء كانت الفرد أو الأسرة أو الاقليم مرتبطة ارتباطاً محكماً بالخلايا الاخرى ، وهي جميعها تعيش متفاعلة في بعضها بعضاً وكل مايصيب الواحدة فيهـا يحدث رد فعل طبيعياً في الباقي منها . ولهذا فقد لزم أن تكون العناية بسلامة المجتمع منصرفة الى خير اجزائه جميعها . والا فان التصور أو الاهمال سوف يورثانه السقم والاعتلال والهزال، والضعف لامحالة .

الثانية : ـ والحقيقة الثانية هي ان كل مايحققه الافراد أو الجماعات في الدولة من مكاسب انما يرجع الفضل فيه الى المجتمع ذاته الى جانب النشاط الخاص . فلولا وجود هذا المجتمع ومايسره للناغبين والراغبين من فرص الكسب ومجالات الرزق لظهروا عاجزين فعلياً عن بلوغ اي فوز أو نجاح ، وما استطاعوا قط جمع أية ثروة أو نوال أي دخل . ويترتب على هذه الحقيقة بالطبع ان يعود الى المجتمع الذي ساهم مساهمة ذات بال في أمور الانتاج والثروة والربح بنصيب عادل منها جزاء ما أسداه من خدمات وفرص ، كي ينفقه بدوره في اغاثة الضعفاء والفقراء واعانة العجزة والمعوزين وتنشيط الخدمات العامة اللازمة للمجموع . كما يجب ألا ننسى أخيراً أن ننوه بأن التضامن الاجتماعي بين الافراد والدولة الذي يؤدي كما ذكرنا الى تحسين احوال الطبقات البائسة والمحرومة يعزز في الوقت نفسه في المدى القريب أو البعيد اواصر الزمالة والأخاء بين أبناء الوطن الواحد ، ويحقق التوازن الفعلي في المجتمع، والقضاء على التنافس غير المتكافيء وعلى الحقد وصراع الطبقات .

السبيل إلى الاشتراكية

بقلم أديب اللجمي

ان للنضال الشعبي الواناً عديدة ، واسباباً متنوعة . فقد يكافح الشعب يوماً للخلاص من مستعمر دخيل ، وقد يتجلى نضاله في تحرير ارضه السليبة ، وقد يهب في وجه قوى حكم عات ؛ كل هذه ضروب من النضال الشعبي . الا أن ثمة نوعين اساسيين من كفاح الشعب يتجهان الى تحقيق الاشتراكية :

١ – ثمة كفاح جماهيري يستقطب مجموع الطاقات الكادحة ، والسواعد المنتجة ويظهر في تمردا كثرية محرومة معوزة على اقلية متسلطة متخمة . ذلك هو الصراع الطبقي ، صراع بين العامل ورب العمل ، بين طبقة المستخدمين وطبقة ارباب المال ، بين الاغنياء والفقراء . والغاية التي قد يتمخض عنها هذا الصراع هي احدامرين :

(*) راجع المقال الاول من هذا البحث في العدد الماضي بعنوان « الاشتراكية ومفهوم الطبقات الاجتماعية »

فاما أن تتمكن الطبقة المهيمنة على اقتصاد الامة ومقدراتها من ايقاف التمرد الشعبي، ومن المحافظة على امتيازاتها الاصلية ، ويكون ذلك باستعمال العنف تارة ، وبسلوك اساليب المناورة تارة اخرى عن طريق بعض الاصلاحات الجزئية ، او عن طريق تقديم بعض الخدمات ذات الطابع الجماعي (كزيادة اجور العمال نسبياً ، أو انشاء صندوق الضمان الاجتماعي ، او اقرار الضريبة التصاعدية على الدخل) ؛ واما أن تتمكن الطبقات المحرومة من مواصلة تمردها على فئة المستغلين ، فتنتصر عليهم بالقوة وتتخلص منهم ، بوصفهم يمثلون في نظرها ، مجموع القوى الشريرة ، وبوصفهم ، في نظرها مسؤولين عن سوء الشروط المعاشية التي يعانيها الكادحون ، وبوصفهم اخيراً يسيطرون على قوى الانتاج في الامة .

مثل هذا الصراع الطبقي هو احد السبل الى الاشتراكية ، كما يراه المفهوم الماركسي . انه صراع حتمي ، تاريخي ، مزمن ؛ هكذا كانت الامور في الماضي ، وهكذا هي الآن . ولن تتمكن الطبقات الكادحة من ان تتسلم مقدرات امورها الا باصطراعها مع الطبقة البورجوازية ، والا بانتصارها على هذه الاخيرة ؛ بذلك تقوم دولة الكادحين ، دولة البروليتاريا ، وبذلك ايضاً ينتهي الصراع الطبقي .

الا ان السؤال الكبير الذي يفرض نفسه تلقائياً هو التالي : **من يضمن لنا ألا تنبثق من دولة البروليتاريا ذاتها طبقة صغيرة ، هي مثلاً طبقة البيروقراطيين الذين يتحكمون في مصير الاكثرية تحكماً عشوائياً او مقصوداً ؟ أيقوم في هذه الحال صراع طبقي ؟ ألا نكون فعلاً أمام فئة ، قليلة أو كبيرة ، تتحكم في فئة اخرى ؟** ان لدينا شواهد عدة على انبثاق مثل هذه الطبقة ، او على الأقل مثل هذه العقلية ، في الاتحاد السوفييتي نفسه ، وبعد حوالي اربعين سنة من قيام التجربة الاشتراكية فوق ارضه .

ومن ناحية ثانية ، اننا نلاحظ احياناً حتى في مجتمع انتصرت فيه الطبقة العاملة ، ان هذه الطبقة قد لاتدرك السبيل الصحيح الى الاشتراكية ، بل قد يكون نضالها كله متشحاً بنوع من الطوبائية التي هي اقرب دغدغة الى الخيال منها الى محاولة تبديل الواقع الاجتماعي تبديلا جذرياً . في كثير من بلاد العالم اليوم تقوم حركات تنبثق من قلب القواعد الشعبية من صميم جماهير الكادحين ، ومع ذلك يظل بين نضالها وبلوغ الطريق الى الاشتراكية بون كبير .

٢ – وثمة نضال شعبي ثان ، يتسم بوعي خاص للاهداف التي ينشدها ؛ انه يتجه الى اقامة مجتمع يسوده الرخاء ، وتتوفر للفرد فيه شروط الحياة الكريمة بمختلف وجوهها . ان مثل هذا النضال لا يشترط ان يكون الصراع الطبقي ذاته هو المسوغ لوجوده ، اي ان الصراع الطبقي في نضال شعبي واع لا يستهدف ازاحة طبقة المستغلين ، بقدر مايستهدف تحقيق الشروط والظروف التي يزول فيها استغلال الانسان للانسان .

• • •

من هذه الزاوية نرى ان النضال الذي تمارسه الجماهير لتبلغ الطريق الى الاشتراكية ، هو نضال يرمي الى تحقيق مجتمع تتوفر فيه خصائص كبرى أهمها:

أ – انه مجتمع تكون الملكية فيه اجتماعية ، بحيث لاتخص شخصاً بعينه ، ولا فرداً بذاته ، ولا مجموعة افراد وحدهم ، بل تخص المجتمع بكليته .

ب – ان الاشراف على الانتاج يعود الى المجتمع .

ج – ان الغاية من الانتاج هي تحسين شروط حياة الناس .

ونظرة عامة نلقيها على الوضع الانساني الراهن بمجموعه ، ترينا ان الشروط الاقتصادية قد اصبحت مهيأة لتحقيق مجتمع تتوفر فيه الخصائص الثلاث السابقة

فلكي تصبح الملكية اجتماعية ، ينبغي أن تفقد طابعها الشخصي وطابعها الخاص والظاهر انها قد فقدت هذا الطابع في كثير من المجتمعات ، وفي اكثر الفروع الأساسية للحياة الاقتصادية . وحتى في البلاد التي لا تزال الملكية فيها تحتفظ بالطابع الفردي ، فان هذه الملكية تخضع الى تنظيم عام غدت به صفتها الفردية مجرد صفة حقوقية غـــير ذات مضمون . ان جميع الثروات الوطنية في سورية مثلاً (الفلزات ، المعادن ، البترول ، الطاقة المائية ... الخ) لم تعد ملك الافراد بل ملك الدولة التي تتولى توزيع هذه الخيرات على المجتمع .

اما موضوع الاشراف على الانتاج ، فلكي يتولاه المجتمع ، ينبغي أن تتحول وظائف القيادة من وظائف وراثية الى وظائف يكون تبوؤها بالاصطفاء . ولا تصبح هذه الوظائف اصطفائية إلا حين تصبح ملكية ادوات الانتاج جماعية ان نسبة الاصوات التي تشارك في انتخاب الوظائف القيادية ما زالت ضيقة ، الا ان هذا لا يمنع كونها تحترم مبدأ الاصطفاء . وسواء كان الأمر انتخاباً للبرلمان في بلد رأسمالي ، او انتخاباً للمجلس البلدي في مدينة اشتراكية ، فان الولوج الى هذه الوظائف القيادية يتم اليوم بالاصطفاء لا بالانتقال الوراثي . ربما كانت هذه الطريقة ناقصة حتى الآن ، الا انه يكفي توسيع نطاق الاختراع بحيث يشمل جميع الاشخاص المعنيين ، ليتحقق اشراف المجتمع على الملكية .

اما الخاصة الثالثة للمجتمع الاشتراكي ، فان التحسن المستمر لحياة الناس ، قد اصبح ممكن التحقيق لأن الربح وحده لم يعد هو المحرك للانتاج .

ان الاسس المادية (الموضوعية) للمجتمع الاشتراكي قد اصبحت متوفرة والموضوع يقوم على تيسير نمو هذه الأسس وتقويض العقبات الحقوقية التي تعيق قيام هذا المجتمع الاشتراكي .

فما هي هذه العقبات ؟ هناك اولاً انقسام العالم الى امم ، ووجود حدود قومية تعيق توزع العمل توزعاً عالمياً ، وتشل نمو القوى المنتجة على صعيد عالمي. اننا نشهد منذ سنوات اختلافات في التفاصيل وفي الاسس ، بين بعض البلاد الاشتراكية ذاتها .... وقد لا يكون الصراع العقائدي القائم الآن بين الصين والاتحاد السوفيتي آخر صراع من هذا النوع .

هناك ثانياً هيمنة الدولة ، وهي نتيجة حتمية لانقسام العالم الى امم مستقلة مما يؤدي الى جعل القوى المنتجة في خدمة سياسة القوة ، ويقوض كل ديمقراطية صحيحة .

وهناك اخيراً بقايا الاقتصاد الرأسمالي ، وهي تشل نمو الانتاج وتسبب خللاً في التوازن الاجتماعي يقوي من هيمنة الدولة .

فاذا لم تذلل هذه العقبات ، استمر العالم غارقاً في ازمة اجتماعية وسياسية تزداد خطورة وتؤدي الى حرب مزمنة .

ان الاشتراكية ضرورية للمجتمع الانساني الحديث . ولئن كانت العقبات الحقوقية التي تجابه الانطلاقة الاشتراكية هي من صنع الانسان ، فليس الانسان قادراً على تقويضها . ان الاشتراكية ضرورة انسانية ، الا أنها ليست حتمية ولكي تصبح واقعاً يحتضن المجتمع ، ينبغي ان يعمل الناس لها ، وأن يضعوا ارادتهم في سبيلها . ان الاشتراكية لا تهبط وحياً ، بل تتحقق نضالاً ، ومجاهدة ، واستبسالاً في الدفاع عن الحق ، عن جميع حقوق الانسان الاساسية ، واولها حقه في حياة كريمة حرة .

في المجتمعات التي يقوى فيها نضال الجماهير من اجل الاشتراكية ، يقوم احياناً صراع بين العمال والدولة يهدف الى زيادة القدرة الشرائية للعمال ، اي الى زيادة النصيب المخصص من الدخل القومي لسد حاجات الناس . واذ أن هذه الزيادة

لا يمكن بلوغها الا على حساب النصيب المخصص لحماية سيادة الدولة ، فبدهي أن كل زيادة في القدرة الشرائية تستتبع نقصاً في النصيب المخصص من الدخل القومي لتوفير حاجات السيادة القومية. ويكون من نتيجة ذلك منع سياسة القوة ، والسعي الى تمتين المبادلات بين الامم . ولكن نمو المبادلات بين الامم ييسر توزيع العمل توزيعاً عالميـــاً ويسهم في تقويض الحدود وفي صهر الأمم في اقتصاد عالمي يكون قاعدة للجمهورية العالمية .

. . .

ومن ناحية ثانية فان كفاح الطبقات الكادحة من اجل تحسين شروط حياتها هو في الوقت ذاته كفاح ضد خطر الديكتاتورية الكلية. فالواقع ان الديموقراطية مرتبطة بمستوى حياة الجماهير. ويرتبط هذا المستوى بالانتاج المعد للاستهلاك ، كما ان هذا الاستهلاك بدوره يرتبط بغاية الانتاج ذاته ، فلئن كانت الديمقراطية في النظام الرأسمالي ، شكلية اكثر مما هي فعلية ، فذلك لأن الغاية من الانتاج الرأسمالي هي الربح لا توفير حاجات الناس . ان مستوى الحيـــاة ، وبالتالي الديمقراطية ، لم يأخذا بالنمو والتزايد في النظام الرأسمالي إلا في القرن التاسع عشر ؛ ولقد تم ذلك نتيجة لفعل الطبقات العاملة وكفاحها ، لا لقوانين الانتاج الرأسمالي .

ان الديموقراطية كما هي اليوم في البلاد الغربية لم تكن هدية تنازلت البورجوازية عنها الى جماهير الشعب ، بل كانت كسباً من مكاسب الطبقة العاملة. وهذا واقع كثيراً ماننساه . ان الدولة حين تنتقل الى المرحلة المسماة « باقتصاد الدولة » تصبح فيها الغاية من الانتاج هي الحاجة ، لا الربح. الا ان هذه الحاجات ليست حاجات الناس ، بل تظل حاجات تخص ازدياد قوة الدولة ، او القوة القومية .

لهذا السبب بنزع اقتصاد الدولة الى الديكتاتورية الشاملة . وطبيعي ان تستمر الطبقة العاملة على النضال من اجل تحسين شروط حياتها ورفع قدرتها الشرائية ، وهي بهذا النضال تقوض نزعة الدولة تلك ، وتزيح في الوقت نفسه خطر الديكتاتورية الجماعية بتبديلها لاهداف الانتاج .

ثم ان للنضال الذي يقوم بين العمال والدولة معنى آخر . انه يؤدي الى تقويض هيمنة الدولة ، والى تحول هذه الى مجلس اداري للمجتمع . ذلك بأن الطبقة العاملة لاتستطيع أن تضمن المكاسب التي حصلت عليها الا حين تراقب بنفسها الانتاج ، ولن تكون هذه المراقبة ممكنة الابقيام ديموقراطية اقتصادية ، أي باسهام جماعات الكادحين والعمال في ادارة الحياة الاقتصادية . ذلك هو المطلب الاساسي للحركة العمالية الاشتراكية في ايامنا هذه . ولقد تحققت هذه المراقبة الى حد ما ، واصبحت حقيقة واقعة ، تشهد بذلك مثلا مجالس الادارة التي يتمثل فيها العمال بنسبة معينة ، أو لجان التسيير الذاتي ، كما هي الحال اليوم في الجزائر . ومعنى ذلك ان الادارة الديمقراطية للاقتصاد والانتاج هي نهاية عهد الهيمنة للدولة ، لأن الهيمنة ناشئة بالاصل عن كون الدولة او الحكومة هي التي تنظم العمل الاجتماعي ، اما الاشتراكية فهي ان يقوم العمال بأنفسهم بتنظيم العمل الاجتماعي وان ينضموا بأنفسهم في جماعات وهيئات .

ان العمال يناضلون لتحسين معاشهم وحالهم ، انهم يكدون ليرفعوا من نسبة الدخل القومي وبخاصة من نسبة الدخل المخصصة لتوفير حاجات الناس . وان لهذا النضال اهمية خاصة . فهو يهدف الى ازالة العوائق الحقوقية التي تحول دون انطلاق الاشتراكية . قد لا تكون الطبقة العاملة واعية وعياً كاملاً لمعنى هذا النضال التاريخي . الا ان الواقع يثبت بأنها لن تتمكن من تحسين شروط حياتها الا اذا حطمت الحواجز التي تعيق تفتح المجتمع الاشتراكي وازدهاره .

ان اقامة الاشتراكية تتطلب تحرير القوى المنتجة من كل مايعوق سيرها ونموها وتطورها . بذلك تحرر الاشتراكية الانسان، وتحرر العالم، وتمكن لجميع قوى الخير والبناء أن تقيم حضارة انسانية ، لامكان فيها للجوع والمرض والجهل، لامكان فيها للتمييز بين شعب وآخر ، حضارة تشيد قواعدها على محبة الانسان لأخيه الانسان ، وعلى حفظ السلام لجميع شعوب الارض .

ان اكبر ظاهرة نشهدها في السنوات الاخيرة التي اعقبت الحرب العالمية الثانية ، هي انتقال النظام الرأسمالي انتقالاً تدريجياً الى نظام سيطرة الدولة على شؤون الاقتصاد . وما سيطرة الدولة على الاقتصاد الا خطوة جديدة في الطريق الى الاشتراكية ، اذ أنها تحول الملكية الخاصة الى ملكية عامة ؛ فلا يعود ثمة مسوغ لوجود المتعهد الرأسمالي .

ان دولة الاقتصاد تجعل من الأجر ، الشكل العام لكل دخل . فهي تتجه في طريق صهر جميع الطبقات في طبقة واحدة ، هي الطبقة العاملة ، الطبقة التي تعيش من العمل، وتحترم العمل ، وشرف العمل . ثم أن دولة الاقتصاد تلغي قانون الربح وتقيم بديلا عنه اقتصاداً يعتمد على الحاجات .

ان الدولة الاشتراكية هي التي تهيء الشروط المناسبة لقيام الاشتراكية الاجتماعية . وقد قلنا ان الاشتراكية هي اقتصاد اجتماعي ، لا اقتصاد دولة ، انها اقتصاد يتجه في طريق الشمول العالمي ، والتكامل بين الشعوب. بهذا المعنى تنزع الاشتراكية الى رخاء جميع الشعوب ، دون أن يقتصر هذا الرخاء على شعب واحد بعينه . ومما لاشك فيه ان قيام اي نظام اشتراكي في بلد من بلدان العالم يسهل التقاء هذه الانظمة المتعددة ، المتقاربة في اشكالها ، والمتماثلة في قواعد انطلاقها ، لدعم المفهوم الاشتراكي العالمي وتقويته ، ولترسيخ الاشتراكية في العالم كله ، بوصفها الحل الامثل لمشكلات الانسانية في العصر الحاضر .

دروس

من تجارب الاشتراكية العملية في الدول المتخلفة

بقلم عامر الشريف

على الرغم من انتصار الاشتراكية في عدد متزايد من الدول الافريقية الآسيوية في فرض نفسها كحقيقة عملية ، يدفعها في ذلك الى الامام تفتح الشعب ورغبته في اطلاق طاقاته والاستفادة بشكل عادل من ثمرات هذه الطاقات المقبلة فان الحركة الاشتراكية لاتزال بسبب حداثتها كواقع عملي في العالم المتخلف ، معرضة الى نكسات وعثرات واخفاقات تهددها من جميع الجهات لتجعل من التجربة الاشتراكية ،بالتالي عملية فاشلة في اذهان عامة الشعب .

فكما ان هنالك دولا اتبعت النظام الرأسمالي واستطاعت بواسطته ان تزدهر باقتصادياتها وان تنمي مواردها الغنية كالولايات المتحدة وفرنسا ، وكما ان هنالك دولا اتبعت هذا النظام واستطاعت ، بجهد شعبها المستمر وحده

ان تزدهر دون ان يكون لديها موارد طبيعية مثل سويسرة ، فان هنالك عدة دول ، في امريكا اللاتينية مثلا ، اتبعت النظام الرأسمالي ايضاً ولديها موارد غنية جدا ايضاً لكنها فشلت في تنمية اقتصادياتها واجهزتها بشكل رأسمالي مثل قريناتها الاخرى وحافظ الانتاج فيها على مستواه البدائي المتخلف .

والخطر الذي تواجهه الاشتراكية اليوم هو امكان ظهور نوعين من الدول الاشتراكية، النوع الاول الذي ينجح في استعمال اساليبها لتنمية اقتصادياته والنوع الثاني الذي يفشل ويتخبط في اشتراكيته مثلما فشل وتخبط في رأسماليته قبلا .

وما من شك في أن الحركات الاشتراكية في الدول العربية كانت في طليعة الحركات الاشتراكية في الدول المتخلفة الافريقية — الاسيوية ، فالتفتح الاجتماعي الجماهيري في العالم العربي اصبح على نطاق اوسع مما هو عليه في معظم هذه الدول كالحبشة أو ساحل العاج في افريقيا او ملاسيا وافغانستان في آسيا مثلا .

والاشتراكية عندنا قد تمكنت خلال نضالها من اضافة عنصر هام جديد بالنسبة للدول المتخلفة ، لم تلتفت اليه الاحزاب الاشتراكية الاوروبية لعدم حاجتها اليه ، وهو ضرورة دمج المفاهيم القومية مع المفاهيم الاشتراكية ليتفاعلا معا ، فيزيد الوعي القومي حيثما وجد من الشعور الاشتراكي بينما يؤدي التفتح الاشتراكي الى مؤازرة النضال القومي .

والاشتراكية في العالم العربي ستحمل مجدداً اعباء الريادة ومصاعبها في كيفية تطبيق المفاهيم الاشتراكية في الدول المتخلفة ، الامر الذي يختلف في نواح هامة عن كيفية تطبيقها في الدول المكتملة النمو ، وهي ستكون الحدث الاساسي في العالم العربي في المستقبل القريب مستقطبة المعارضين من جهة والمؤيدين من جهة اخرى .

هذا وان تجربة الاحزاب الاشتراكية في جميع الدول الافريقية — الآسيوية قدامتدت حقبة كافية من الزمن ، وهي متجانسة في خطوطها العريضة متماثلة الى حد يمكننا من التوقف اليوم عند منجزاتها لنتعرض بعضاً من دروس تجاربها التي أتناولها في المواضيع التالية ليساعدها ذلك بعض الشيء في متابعة سيرها الى الامام :

١ — مستويات التفكير الاشتراكي

٢ — الاهتمام بتوزيع الدخل اكثر من الاهتمام بتنظيم الانتاج

٣ — تنافر الاحزاب الاشتراكية لتباين برامجها

٤ — الرأسمالية ضمن الاطار الاشتراكي

٥ — مبادىء التأميم

مستويات التفكير الاشتراكي :

التفكير الاقتصادي على ثلاثة مستويات مختلفة ، متكاملة ، ضرورية بمجملها لتحقيق نجاح سياسة الدولة: **فهنالك اولا التفكير الاقتصادي على صعيد الفلسفة الاقتصادية** الاجتماعية لوضع النظم المختلفة كالرأسمالية والاشتراكية والاقطاعية والمقارنة فيما بينهما من وجهة نظر فائدتها للشعب أو لفئة منه ولتسيير حياة الأمة ومختلف مرافقها الانتاجية والاستهلاكية بموجب خطوطها العامة وضمن اطارها الشامل .

ثم هنالك التفكير الاقتصادي في القوانين العلمية للاقتصاد مثل استنباط قوانين العرض والطلب والكفاءة الحدية لرأس المال وميزان المدفوعات وغير ذلك مما تحلل بموجبها الاوضاع السائدة في جميع النظم الاقتصادية .

وهنالك اخيرا التفكير الاقتصادي على صعيد الحياة العملية الذي يتمثل لنا في برنامج مفصل يضعه حزب ما ويستطيع تنفيذه خلال فترة معينة من الزمن في حال نجاحه في استلام الحكم:

ان الاحزاب الاشتراكية في جميع الدول المتخلفة تهتم ببحث الاشتراكية على الصعيد الاول من التفكير الاقتصادي ، أي على الصعيد الذي بموجبه تصف النظام الاشتراكي وفلسفة الاشتراكية بشكل نظري وتحدد لنا مزايا الاشتراكية المستجلبة لمائدة الشعب ، الا انها لاتضع برنامجاً مفصلا قبل استلامها الحكم ، يكون في جوهره ملائماً للاوضاع المحلية ويمتد فترة معينة من الزمن يتطلبها تنفيذه ، وينص بوضوح على مايريد الحزب تنفيذه وبالتالي عما لن ينفذه خلال تلك الفترة ، خصوصاً وأن الاشتراكية الشاملة لايتم بناؤها في شهر واحد او سنة واحدة .

لقد نجحت الاحزاب الاشتراكية في الدول العربية المتحررة في استدراك الأمر سريعاً واصدرت برامجها المرحلية اثر استلامها دفة الحكم أو اعلنت عن غاياتها الاساسية واطار عملها العام ، ولكن ذلك يجب أن يكون درساً لبقية الدول في اهمية تلافي الأمر والاهتمام بالنضال والتخطيط العملي جنباً الى جنب لا الواحد تلو الآخر . واهمية وجود برنامج اشتراكي مسبق يتناول بالتفصيل مايود الحزب تنفيذه في جميع المرافق يساعد كل فرد على تحديد موقفه منه والعمل على تنفيذ هذا الموقف بحزم اكثر .

كما أنه يجب ألا يعني استلام حزب اشتراكي دفة الحكم ، مجرد ادخال وجهة نظر جديدة لتسيير الامور ومعالجة القضايا كلما تظهر في حينها كما هي الحال عليه في الهند مثلا ، كما يجب عدم الاكتفاء بوجود خطة تنمية اقتصادية ، فخطة التنمية هي عادة سلسلة من المشاريع تود الدولة أو القطاع الخاص تنفيذها وتختلف عن البرنامج الحزبي لحكم البلاد كل الاختلاف .

يجوز أن يكون تحديد الضريبة التصاعدية والبحث في كيفية منع الاحتكار مثلا أدنى من وضع فلسفة الاشتراكية والبحث في نظرياتها وتطورها الا ان ذلك الجانب لا يقل اهمية عن الجانب الآخر في الحياة العملية .

الاهتمام بتوزيع الدخل اكثر من الاهتمام بتنظيم الانتاج :

اذا ما تناولنا معظم الدراسات التي كتبت عن الاشتراكية في الماضي في الدول العربية وفي غيرها من الدول المتخلفة نجد انهـا تهتم اكثر ماتهتم به بالاشتراكية كعامل اساسي ، بل كعامل وحيد في تحقيق توزيع عادل للدخل وتحقيق تكافؤ الفرص والعدالة الاجتماعية ومنع استغلال رأس المال لجهد الفرد الى غير ذلك من المزايا . الا انهـا لم تكن لتهتم كثيراً في معالجة قضية التنمية والعقبات التي تجابهها والتضحيات والمسؤوليات المترتبة على الفرد وسرعة النمو الممكنة وكيفية تنظيم الانتاج والاستهلاك لتحقيق ذلك النمو الخ ....

ان المفكرين الاشتراكيين في اوروبا على حق في ايلاء جل اهتمامهم قضايا الحقوق والمزايا التي تقدمها الاشتراكية للشعب الى حد يـكاد يفوق اهتمامهم بقضية التنمية والانتـاج ، فتطبيق نظام اشتراكي في دولة متقدمة مثل انكلترا قد حقق مكاسب مادية هامـة ومباشرة لعامة الشعب والحزب الاشتراكي هناك لا يواجه مشكلة التنمية كما نواجهها نحن هنا فالاجهزة اللازمة موجودة في بلاده والخبرة الفنية ورؤوس الاموال موجودة والمرافق الاساسية مكتملة النمو .

اما الاشتراكية في الدولة المتخلفة فانها لاترث عن الرأسمالية المتخلفة سوى الفقر والجهل لا الازدهار الاقتصادي والعلم . ولذلك فان نقطة انطلاقها تختلف عن نقطة انطلاق الاشتراكية الاوروبية . وبينما يمكن لتلك الاخيرة ــ الاشتراكية الاوروبية ــ الاهتمام اولا بتوزيع الدخل ، فان توزيع الدخل بالنسبة للاولى هو وسيلة لا غاية وهو مرحلة قصيرة اهميته ليست في رفع مستوى دخل الشعب عامة ، بل في كونها مرحلة للانتقال مبـاشرة الى مرحلة التنمية الصعبة حتى تصل في النهاية الى المرحلة الثالثة وهي التنعم بالرفاهية في ظل العدالة الاجتماعية وهي المرحلة التي تبدأ منهـا الاشتراكية في دول اوروبا الغربية ، أما اذا ماطبق بمفرده فنتيجته تكون خفض طاقة البلاد في الادخار وخفض رغبة من بقي لديه من رساميل في توظيفها .

فاذا تمكنا من وضع الاسس اللازمة واوجدنا الحلول العملية للتنمية الاشتراكية في بلادنا المتخلفة التي تسير نحو النمو لاصبح لدينا عندئذ اشتراكية عربية بمعنى الكلمة لاننـا نكون قد اضفنا تجربة جديدة على المفهوم الاشتراكي العالمي يمكن للغير الاقتداء به .

لنأخذ بضع امثلة عن الوضع الحالي :

لقد تحسنت صحة الشعب البريطاني مباشرة اثر تأميم الطب الذي طالب به حزب العمال مطولا وخطط كيفية تطبيقه مسبقاً اما نحن هنا فطلبنا هو ايجاد وسيلة لزيادة عدد الاطباء ورفع طاقة البلاد الاقتصادية حتى يكمل تحسين صحة الشعب في اطار طب مؤمم .

اما الاصلاح الزراعي فقد أعطي للفلاحين في الدول المتخلفة التي طبقته، على اساس انه في الدرجة الاولى يعطي حقوقا جديدة ويؤمن توزيع دخل عادل للشعب وبعد ذلك اهتمت في كونه وسيلة يمكن استعمالها في زيادة الانتاجية الزراعية عن طريق تنظيم أفضل وجهد اكثر من المزارعين.

ومسؤوليات العامل في العمل تجاه الدولة الاشتراكية لاتحدد في جميع الدول المتخلفة الا بعد اجراء التأميم حيث أن الاهتمام بالحقوق اكثر من الواجبات ، حتى اصبح عامة الناس في الدول المتخلفة ينظرون الى الاشتراكية كمجموعة حقوق يجب العمل على نيلها دون التفكير بالمسؤوليات والامكانيات الانمائية للاشتراكية .

تنافي الاحزاب الاشتراكية لتباين برامجها

تمعض الاحزاب الاشتراكية ، وخصوصاً المنتصرة منها ، لوجود فوارق بين برامجها وبرامج احزاب البلدان الاخرى ، ويرغب كل منها انسجام الآخرين مع النظريات التي يطبقها بنجاح في بلده ، لكن على الاحزاب الاشتراكية الاعتراف بوجود فوارق في درجة النمو الاقتصادي وتطور البيئة الاجتماعية والوضع الجغرافي تتطلب وجود فوارق مماثلة في كيفية تنفيذ المبادىء .

مثلا : على جميع الاحزاب الاشتراكية اتباع مبدأ منع القطاع التجاري من الاحتكار لكن درجة نمو التجارة في لبنان تجعل كيفية تنظيمها في الاشتراكية مختلفاً كل الاختلاف عن كيفية تنظيم التجارة في الجزائر الاشتراكية .

والمستوى الاجتماعي ومتطلبات الفلاح الاردني تجعل كيفية تنظيمه ومدى مسؤوليات والصلاحيات الممكن منحها له تختلف عن تلك الممكنة في اليمن أو عمان .

ولايمكن لأي برنامج تنمية تمشي في سوريا ان يتغاضى عن متاخمتها لاسواق لبنان بينما يستطيع السودان عدم الاهتمام بكونه واقعاً على حدود الحبشة وقت تنفيذه ذلك .

الرأسمالية ضمن الاطار الاشتراكي :

تنظر الدول الاشتراكية الى الدول الرأسمالية كالولايات المتحدة فتجد انها ادخلت تدريجيا تعديلات اشتراكية في روحها على نظامها الرأسمالي ، مثل الضريبة التصاعدية وبعضاً من العدالة الاجتماعية ، فتشير الى انه لابد لتلك الدول من استمرار السير على الطريق الموصل الى الاشتراكية الكاملة.

بينما تشير الدول الرأسمالية من جهة اخرى الى وجود مظاهر رأسمالية في الاتحاد السوفياتي مثل نشاط المؤلفين والموسيقيين الذين يتقاضون أرباحاً طائلة تتناسب مع درجة اقبال الشعب عليهم فتقول ان ذلك هو بداية التراجع على طريق تؤدي الى تفسخ نظام لايتلاءم مع طبيعة الانسان .

لكن الحقيقة هي انه لايوجد نظام اقتصادي واحد كامل يتلاءم بحذافيره مع الواقع الاجتماعي الامر الذي يجبر كل نظام على تجرع قليل من سموم الآخر ، فالرأسمالية تضع حدا لحرية الفرد في التصرف والنظام الجماعي يضع حدا لجماعيته .

لقد ذكرت ان المؤلفين في الاتحاد السوفياتي يتبعون حياة رأسمالية ، لكن ذلك لا يعني انه على المؤلفين عندنا ان يتبعوا ذلك النظام في ظل الاشتراكية فاختلاف البيئة ودرجة النمو الاقتصادي يتطلبان عكس ذلك تماماً وحماية الدولة .

وهكذا فانه على كل نظام اشتراكي ان يقرر مدى ونوع الرأسمالية التي سيحتفظ بها بناء على اوضاعه الخاصة ومصلحة نمو بلاده والكيفية التي يريد ان يطبق الاشتراكية بواسطتها .

مبادىء التـــأميم

التأميم هو مفهوم اقتصادي اجتماعي لتقويم اوضاع توزيع الدخل او اوضاع تنظيم الانتاج أو الاثنين معاً ، وبديهي أن تزداد اهميته كلما ازداد نمو البلاد الاقتصادي ، فالبلاد التي ليس فيها معامل البتة لاتحتاج الى تلك الاداة كثيراً .

وبما ان تجربة الاحزاب الاشتراكية التي استلمت الحكم في الدول المتخلفة دلت على انها لاتريد تأميم كل شيء او انها لا تريد تأميم كل شيء دفعة واحدة فانه يجب ان يكون هنالك مقاييس واسس علمية يقرر بموجبها اجراء التأميم وكيفية تطبيقه وسرعة تنفيذه وكالأسس المذكورة على سبيل المثال عند تطبيق هذه الاداة :

١ ـ هل تنظيم القطاع فاسد يعطل سير الانتاج ونموه .

٢ ـ هل تنظيم القطاع يمكنه من السيطرة على الدولة .

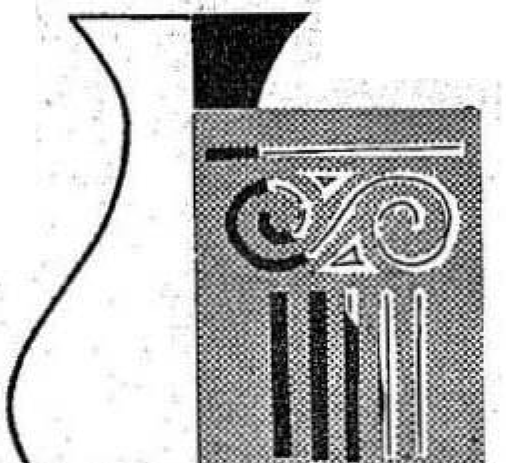
٣ ـ هل توزيع الدخل سيء بموجبه .

٤ - هل لدى الحكومة الجهاز اللازم لتنفيذ التاميم ، خصوصا اذا ما قامت الفعاليات المالكة له بوضع العقبات .

٥ - هل اكلاف التأميم معادلة ام اكثر ام اقل من الارباح الناجمة منه.

لايمكن لمعظم القطاعات ان تفي بجميع الشروط اللازمة لتأميمها ، او ان تتنافى معها كلها فلا تؤمم ، فكل قطاع له حسناته وله مساوئه مما يضع على الدولة عبء المقارنة بين النواحي السلبية والنواحي الايجابية لتقرر موقفها تجاهه :

لقد اعطتنا الاشتراكية في تجربتها في الدول المتخلفة عدة دروس ، لكنها في الوقت ذاته قامت بتحقيق عدة انجازات هامة اولها انها اصبحت حقيقة واقعة وان الصراع الاساسي اصبح يدور في الدول المتخلفة بين من يؤيدها وبين من يعارضها ، متمسكا بنظامه القائم ، دون وجود بديل ثالث يستعاض عنها به .



التخطيط الاقتصادي (١)
في نظر الاشتراكيين الديموقراطيين

بقلم ميروسلاف بتشوليتشك
تعريب جورج طرابيشي

عن اليوغسلافية

ان الفكر النظري والسياسي الاشتراكي ـ الديموقراطي في البلدان الغربية ليس نظاماً متجانساً ومتناسقاً من الافكار الفلسفية والسياسية والاقتصادية . بل هو ، على العكس من ذلك ، متنافس بما فيه الكفاية ، متناقض وتجريبي ، تتعدد فيه الآراء احياناً بقدر ما يتعدد المؤلفون ، وهذا بالأصل أمر طبيعي للغاية ، باعتبار ان هذه الاحزاب تقبل المنتسبين بغض النظر عن قناعاتهم العقائدية . وبالطبع ،هذا لا ينفي وجود بعض المبادىء المقبول بها «بشكل عام»، مبادىء تستلهمها هـــذه الاحزاب في قطاع العلاقات الاقتصادية . وبعض هذه المبادىء هي موضوع دراستنا هذه على وجه التحديد .

---

(١) سندرس في هذا المقال آراء وتطبيقات الاحزاب الديموقراطية الاشتراكية في البلدان السكندنافية وحزب العمال البريطاني . ذلك ان الظروف النوعية لتطور هذه البلدان العظيمة التقدم قد اعطتها العديد من السمات المشتركة ، وان لم نقض على الفروق بينها .

ولنلاحظ ، علاوة على ذلك ، اننا لم نحسب دوماً حساباً للآراء الرسمية ، المتهاجية لهـذه الاحزاب الاشتراكية ـ الديموقراطية ، ذلك أن مثل هذه الآراء لا وجود لها في غالب الاحيان. بيد أن تلك المفاهيم وتلك النظرات الفردية التي يتبناها الممثلون المرموقون للحركة الاشتراكية ـ الديموقراطية ، والتي يشرحونها في كتبهم ، تعبر تمام التعبير عن الاتجاهات الراهنة ، بل انها تعبر عنها احياناً خيراً من الآراء الرسمية .

ان هدف الاشتراكية العام يكمن ، حسب بيان الاممية الاشتراكية (١) ، في استبدال الرأسمالية بنظام تصبح فيه المصلحة الخاصة معلقة بالمصلحة العامة . والاهداف الاقتصادية المباشرة للسياسة الاشتراكية هي الاهداف التالية : الاستخدام التـام ، تنمية الانتاج ، تحسين مستوى الحيـاة ، الضمان الاجتماعي ، وتوزيع عادل للمداخيل والثروات (٢) . وينوه بيان الاممية الاشتراكية ، من اجل تحقيق هـذه الاهداف ، بعدة وسائل ملائمة ، يحتل التخطيط مكان الصدارة فيهـا .

التخطيط

لقد اتجه التفكير نحو التخطيط اكثر فأكثر ، في العقود الاولى من القرن العشرين ، تلك العقود التي كانت عبـارة عن حقبة من البطالة والازمات وعدم الأمان الاجتماعي ، والتي كانت مسلطة كسيف داموكليس فوق رؤوس غالبية السكان ، كتعبير عن القدر الاقتصادي . لقد شق تفكير ج .م كينز الاقتصادي ونظريته العامة الطريق امام التخطيط ، بهدمه سلطة المذهب المالي التقليدي الشديد العـداء للتخطيط . ولقد طورت الحرب العالمية الثانية اجهزة التخطيط تطويراً محسوساً ، اذ اثبتت عمليا ان امكانياته الـكامنة كبيرة للغاية . ولقد كتب عضو حزب العمال دوربان : « اننا اليوم جميعا مخططون » .

ولم يعد ثمة من يتساءل هل التخطيط واجب ، لكنهم يتساءلون فقط كيف ينبغي التخطيط ولقد اقترحت طريقتان . الاولى تقول ان القوة والسلطة الاقتصادية ، ينبغي ان تظل في ايدي اصحاب رؤوس الاموال الخاصة ، بينما ينبغي على التشريع وعلى التنظيم الاداري ان يوجها قراراتهم ، وان يعينا لهم حدودهم ، وان يحققا « الرقابة من الخارج » . بيد ان نظام التخطيط الاشتراكي يتطلب « الرقابة الداخلية » ، بالرغم من ان كل تخطيط يتطلب نوعاً من الرقابة الخارجية . وبهذا المعنى ، فان الدولة تمارس الرقابة مباشرة ، باحتفاظها لنفسها بالسلطة الاقتصادية وبتنفيذها سياستها

(١) : « قضايا الاشتراكية الديموقراطية ومشكلاتها » ـ الاممية الاشتراكية ـ ص ١٧

(٢) : هذه المقولات وغيرها ايضـا تميز النظام الذي غالبا ما يسمى بـ « دولة الرفاه » والذي يعتبره بعض المؤلفين مرادفاً للاشتراكية .

الاقتصادية الخاصة . ويحددون بأن الدولة ليست بحاجة ، كيا تبلغ هـذا الهدف ، الى تشريك الملكية الخاصة كلها ، بل يكفيها ان تسيطر على المراكز الاستراتيجية الاساسية لتوجه حياة البلد الاقتصادية . ويرى بعض الاشتراكيين ـ الديمقراطيين ان احد المراكز الرئيسية الاساسية هو الميزانية «التي هي اداة رئيسية ، بل الاداة الاقوى التي تعانق كل شيء» (١) . انهـا هي التي تسمح بتحديد الضرائب ، والقيام بالتوظيفات ، وتنظيم التداول النقدي ، وتوزيع الدخل القومي، الخ..

بيد ان الكثيرين من الاشتراكيين ـ الديموقراطيين يعتبرون ان الميزانيـة ليست اداة كلية القدرة . انهم يلحون على عجزها عن مراقبة الانتاج ، والعرض ، والمصادر المادية ، الخ... ولهذا يرون انه ينبغي ان تدعم باستخدام استراتيجي للملكية العامة (٢) ، اي بتشريك القطاعات الاساسية في الصناعة . واننا لنجد رأياً مماثلاً لهذا الرأي في بيان الاممية الاشتراكية ، يؤكد ان « هذه الاشكال المختلفة من الملكية العامة ينبغي أن تعتبر ... وسائل لمراقبـة الصناعات الاساسية والخدمات التي ترتبط بها الحياة الاقتصادية ورفاهية المجتمع » (٣) .

والواضح ان الاقتراح هو الابقاء على الملكية الخاصة مع خلق قطاع للملكية العامـة . ان التخطيط الاشتراكي لا يفترض الملكية العامة لكل وسائل الانتاج . فهذه الملكية تستطيع ان تسير جنباً الى جنب مع الملكية الخاصة في فروع بالغة الاهمية كالزراعـة والتجارة والصناعة الصغيرة والمتوسطة . (٤)

بيد انه ينبغي ان ننوه بأن التخطيط قد اصبح مطلباً عاجلاً من مطالب الازمنة الحديثة ، وتعبيراً عن ضرورات اقتصادية اساسية ، بحيث ان القوى الاجتماعية الاخرى ، ورأسمالية الدولة في المقام الاول ، قد بدأت بالاهتمام به ، ان ملكية الدولة لـ ٢٥ الى ٣٠٪ من وسائل الانتاج ، كما هي الحال اليوم ، تفرض عليها ، اي على الدولة ، مهمة تسيير هذه الوسائل ، بتوفيقها بين هذا التسيير وبين مصالح القطاع الخاص . وضرورة التخطيط هذه تنبع جزئياً من عدم امكانية تحقيق اعادة الانتاج الموسع على اساس فعالية قانون نسبة الربح كمنظم وحيد للتطور الاقتصادي . ان

---

(١) أ . ليويس : « مبادىء التخطيط الاقتصادي » . ص ٢٧ .

(٢) « اشتراكية القرن العشرين » ص ١٣٧ . لكن لنلاحظ ان مؤلفي هذا الكتاب غالباً مايشككون بأهمية مفهوم الملكية العامة الذي لايستطيعون ، على كل حال ، ان يستغنوا عنه في نظريتهم .

(٣) المصدر نفسه ص ١٧ .

(٤) المصدر نفسه : ص ١٧ .

على الدولة ، كما تواجه الفوضى في الانتاج والتوزيع وكما تمنع ان تتكرر أزمة السنوات الثلاثين ، ان تتدخل في الحياة الاقتصادية وان توطد فيها « النظام » بواسطة التخطيط . وهكذا نشأت نظريات اقتصادية عدة عن رأسمالية الدولة ، نظريات تعتبر في غالب الاحيان ان مراقبة المصارف ونظام القروض هي تلك الوسيلة القوية التي تسمح للدولة بتوجيه الحياة الاقتصادية .

ان التخطيط ، كما يتصوره عدد من الاشتراكيين الديموقراطيين على الاقل ، يختلف عن هذا المفهوم سواء من حيث الهدف (انهم يرون فيه وسيلة لتحويل المجتمع في اتجاه الاشتراكية) ام من حيث الاتساع والمنهج . ذلك ان الاشتراكيين الديموقراطيين ، وان كانوا لاينسبون البتة الى التخطيط طابعاً جماعياً ، الا انهم يرون انه ينبغي ان يكون اكمل مما هو عليه .

ويبدو لنا ان بعض الاشتراكيين - الديموقراطيين يبالغون ، الى حد ما ، في قيمة امكانيات التخطيط ، وهذا لأنهم يعتبرونه اداة مستقلة تمام الاستقلال ، غير مرتبطة بتشريك وسائل الانتاج . وعلى هذا فان بيان الاممية الاشتراكية لايطرح تشريك وسائل الانتاج كشرط لازم للتخطيط الاشتراكي والتحويل الاجتماعي (صحيح ان وظائف الملكية العامة لاتتعلق بضرورات التخطيط وحدها فقط ، بل هي تتطلب ايضاً شروطاً مسبقة كالغاء الاستغلال واقامة ادارة ديموقراطية لمنتجات العمل ، الخ ..) . والتخطيط يعتبر ، على هذا النحو ، الاداة الرئيسية ، والكافية تقريباً للتحويل الاشتراكي ، في حين ان مشكلة الملكية العامة قد اسقطت من الحساب . ويركز الاهتمام ، على هذا النحو ، على التخطيط ، وبدلاً من أن نجد رأيا مبدئياً في الملكية العامة ، لانجد الا مواقف منهاجية وتطبيقية ، حسب الموقف التاريخي .

الاستخدام التام

ان البطالة ، التي باتت ظاهرة طبيعية في الاقتصاد الرأسمالي ، اصبحت في القرن العشرين مشكلة اجتماعية تزداد نسبتها اكثر فاكثر وتصل الى ذروتها في حوالي عام ١٩٣٠ ، ذلك العام الذي ارتفع فيه رقم العاطلين عن العمل ، في كثير من البلدان ، الى حوالي ٢٥٪ من العدد الكلي للعمال . وكانت الازمة الاقتصادية الكبيرة ، المصحوبة بهذا الجيش الضخم من العاطلين عن العمل وبانخفاض رهيب في الاستهلاك ، قد طوحت على بساط البحث مجدداً مسألة اعادة انتاج الرأسمال الاجتماعي (ليس اعادة الانتاج الموسع فحسب ، بل ايضاً اعادة الانتاج البسيط) . ولقد كان امراً مستحيلا

تحقيق التوازن من جديد عن طريق الاعتماد على العمل الآلي للقوانين الاقتصادية وكان من الجلي انه لاغنى عن تدخل اجتماعي ، وبخاصة في ميدان الاستهلاك والتوظيفات .

ان الاشغال العامة التي شرعت فيها الدولة وخططتها بطريقة لاتحدث معها منافسة لنشاط رأس المال الخاص، كانت المرحلة الاولى في تسوية مشكلة البطالة ، مرحلة موسومة بمظهر المشكلة الاجتماعي ولم يكف الاستخدام التام عن ان يكون مرتبطاً بالتبصر الاجتماعي وحده الا تدريجياً ومن ثم اصبح احد الاعمدة الرئيسية في السياسة الاقتصادية الحديثة. لقد حيى انصار المفاهيم الاقتصادية الحديثة بحماسة ، الاشغال العامة التي كان يفترض فيها ان تستوعب اليد العاملة في اوقات تخاذل المبادهة الفردية وان تبعد الخوف من عجز الميزانية الذي باتوا يأملون بأن يعوضوا عنه في سنوات الازدهار الاقتصادي . لقد انتهى الامر بهذه المفاهيم الى ان تنزل الاستخدام التام منزلة العامل الرئيسي في الحياة الاقتصادية لشعب من الشعوب . ولقد كان لها في الوقت نفسه تأثير بالغ الاهمية على الفكر الاشتراكي - الديموقراطي ، وبخاصة في انكلترا وفي البلدان السكندنافية ، واصبحت جزءاً لايتجزأ من برامجها الاقتصادية . غير أن بعض الاشتراكيين - الديموقراطيين يقدرون ان مثل هذه المناهج لاتستطيع ان تكفل الاستخدام التام اذا لم يكن قطاع الملكية العامة واسعاً بما فيه الكفاية .

وبعض نتائج هذه السياسة الحديثة ، المسجلة في سوق اليد العاملة ، تقدم اللوحة التالية :

	عام ١٩٣٨	عام ١٩٤٩	حزيران ١٩٥٦
الولايات المتحدة	١٩٪	٥٪	٤,٣٪
بلجيكا	١٨,٤٪	١١,٦٪	٥,٥٪
الدانمرك	٢١,٣٪	٩,٦٪	٥,٢٪
المانيا الغربية	—	٨,٣٪	٢,٥٪
النرويج	—	٠,٨٪	٢,٨٪
السويد	١٠٪	٢,٧٪	١,٥٪

لكن لما كانت مقولة اقتصادية ، شأنها شأن مختلف اجزاء الاقتصاد ، لا تشكل جزءاً معزولة ، فان سوق اليد العاملة يولد سلسلة كاملة من الانعكاسات الجديدة على الاقتصاد

القومي . وتأخذ هذه الانعكاسات في غالب الاحيان اتجاهين متعارضين كل التعارض . فكما ان تخطيط الدولة ، من جهة اولى ، قد جعل الاستخدام التام قابلا للتحقيق ، كذلك فان الاستخدام التام يساهم بدوره ، عن طريق مشاركته في مختلف ميادين التحقيق (السياسة الضرائبية ، والنقدية ، والتوظيفات ، الخ ...) في توسيع التخطيط وفي مركزة الجهاز الاداري . وبالفعل ان الرأسمالية الفردية ، في البلدان التي يوجد فيها قطاع خاص قوي ، لا تقدم ما فيه الكفاية من الضمانات بصدد التدابير الواجب اتخاذها لتأمين استخدام اوسع ، ذلك ان قراراتها تتعلق بحساباتها الداخلية (الربح ، مستوى الاجور ، الخ ...) . ومن هنا كانت ، في الدرجة الاولى ، ضرورة عمل منسق ، وضرورة رقابة على التوظيفات ، بهدف تأمين استعمال صحيح لرؤوس الاموال الشاغرة ويهدف رفع الانتاج القومي الى اعلى مستوى ممكن . ومن هنا اتخذت تدابير عديدة تتناول السياسة النقدية ، وسياسة التوظيفات ، والاسعار ، والاشغال العامة ، الخ . . . وتهدف الى استخدام اليد العاملة استخداما تاما . والمظهر المشترك بين جميع هذه التدابير هو تدعيم الوظيفة الاقتصادية للدولة ولجهازها . « ان مثل هذا التدعيم للدولة وللبيروقراطية أمر غير مرغوب فيه من وجهة النظر الديموقراطية (١) » .

لكننا نشهد ظهور اتجاهات اخرى قادرة على توجيه التطور في اتجاه آخر ، اتجاه تعزيز التأثير الذي تمارسه المنظمات العمالية . وبالفعل ، لقد سبب الاستخدام التام تدفق جيش ضخم من العمال نحو المنظمات النقابية . لقد اكتفت قوة العمل الانسانية (وبخاصة في البلدان التي اصبح فيها تأثير الطبقة العاملة والاحزاب الاشتراكية ـ الديموقراطية على سياسة الدولة تأثيراً مسيطراً) عن ان تكون بضاعة يحدد قيمتها لعب القوانين الصارمة التي تتحكم في السوق الرأسمالية . بل على العكس ، فالتهافت الكبير على اليد العاملة ، والنسبة المنخفضة من العاطلين عن العمل ، وقوة النقابات ، والعقود الجماعية ، وشتى اشكال مساهمة العمال في اتخاذ القرارات ، قد اخضعت تحديد الاجور لضغط كبير تمارسه القوى الاجتماعية . ان مستوى هذه الاجور يبدو في غالب الاحيان كنتيجة لتنازلات متبادلة تقوم بها المنظمتان الضخمتان : النقابة العمالية ومنظمة المستخدمين ، او يبدو كنتيجة للجوء الى « قوة ثالثة » ـ اعني الى الدولة . لكن هذا الامر يثير الكثير من المشكلات التي لم يعد بالامكان حلها بواسطة طرائق قديمة . ان الضغط الهادف الى زيادة الاجور لا يكف عن النمو ، لكنه يجازف في الوقت نفسه بأن ينتهي بنصر على طريقة بيروس ، باعتبار ان ما يربحه العامل من زيادة الاجور يخسره في غالب الاحيان في ارتفاع الاسعار .

(١) : سكولد : « سوق العمل في اقتصاد الاستخدام التام » ـ المنشورات الاشتراكية الدولية ـ المجلد ٦ ـ ص ٦١٢ ـ ٦١٨

وهكذا ، ونتيجة لكون « **الكثير من المال لا يبتاع الا القليل من البضائع** »، نشهد ظهور صواعد ونوازل في الاجور والاسعار يهدد بابتلاع المصادر المالية اللازمة للتوظيفات ، هذه التوظيفات التي لا غنى عنها بدورها ، اذا ما كنا نريد ان نوسع الانتاج ونحافظ على الاستخدام التام . ان الدولة تدعو النقابات ألا تطالب بزيادة الاجور وألا تهدد التوازن الذي تم تحقيقه بصعوبة . **ان بعض الاشتراكيين ـ الديموقراطيين ينتهون الى النتيجة التالية في محاولتهم تسوية هذه المشكلة الاقتصادية الهامة من مشاكل عصرنا : فاما ان تتوسع الدولة الى حد تأخذ معه على عاتقها المسؤولية كاملة بصدد قيمة النقد ، والاجور ، ومستوى الحياة ، الخ ... وإما أن يُقبل العمال في الادارة بهدف اقناعهم بأنهم سيتلقون حصة عادلة من كل زيادة في الانتاج قد تصبح ممكنة اذا ارتضوا طوعياً بتحديد اجورهم . فالمقصود اذن تأكيد حق العمال في المساهمة في اتخاذ القرارات ، وعلى الاقل القرارات التي تتعلق باستخدام الامكانيات النقدية الناشئة عن رضاهم الطوعي بتحديد اجورهم ، وينبغي أن يملك العمال قدرة على اتخاذ القرارات ، بصدد العلاقة بين الاجور والتوظيفات ، تعادل قدرة الملاك الفرديين .**

وبدلاً من ان نتأخر عن تحاليل مفصلة لهذه المشكلة التي تطرق اليها الاقتصاديون الاشتراكيون ـ الديموقراطيون تطرقاً سريعاً اكثر من ان يكونوا قد تعمقوا(١) فيها ، يبدو لنا ان ثمة استنتاجاً يفرض نفسه بشكل لا يقاوم . ان الحلول الجديدة للمشكلات الاقتصادية والمالية المعقدة ينبغي ان يتم البحث عنها اما في اتجاه تدعيم الدولة ، واما في طريق يصبح محتماً تاريخيا ، الطريق الذي يدفع بالمجتمع الى ان يعترف للطبقة العاملة بحقها في ان تتصرف بجزء من فضل قيمة العمل ، مهما يكن هذا الجزء ضئيلاً في الوقت الراهن . ولكننا نتساءل في الوقت نفسه : أينبغي ان يظل حق المساهمة في اتخاذ القرارات في هذه الحدود ، ام ينبغي ان يمتد الى سائر ميادين الادارة ؟

ان النتائج الناشئة عن تنفيذ سياسة الاستخدام التام لليد العاملة قد ادت الى حصول تقدم كبير الى حد رأى معه الكثيرون من الاشتراكيين ـ الديموقراطيين ان الاستخدام التام هو الفصل الاخير في بناء بناية « دولة الرفاهية » العتيدة . بل اكثر من ذلك : لقد رأوا فيه المجازاً « وجد اخيراً بين الاشتراكيين الديموقراطيين وبين قضية الاستخدام التام ودولة الرفاه ».

---

(١) المصدر نفسه

ومما لاريب فيه ان هذا مكسب هام لاينبغي البتة ان نقلل من قيمته . ذلك انه بقدر ما يمثل وجود جيش احتياطي من العمال الصناعيين عاملاً منظماً ومعدلاً يسمح بالابقاء على الاجور فيمستوى منخفض للغاية ويقدم الرأسماليين اهم سلاح في صراعهم ضد الطبقة العاملة ، نجد ان الاستخدام التام يساهم في خلق جيش نشيط من الطبقة العاملة ويشكل سلاحاً قويا في يد هذه الطبقة . لكن النجاح المكتسب ينبغي الا يخفي عن الانظار وجهه الثاني . ان الاستخدام التام ، اذا ماتحقق في مجتمع تقوم دعائمه على الملكية الخاصة وملكية الدولة الرأسمالية لوسائل الانتاج ، يعني توسيع وتعميم العلاقة القائمة على الأجر والاستغلال ولا يعني إلغاء هذه العلاقة وهذا الاستغلال .

هذا عن التخطيط والاستخدام التام . وسنحاول في مقال قادم ان ندرس نظرة الاشتراكيين الديموقراطيين الى التأميم .



الآداب

الكتاب والموضوعات

- ومضة من تاريخ الماريات الثلاث

  ماريا السورية

  ذكريات بقلم : وجيه بيضون

- نظرات على افريقية

  من خلال الادب الافريقي الاميركي المعاصر

  ترجمة : ذكية الصوفي

- ماذا يطالعون

  ترجمة سعيد القضماني

- شجرة الزيتون

  قصة ــ ياسين رفاعية

- الأرض ، اليوم ، الليل ، النفس

  قصة مترجمة : خلدون الشمعة

ومضة من تاريخ الماريات الثلاث

ماريا السورية

ذكريات بقلم وجيه بيضون



ماري عجمي

ثلاثة دراري متالقات الضياء كأنما انبثقن من وراء الحدود لبنان الغبراء، فارسلن غمراً من اشراقهن وزينة سحرهن في ارجاء الشرق العربي : احداهن على شواطىء النيل ، وهي «ماري زيادة» أو « مي » كما عرفت؛ والثانية « ماري ينى » في ظلال الارز وصاحبة مجلة « منيرفا » ؛ والثالثة « ماري عجمي » مترجمتنا في هـذا المقال، على ضفاف بردى وسفوح قاسيون وقد نزلت منهن الاسماء على سواء ووفاق ليكن ثلاث «ماريات» في مثل الازاهير المتارجات اذا اختلفت فيهن الالوان، واختلف المكان ، لم يختلف شذاهن الفواح وجمالهن الوضاح .

وماريتنا هي أديبة الشام في الحركة الفكرية ، وأسبق السوريات حفلاً بالنهضة النسوية ، واخت الرجال في المطامح القصية .

عرفتها وقدجازت سن النصف قصيرة متدانية الخلق ، ريانة ممتلئة البدن، سمراء كأنما طال لثم الشمس إياها فتركت فيها حرقة جواها ؛ يتميز محياها بالعينين كحلهما السواد بمثل المداد ، وبالحاجبين زج ماينهما ، وبالفم المترامي ، والانف المستوي ؛ وبالاجمال ليس فيها من ظاهر الجمـــال وفتنته مايجد فيه مثل رافائيل آي طلبته .

والمأثور عن الطبيعة أنها لا تأخذ من ناحية إلا لتمنح من ناحية ؛ واذا كانت مترجمتنا لم تنعم بالجمال الصوري فقد نعمت والله بالحظ الاوفى من الجمال الروحي والفكري . وشتان شتان مابين الجمالين يبهر احدهما النظر ليمحي على الاثر، ويخلد الآخر على الزمن لا تزيده الايام إلا اشراقاً وائتلاقاً ؛ وينحصر الأول متعة شخص أو اشخاص بأعيانهم ، بينما يتسع الثاني ليكون ملكاً للانسانية جمعاء .

وهبت اديبتنا الى القلم أيقظ اوقاتها لتعيش كالوردة النائية في الاعالي تنسم بشذاها وليس ليد أن تنالها ، وكالنجمة المتوقدة لا تتصل بغيرها الا بنورها ، فكانت في الحق كالراهبة في محرابها منقطعة لعبادتها ، ولكنها وسمت الجميع بحبها ، والى هذا الشذوذ مرد كثير من خلائقها وأطوارها .

عرفتها في خصائصها نجية أبية مجدة ، آية في الذكاء والترفع والعزيمة ؛ وعرفتها في أحاسيسها غنية ، وفي مزاجها عصبية ، وفي مطامحها قصية . ثم عرفتها في الوطنية شديدة الحمية ، صعبة القياد ، صادقة البأس ، مشيعة الفؤاد . وهي الى هذا اخت الرجال في صولات النضال ، وشد الرحال الى الاسفار ، واحتمال النوازل والاخطار حتى كأنها المعنية بقول المتني حين قال :

ولو كان النساء كمن وصفنا لفضلت النساء على الرجال

وما إن يذكر اسم مترجمتنا حتى يقترن للحال باسم مجلتها « العروس » وهي التي صاحبتها عشر سنوات من العمر أودعتها عصارتها من الشعور والفكر وخلاصة مطالعاتها ومراجعاتها في الادبين العربي والانكليزي ؛ فكانت وحيدة عملها ، جبارة فيما استقلت من روازح حملها ؛ فهي المترجمة والمحررة ، والمصححة والمقررة ، والمديرة والمدبرة ؛ أي أنها كل شيء في « عروسها » كأنها « العروس » في استجماع الابصار اليها .

وليس يغيب عني الآن على ترامي الايام كيف كانت تستقل الينا في المطبعة مواد مجلتها مرقومة على قصاصات مستطيلة من ورق الصحف ، بخط دقيق الجرم ، عريض الحجم ، تناءى ما بين كلماته وسطوره حتى لتحتل الكلمة الواحدة محلها من ثلاث ، وتتوارد الاسطر المتعددة لتملأ السطر الفرد من المطبوع ؛ وليست تخلو صفحة من تحوير وتزوير ، أو طرس وطلس ؛ وربما تلوت أسطارها ليبدأ أولها موكداً ، ثم يعوج متأوداً الى أن ينتهي متصاعداً . هذا الى أنها كانت تؤثر في طبع مجلتها الحرف الدقيق ، ولا ترضى بغير التضييق في التنضيد والتنسيق ، لتخرج الصفحات غنية بالمادة ، وافية الفائدة . عنيت بحياة المرأة وبخاصة في الشرق ، فأرسلت قلمها في بحوث بنات حواء وصفاً ونقلاً وترجمة ، تستجلي الحقائق وتستقصي الدقائق ، مستنهضة الهمم لاقتفاء آثار من نجح وتقدم من الامم ، داعية الى الخروج من ليل الجمود البهيم بعد اذ انشق عن فجر الوعي المبين . وما اكثر ما استقطرت المداد صادحة أو نائحة في هذا السبيل ، لا يلذها مثل أن ترى اختها الشرقية آخذة بأسباب الرقي والفلاح ، ويسخطها كل السخط أن تلبث متسكمة في دياجير التعسف والاستعباد ؛ وكانت تصدق حملاتها حيثما لاحت التقاليد الكاذبة ، ماترضى بغير مايرضي الضمير والفضيلة من التطورات الدخيلة ، حتى اذا عوى من حولها الجامدون

الناقمون أو المتخذلقون الواهمون عرفت كيف تلقمهم الحجارة من حججها الدامغة وآرائها النيرة .

وعندي أن صورة المترجمة لا تستوي مبينة بأثرها ولا توفى حقها الحق من خلالها الا اذا تدبرناها في ثلاث : أولاً كمثقفة راقية شأت زمنها ، وتأدى لها الاتصال بالأسر الكريمة حيث كانت تبث أفكار التطور والتحرر ، وتجلو عن الأفهام صدأ الأوهام ، فكان لها فضلها المجيد الحميد ، ثم كمعلمة مربية وقفت شطراً كبيراً من أوقاتها على التدريس ، فأسدت الى الناشئات أمهات الغد أجمل العوارف وأجزلها اذ فتحت في أذهانهن مثل المنافذ الوسيعة على الحياة الكريمة ، واستوقدت عزائمهن الى التشبه بمن حفل التاريخ بذكرهن ؛ ثم كأديبة شاعرة وكاتبة جاهدت ناهدة مستبسلة الى أقصى الحدود في الاصلاح الاجتماعي والرقي الفكري ، في زمن مكفهر مدلهم بالجهالة والعصبية وبالحكم لا يعرف غير الظلم ، فليس لبنت حواء غير بيتها يطبق عليها كالقبر ، وليس لها أن تتعلم لأن تعليمها بمثابة الكفر ، وهو المزلة الى البغي والعهر .

أضف الى ما تقدم أن مترجمتنا عاشت عصامية ، لم يعنها ضيق ذات يدها من اطلاب المجد ، ولا تمطي ليل الجهل من قبس أنوار الثقافة ، ولا فقدان النصير من أن يكون لها من عزيمتها وبصيرتها خير معين ، ولا اختلاج الدهر من أن تتغلب عليه بالصبر . وما زالت بحق ملكت ما جعلها غنية بروحها وعلمها وأدبها ، غنية بالمحمدة من شهرتها والميزة بخلائقها ، تبارك بها العصامية مثالاً بين ربات الجمال يعز منها المثال .

بيد أن من المؤلم أن مجلتها لم تلبث أن حم بهـــا القضاء ، وكتب عليها الدثور بعد عشر سنوات من النشور ، لقلة النصير والظهير وعدم المكسبة رغم

المتعبة وفشل الأمل بعد طول العمل . وأذكر أني سألتها عما اذا كانت ستستأنف عملها عوداً على بدء ، فكان دبيب اليأس ماثلاً في كل كلة من جوابها حيث قالت : « وهل لمن استقل جبلاً ثم تحلل منه أن يعود فيحمله ؟ » . فهي اذن قد آدها الجهد واستروحت الخير اذ نفضت منه اليد ؛ وهي اذن قد تدسس اليها مثل ما يتدسس الى الشجرة ليحيلها من نضرتها الحية حطباً وحطاماً . ولقد حاولت من بعد أن تحفق بجناحيها من جديد ، فأصابها الاخفاق الذي يصيب الطائر المهيض نسل ريشه وانشلت حركته وتلبسه الموت حياً .

وليس والله أثقل على القلب ولا أدعى للأسى والكرب من العبقرية بامتيازها يتحيفها الزمن بالمحن لتؤول كالزهرة عصفت بها الريح الجائرة ، فانطوت على نفسها ذاوية أجمل ما تكون متوهجة متأرجة .

وما كانت مترجمتنا الا الوردة في جنان الأدب ، لها اختيالها من جمالها ، ولها فتنتها من فنها ، ولها مزيتها من عبقريتها ، ولكنها لم تجد بليلها من الطل وحرارتها من النور ورفيفها من النسيم . فما لبثت أن تحول بها اليأس الى مثل المس يخالطها ويختبلها حتى خرجت عن ذاتها ، فما تنتفع بها ، وانحطت بنبوغها من جنونه فوق الطاقة يخرق العادة الى النبوغ تلبسه التخبيل وامتلخ فيه العقل ، فكانت وسميتها ماري زيادة بمصر كأنها على مشرعة مرسومة الى النهاية المحتومة من شذوذ العقل نابهاً ثم شذوذه شائنا كأنما فقد نسخه من عصارته .

وان اتصالي الطويل بالترجمة ليمد في حديثي عنها مستطيلاً ، ولكنني أجتزىء بما يغني القليل منه عن الافاضة والتطويل .

كانت معجبة بالحكم العربي أثر الرجة العالمية الأولى أيما اعجاب ، متعصبة له توطد له الأطناب وتوليه النصر بقلمها وخطبها . وكانت معجبة كذلك بالشهيدين

بترو باولي وجورج حداد وأديب المهجر الاكبر جبران خليل جبران ، فنوهت بفضلهم فضل تنويه ، وفصلت من محامدهم ومآتيهم ما استوعب الفصول الطوال من مجلتها . بيد ان اعجابها بالاديب احمد شاكر الكرمي قد أوفى على غيره حتى لقد استحال الى حب وايثار . وليس أدل على ذلك من قصيدتها في مرثيته وقد أودعتها من لواعج قلبها ما لا زيادة وراءه لمستزيد ؛ ولم يكن هويها أقل كلفاً وحباً اذ كان يكثر من الاختلاف اليها في دارها ، ويصحبها في تنقلاتها وبعض أسفارها ويعينها على مرادها في مضطرباتها ، ولا يرضى الحديث عنها الا بما يرضيها ولو أدى ذلك الى القطيعة بينه وبين أعز الناس عليه . ومن ذلك ما وقع له حين زارها برفقة أحد الشعراء ، فلما صدرا عنها قال الشاعر : اني ليدهشني في الحق كيف تسكن مثل روحها الجميلة الساحرة معنى الى مبنى هو نقيضها . فكانت هذه الكلمة كافية للقطيعة الدائمة بينها .

وان أنس لا أنس شدة عطفها علي وحسن تلطفها بي وجميل نصائحها الي اذ كانت تزورنا في المطبعة كل يوم لعدة ساعات تقضيها في الاشراف على مجلتها . ولقد أسرت الي ذات مرة وفي عينيهـا بريق السرور بأنها تقدر فيّ ما لا تقدره في بقية العمال ، ولو كانت من ذوات اليسار لأرسلت بي الى معاهد العلم أتزود بما يزيدني تحصيلاً واقتباساً . وما اكثر ما أخذت علي إهمال صحتي ونحافتي وضروعي ثم ما اكثر ما استزارتني لتوقع على مسمعي ما استجد من نظمها ومطالعاتها ، ولتكشف لي من ألمها ما نتوافى به على مشرعة واحدة من السعي والمجاهدة في تربة قاحلة لا يستنبت فيها زرع او يستحلب ضرع .

وكان يأسفها من طالباتها انصرافهن الى التقليد فيما لا يفيد تبرجاً بتجاوز الحد ، ولهواً ينقلب بمعناه الى الضد ، وانقطاعاً الى صراخ الرغبة ونداء الجسد يقطع عليهن الطريق الى اجتناء ثمرات العلم والثقافة .

ولما حظيت دمشق بزيارة مي زيادة ، وكرمها النادي الأدبي الارثوذكسي ، وعقد لها الخطباء تيجاناً من القدر على عروش من الثناء والحمد ، كانت مترجمتنا

في خطبتها كالشمس كسفت ماحولها ، وكشفت عن تفوقها عمقاً في التفكير ودقة في الملاحظة وسعة في الاطلاع .

ومما أنبأتني أنها رحلت الى ارض النيل قبيل الرجة العالمية الاولى حيث عملت في صحافتها وبخاصة مجلة « اللطائف المصورة » وهي المجلة الوحيدة يومذاك كانت تطبع بطريقة الروتوغراف .

وقد انتسبت الى جمعية « الرابطة الأدبية » بدمشق ، ولما أن اصدرت الجمية مجلتها خصت هي بلجنة النقد ، فكانت المرأة الوحيدة بين الأعضاء الرجال .

وروت لي احدى شقيقاتها أن جملة من تواليفها في الأدب العربي ومترجماتها عن الأدب الانكليزي قد عبث به بعض الجيران خلال غيبتها في لبنان ، وأن ما استنقذته من بقية آثارها و كتبها قد أودعته مكتبة الكنيسة المريمية بدمشق .

وبالاجمال لقد كانت الآنسة عجمي احدى اديباتنا النابغات على ندورة في عصرنا وديارنا ، ولولا ماتحبها إبان نضجها مما أقعدها حلس دارها فقعد بها عن توفية رسالتها ، اذن لكانت في سموها الأدبي لايشق لها غبار ، ولحفظ لها تاريخ الأدب العربي أجمل الأثر في أجمل الآثار ، ولكنه القدر ماأقساه إذ يعصف بالعبقريات جانياً بما لا تغتفره الطبيعة الانسانية وان اغتفرته الحياة بحكمتها الأبدية .

لهفي عليها وقد استأثر الأدب بقلبها وحبها ، واستنزف أيقظ أوقاتها من شبابها . وكأني به لم يجز ثه ذلك كله حتى غلب عليها فاستلب عقلها كما تسلب الجوهرة اثمن ماتكون عند صاحبها ، فاذا هي من بعد لا تنتفع بنفسها من أدبها واذا هو نفسه لا ينتفع بحبها . وتلك هي أبعد المراتب في الحب ، بل أقسى وأدهى ماتبتلى به العبقرية في جنون من ابتلي بها .!

ويالهفي عليها مازالت بفكرها حتى تشع فشع متوهجاً ، ثم راحت تنشر على ما حولها من ذوبه مثل ماتنشر الشمس من مستطير إشراقها ، وكان مبكراً في انبعاثه ، قوي البهر في سطوعه ، فخمد خمود الجمرة طال توقدها وآن خمودها ، فخسرت حياتها قبل ان تخسرها الحياة ، وخسر بها الأدب نجماً كان نبعاً من النور فآل نبعاً ولكن من الذكريات الأليمة الشجية .

نظرات على افريقية

من خلال الأدب الإفريقي - الأميركي المعاصر

لألبير جيرار
ترجمة زكية الصوفي

- عن الفرنسية -

في هذه الآونة الاخيرة ، نال الكثير من الدول الافريقية استقلاله ، وحصل على حقه في تقرير مصيره ومصير غيره من الشعوب . وقد تنبه العالم من جراء هذه الحوادث ، الى الشعوب السوداء وزعمائها ، وتساءل المؤرخون فيما اذا كانت ثورة هذه الشعوب من اجل الحصول على حريتها واستقلالها لا تفوق بأهميتها بقية ثورات القرن العشرين كالثورة السوفييتية والثورة الذرية .

وتأثرت الحضارة بدورها من هذا التغييراذ أن ظهور الشعوب الملونة على مسرح التاريخ أخذ يوجهها توجيهاً يختلف عما كانت عليه من قبل عندما كانت تمثل حضارة العرق الابيض وحده.

وظل الرجل الابيض يجهل الشيء الكثير عن

هذه الدول الحديثة والشعوب الناشئة ... انه يجهل أسس ثقافتها ودوافع تصرفاتها ... ويتساءل عما يمكن لهذه الشعوب التي كانت منعزلة حتى الان عن مجرى التاريخ الرئيسي ، أن تقدمه الى اتجاهات الانسانية المقبلة .

ولعل الادب الذي يلعب دوراً هاماً في تفهم الناس بعضهم لبعض بالخيال والاحساس ، والمؤلفات التي أخذ عددها يزداد سنة بعد أخرى والتي يكتبها بالانكليزية أو الفرنسية ادباء سود يصفون فيها تجربتهم الشخصية للحياة ، تنير لنا بعض ما خفي علينا بما تعكسه من حقائق .

لنستمع الى (كونتي غولن) في « ميراث » يقول :

« بالنسبة لي ، انا الذي تفصلني ثلاثة قرون
عن تلك الأمكنة التي بعزها اخوتي
غابات البهارات وشجر القرفة
افريقية ما هي بالنسبة لي ؟ ! »

ان هناك حقاً ثلاثة قرون تفصل بين عالم القبائل وعالم ناطحات السحاب لقد احتفظ الشعراء الزنوج الاميركيون بحنين غريب الى ارض الأجداد ، وقد غنى (جاك رومان) الانتيلي هذا الحنين :

« افريقية ، لقد احتفظت بذكراك يا افريقية .
انك فيّ
كما هي الشوكة في الغاب .
كما هو في مركز القرية ، صنم واحد »

لقد ظلت هناك قرابة وثيقة تربط الزنوج الاميركيين بالافريقيين ، وهذا مايفسر المكان الخاص الذي يشغله الأدب الزنجي في مجموعة الادب الاميركي الواسعة.

وهناك اختلافات كبيرة بين أدب البيض وأدب السود ، ناشئة لا عن طباع عرقية أو غريزية ، بل عن تجربة جماعية واضحة ، وعن ماض جماعي مشبع برصيد كبير من مرارة العبودية والرق الموروثة الى جانب حاضر جماعي يلازمه شعور طبقي أليم ، وعن تقاليد تمييز عنصري طويلة الأمـــد : مطابع الزنوج ، كنائس الزنوج ، مستشفيات الزنوج ، ومدارس الزنوج ... كما ان وجود معظم السود الامريكيين داخل حدود جغرافية وثقافية خاصة بجماعة الزنوج مع غيرها من الظروف المشابهة ، امتزجت مع بعضها لتكوّن ثقافة أقلية متميزة . فالرواية الزنجية تشبه الرواية الأمير كية من حيث تصويرها الحياة في اميركا، غير انهاتختلف عنها اختلافاً كلياً من بقية الوجوه ، ولذا نرى بأن ٨٥ ٪ من الروايات التي يكتبها الامير كيون السود تتناول شخصيات سوداء في محيط أسود بصورة خاصة وما هذا المشهد العرقي الا صدى أدبي للحقيقة الثقافية لا مجرد صدفة .

وعاشت المجموعة السوداء في الولايات المتحدة الامير كية ، في بيئة يلازمها فيها تمييز جماعي عرقي ... وظلت هذه المجموعة على هامش اختلاط الثقافات الذي يتميز به العالم الحديث بصورة عامة والولايات المتحدة بصورة خاصة .. غير أنها حافظت على قيمها الحقيقية ومثلها العليا الشخصية ، بالرغم من حرمانهـا من لغتها الأم . وفي خضم توقد الحضارة المتزايد الناتج عن الاختلاط عرف السود كيف يحافظون على شخصيتهم الافريقية التي عرفها (ايسميه سيزار) حوالي عام ١٩٣٥ « بالزنوجية » والرواية الزنجية تعطينا مفتاحـاً لاسرار هذه الزنوجية التي ستسهم اسهاماً كبيراً في تطور الحضارة في القرون المقبلة .. وقد لوحظ بأن رواية السود تقسم الى قسمين ... منها ما هو ذو اتجاه احتجاجي ومنها ما هو ذو اتجاه تعبيري.. غير ان هذا التوزيع وان كان مجديا يظل صنعياً ، اذ أن الاتجاه الاحتجاجي هو في الوقت نفسه اتجاه تعبيري عن آمال السود واحاسيسهم العميقة .

لنصغ الى الاديب الأسود (رايت) وهو العضو في أحد نوادي (جون رايد) اللا عنصرية يقول وقد طرد من موكب بقسوة من قبل عضوين ابيضين زميلين له في هذه النوادي اللا عنصرية ، وعلى مرأى من بقية الاعضاء : « عدت الى بيتي وحيداً ، وحيداً بحق ، الان ، قائلا في نفسي في العالم الاميركي على سعته ، إن القلب الانساني من العوامل التي لايعرفها الا القليل . وطريقة الحياة الانسانية هي الطريقة الأقل اتباعاً . وفكرت بانني ربما استطعت بمشاعري المعذبة ، أن اقذف بقبس في هذا الظلام . حاولت أن اجوب لا لرغبة في ولكن لاعتقادي بانه يجب علي أن افعل ذلك اذا كنت أود البقاء . ساقذف بكلمات في الظلام وسأنتظر صداها . واذا ماسمع الصدى ، مهما كان ضئيلا ، سأرسل كلمات اخرى لأقص ، لأكافح ، لأبعث الشعور بالجوع الى الحياة التي تعترضنا جميعاً ، للحفاظ على الشعور بما هو انساني في قلبنا » .

ومن هذا الألم المنبعث من نفس معذبة يظهر شيء رئيسي يكون نواة نشيطة لانسانية سوداء تختلف اختلافاً عميقاً عن الانسانية البيضاء ... هناك رغبة في قذف كل ما هو نظري للحصول على ماهو عملي ، هناك حاجة ملحة الى الاهتمام العميق بالشعور والتجربة والى تهديم لا شخصية النظريات العامة ، ليحل محلها ألم الأفراد الملموس .

كل هذا يكون نوعاً من الشخصية العاطفية المغروسة في اعماق الروح السوداء . وهنا نذكر ما قاله (سنغور) : « اننا هنا في ميدان الزنجي الرئيسي الذي هو ميدان التأثر والانفعال ، يمكننا الكشف عن رغبة الزنوج المؤثرة في الاعتراف بهم كبشر ، هذه الرغبة التي هي من أهم اسباب صراع الشعوب الملونة من أجل استقلالها الاقتصادي والسياسي ، وبسبب التفرقة العنصرية .

ان الانسانية بالنسبة اليهم لا تتجـلى بالتقدم العقلي والفـــني ولكن بالقدرة على مشاركة الارض بالشعور والتألم كما كان (ايميه سيزار) يقول :

« السود هم
الذين لم يخترعوا البارود ولا البوصلة
الذين لم يعرفوا قط ترويض البخار ولا الكهرباء
الذين لم يكتشفوا البحار ولا السماء
ولكن الذين لولاهم ، الارض لم تكن الارض
ان سوادي ليس حجراً يلتقي صممه بضجيج النهار ،
ان سوادي ليس غشاوة مياه راكدة ، على عين الارض الميتة
ان سوادي ليس برجاً ولا كاتدرائية
انه يغوص في جلد الارض الحمراء
انه يغوص في جلد السماء الملتهبة .
انه يثقب الضنك الشديد بصبره السوي » .

هذا الدور الأولي المعطى للعاطفة ، وهذا الشعور بالنسبة للمخلوقات والعالم يذكر بالاتجاهات الرئيسية الرومانتيكية الاوروبية ، ولا غرابة في ذلك اذ أن الرومانتيكية هي تعبير الرجـل العصري عن كآبته امام التهديد الذي يثقله في تضخم العقل والعلم والآلة .

وخلال نصف القرن الاخير ، كثيرون هم الفنانون والمفكرون الذين كشفوا عن ميل حضارتنا المتزايد الى تجاهلها كرامـــة الفرد وحقوقه كبشر والرواية الشعبية لما بـين الحربين هي احتجاج على العادة المتبعة من قبل المجتمع المعاصر لاعتبار الفرد آلة لا اسم لها ولا اهمية الا بقدر ما تمليه من واجب في

الآلية الاقتصادية، كما انها احتجاج على تدني الفرد نفسه الذي يضيع نتيجة هيجانه ثورته وعمقه الفكري ليتحول الى نواة ضعيفة من الغرائز والمصالح .

وقد تثور الشعوب الملونة حيناً على الحضارة البيضاء وتأخذ ثورتها حيناً آخر ،شكل عودة الى البدائية الاصيلة .هوذا (سيزار) يصيح « لاننا نكرهكم انتم وعقلكم ،فاننا ننتسب الى انفسنا الخرف المبكر والتوحش وأكل الآدميين » .

ويظل التعريف العنصري مسجلا في الحوادث الاجتماعية والنفسية بالرغم من الاحتجاجات الكثيرة التي يرفعها الادباءوالكتاب السود . لنستمع الى احتجاج (وليم فولكنر) : « لا يفهم أي رجل أبيض السود ، ما دام الرجل الابيض يرغم الأسود على أن يكون اولا زنجياً ومن ثم فقط رجـــلاً » . والى تصريح (ريشار رايت) في مقابلة له قبل وفاته بأشهر قليلة : « ان اللون ليس وطني .. انني انسان قبل أن اكون اميركياً .. انني انسان قبل أن اكون اسود .. انني اعارض كل تعريف عنصري » .

لنلق نظرة الى اعماق الرجل الأسود من خلال رواية (ريشار اليسون) المسماة « الرجل غير المرئي » هذه الرواية الفنية ، المكثفة والشديدة التعقيد .

ان الفكرة الرئيسية المنبعثة من هذا الكتاب هي اقتناع الكاتب العميق بأن الشرق والغرب متفقان على احتقار الرجـل الملون . لنستمع الى بطل الرواية يقول : « ان عدم الرؤية التي أتكلم عنها لا ينشأ عن وضع طبيعة جلدي ، انما ينشأ عن وضعية خاصة لعيون الذين اتعامل معهم ، عن تركيب في عينهم الداخلية ، هذه العين التي بها ينظرون الى الحقيقة من خلال عيونهم الجلدية » .

ان بطل اليسون هو صبي زنجي لا اسم له .. زكي وطموح يـدرس في ثانوية في الجنوب يمولها اصدقاء للانسانية في الشمال ، انه لا يفكر في التمرد على

التميز العنصري ويطمع بدون شك في أن يرفع مستوى شعبه ، ولكنه في اعماقه يحتقر السود المساكين القذرين الجهلاء الذين يعيشون في الأكواخ على مقربة من المخيم الجامعي ويطمح في ان يصبح شبيها بالبيض لينال اعتبارهم ويستحق قبوله في رفقتهم ، ان انتقاء وضع بطله بالذات يسمح للكاتب أن يدخل الى اعماق الاسود المثقف .

ان بطل (اليسون) هذا ، الذي راح يعمل من أجل نجاحه الشخصي انعزل عن شعبه وتجاهل ما في نفسه من شعور بضرورة التعاون مع الجماعة ، وتنكر لزنجيته ، وتهيأ ليصبح مهاجراً وفاراً .

كل هذا يتلاءم مع متطلبات اولئك الذين يدفعون من أجل تعليمه ، وفي الوقت الذى يصف فيه (اليسون) حالة بطله الروحية ، يحلل التسلط المجسد في أحد الرأسماليين ، السيد نورتون ، ودون أن يضع نتائج التسلط موضع الشك ، نراه يحلل الآلية النفسية بواسطة حوادث رمزية قائلاً : ان المسألة العنصرية تقلق الضمير الاميركي لأن الوضع القائم يتناقض مع المثل المسيحية والمساواة التي يتظاهر الشعب الاميركي بالتعصب اليها ، فاذا ما كان اصدقاء الشمال يمولون المدرسة ، فانما ذلك يعود الى رغبتهم في ارضاء ضمائرهم اكثر مما يعود الى حبهم السود ، وعلى كل فان تصرفهم مؤلف من لطف مجرد غير شخصي ، وغير كامل لأنه مركز على شعور بالعظمة ، لا يسمح بحدوث حوار بين طرفين متماثلين ... هذا الحوار الذي يرى فيه السود برهاناً للاعتراف الأكيد بكرامتهم الانسانية ، وهكذا تجتمع التبعية مع العنصرية لتبرهن بأن الزنجي هو مخلوق أدنى شخصية في حد ذاتها لا تستحق الانتباه ولا الاحترام ، اللهم إلا على مستوى شعبي فولكلوري . »

وطرد الشاب من المدرسة إثر حماقة قام بها دون قصد ، فذهب الى نيويورك ..

وفي القسم الثاني من روايته نرى بطلنا يتعرف الى جمعية اسمها « الاخوة » انه يأمل بأن يقوى دور الأخوة فيبنى عالم يكون فيه السود اناساً كاملين ، والناس موفوري الكرامة مهما كان لون جلدهم . غير انه لايلبث أن يسمع الأخ جاك الذي هو عضو من اعضاء الاخوة يقول :« اننا لا نكون سياستنا حسب افكار رجل الشارع المغلوطة أو غير الناجحة إن مهمتنا ليست في أن نسألهم بماذا يفكرون بل أن نملي عليهم ذلك.

وهنا يصطدم بطلنا مرة اخرى مع الواقع : ان « الاخوة » لا تعتبر افرادها السود كافراد دون البشر ولكنها لاتعتبرهم كأفراد أصلا ، الرجل ليس إلا آلة ، كما يعترف الشاب في نهاية تجربته الثانية إذ يقول : « كنت اظن بأنهم سيقبلونني لأن اللون ليس فارقاً في نظرهم ، بينما انه في الحقيقه لم يكن فارقاً لأنهم ما كانوا يرون لا اللون ولا الرجال ، لم نكن نعنيهم الا بكوننا اسماء مكتوبة على هويات انتخاب مزورة ، ليستعملوها متى شاؤوا ويبعدوها عندما لايعودون بحاجة اليها . والآن أرى الاخ جاك والرأسمالي نورتون يذوبان في شبح واحد ابيض أراهم متشابهين الى درجة ان كلاهما يبذل جهده ليجعلني اتبنى صورة الحقيقة كما يراها هو . وكلاهما يسخران من الصورة التي كونتها أنا عن الاشياء ، كنت مورداً طبيعياً فقط ومادة تستعمل ... مررت من لامعقولية نورتون العاتية الى لامعقولية الاخ جاك والاخوة ، كلاهما واحد ... انني اعترف الآن بعدم رؤيتها إياي . »

ان نقد الشعوب الملونة لأوضاع المجتمع الابيض الثلاثة : العنصرية ،والتبعية والاخوة ، يوسع بصورة غريبة أفق ملاحظات الكاتب (اليسون) انها المدنية البيضاء ذاتها هي التي يشكو منها .

وهنا لابد من الملاحظة بأنه حتى في السنين الاخيرة ، كان من الصعب على الشعوب الملونــــة العاجزة أمام سمو العالم الابيض المادي والفكري ، أن

تتصور حلا ايجابياً لمشاكلها . وان الروايات الافريقية ـــ الاميركية المكرسة للمشاحنات العنصرية تنتهي غالباً بنهاية ضعيفة . فبعد ان يكشف الكتاب السود عن أمراض العصر بقوة ، ويشرحون أسبابها ، نراهم غير قادرين على ايجاد الدواء الحقيقي والايجابي . إن (اليسون) يرفض الاصلاح التبي ، والأخوة الثورية ولكنه لا يحاول أن يقدم حلاً ذا قيمة : البطل في نهاية الكتاب ، يترك الكفاح ، وينعزل وكله أمل بأنه سيرى يوماً ما الحقيقة النيرة .

إن لهذه الروايات الافريقيــــة ـ الاميركية الموجهة نحو نقد الأوضاع المنبثقة عن الاحتجاج ، طابعاً سلبياً . إن رجالاً مثل (رايت) و (اليسون) يرتفعون ضد الجماعة المعاصرة باسم انانية عاطفية لا يعرفونها إلا بعبارات عامة بعيدة عن الوضوح .

غير ان الأوضاع قد تغيرت منذ ذلك الحين تغيراً ملموساً ، فمعظم افريقية السوداء قد استقلت وعارسة سود اميركا حقوقهم التشريعية غدت قريبة المنال وأصبحت الشعوب الملونة تلعب دوراً هاماً على المسرح الدولي مما حدا بالجميع الى طلب ودهم . ومن الواضح بأن تأثيرهم سيتجاوز السياســـة الى تطور الحضارة ذاتها . لذلك كانت مسألة هويتهم لاتهم اختصاصيي علم الانسان وحدهم ، بل ان الانسانية جميعها في القرون المقبلة ستتأثر من دورهم الفعال على مسرح التاريخ .

بعد هذا يمكننا أن نرى الدور الفعال الذي تتصف به المؤلفات الزنجية ، المكتوبة بتعابير يفهمها القارىء الأبيض .

ماذا يطالعون ..؟

لجاك شاستنيه
ترجمة سعيد القضماني

ــ عن الفرنسية ــ

نشر جاك شاستنه عضو المجمع العلمي الفرنسي مقـــالاً افتتاحياً في (النوفيل لتيرير) عرض فيـه لحركة النشر في فرنسا والاتجاهات الفكرية التي تدفع جمهرة القراء لشراء الكتب وتفضيل نوع معين منها :

قال الكاتب :

خلافا للرأي الشائع ، فان الراديو والتلفزيون والسينما لم تصرف الناس عن القراءة في فرانسا .

فالناس يقرأون الآن اكثر من اي وقت مضى ، ولا تنحصر هذه القراءة بالصحف والمجلات على اختلاف انواعها بل تتناول الكتب ايضا .

على ان ازدياد اقبال الناس على مطالعـة الكتب يمكن رده الى عوامل اهمها انتشار التعليم وخاصة التعليم الثانوي ثم اتساع اوقات الفراغ ،

اذ يتمتع عدد كبير من الفرنسيين بيومي راحة في الاسبوع وبعطلة ثلاثة اسابيع أو شهر في السنة . ولا يمكن استغلال جميع هذا الفراغ الكبير بالاعمال المنزلية والعناية بالحديقة والاستماع الى الراديو والتنزه بالسيارات وممارسة الالعاب الرياضية بل يبقى هناك فضلة من وقت من أجل القراءة .

ثم أي نوع من الكتب الكثيرة التي تقذف بها المطابع يلاقي النجاح والرواج من حيث الكمية المباعة ، أو بعبارة أخرى ، أي الكتب تحظى باهتمام جمهرة القراء وأعجابهم .

وأرى ، كي نعطي فكرة تقريبية عن هذا الموضوع ، اللجوء الى ارقام البيع للمجموعة المسماة : « كتاب الجيب » وهذه المجموعة وان كانت تستبعد الجديد من الكتب ولكنها تقدم للجمهرة الكبيرة من القراء ، وبشكل لائق وسعر مخفض ، المؤلفات المعترف بقيمتها وأصالتها سواء ما يتصل منها بالانتاج المعاصر أو الأدب الكلاسيكي .

ولنبدأ الآن بدراسة النوع الاول من هذه المؤلفات وأمامنا قائمة المبيعات المعتمدة في كانون الثاني في مطلع هذا العام .

نجد في رأس القائمة « لاروس الجيب » وقد بيع منه (٦٢٦٣٦٦) نسخة وما هذا بمستغرب ، فالواقع ان هذا الكتاب ليس دائرة معارف فحسب ، بل هو ضروري لكل من لا يطمئن الى صحة املائه ولهواة الكلمات المتقاطعة العديدين .

ويتبع ذلك مباشرة « يوميات آن فرانك » (٥٠٢٤٣٣) نسخة ، ويعني هذا أن ذكرى الطغيان النازي مازالت ماثلة في الاذهان ، وان التجربة الحية لها ثقل كبير في موازين الكتب .

ثم يلي ذلك ، على بعد في الترتيب ، كتب مختارة من مؤلفات خمسة كتاب فرنسيين هم ، سانت ـ أكسيبرى ، كامو ، مالرو ، سارتر وفركور ، وكاتب

اميركي هو همنغواي . ويدل ذلك على أن شعورين يستأثران الآن بعواطف الناس هما : حب المغامرة البطولية ، ثم الضيق الناشيء عن عبث الحياة .

على ان قوة هذين الشعورين لاتنفي وجود الاهتمام بتحسين طرائق الحياة ، اذ أتى كتاب « الطبخ للجميع » من المرتبة الرابعة عشرة بين (٥٢٠) كتاباً مطبوعا وجاء يتوسط « حكم » لبرفير « وعشيق اللادى شاترلي »للورانس .

أما أشد الكتاب الاحياء ، من اعضاء المجمع العلمي الفرنسي ومجمع كونكور ، حظوة عند القراء فيها ، مارسيل بانيول في كتابه « ماريوس» وهرفه بازان في كتابه « الافعى في قبضة اليد » ونسخ الكتاب الاول (٢٧٠،٠٠١) والثاني (٢٧٧،٦١٣)نسخة .

ويأتي ترتيب الجزء الاول من مذكرات الجنرال ديغول من المرتبة الثانية والثلاثين بين« نانا »لزولا و « جي جي » لكوليت . أما الجزء الثاني من المذكرات فترتيبه الخامس والخمسون بعد «اجواء» لموروا وقبل «فئران ورجال » لشتنبك » ويحتل مكانا ممتازاً كل من الكتاب ، مارسيل ايمه ، جوليان كرين ، سسبرون ، كرونان، بيير بنوا ، كوكتو ، مورياك ، مونترلان ، برنانوس ، ديرون . ويتراوح عدد المبيع من كتبهم بين (٢١٤،٠٠٠) و (١٦٦،١٧٢) نسخة .

وفي مجموعة كتاب الجيب الكلاسيكي ، (وهي المجموعة التي صدرت بعد مجموعة « كتاب الجيب » العادي) نجد أن « العلاقات الخطرة » تأتي في المقدمة (١٩٠١٢٣) نسخة مباعة . ويلي ذلك مباشرة « الاحمر والاسود » لستاندال و «قصائد »لرامبو و «الزوج الخالد» لدستويفسكي ثم « اميرة كليف » لمدام لافاييت و « دوقة لانجة » لبلزاك ، و « سونات الى كروزر » لتولستوي .

يتضح لنا ، من ذلك ، ان اذواق القراء تتجه الى تفضيل المؤلفات

الجادة ذات الحركة على المؤلفات التي تعالج النزوات وتغرق في التحليل النفسي واذا كانت « العلاقات الخطرة » و « اميرة كليف » تشكلان استثناء واضحاً في الموضوع ، فان نجاحها يعود دون شك الى اخراج فلم يحمل العنوان نفسه .

والان كيف يتوزع شراة « كتاب الجيب» من الناحية الجغرافية والاجتماعية ولا بد هنا من العودة الى مبدأ سبر آراء القراء مع العلم ان النتائج التي ينتهي اليها كل سبر هي نتائج تقريبية .

اجري سبر في (١٢) مركزاً للبيع موزعة كما يلي : ثلاثة في احياء باريسية ميسورة أو قريبة من المعاهد الكبرى ، ثلاثة في احياء باريسية شعبية ، ثلاثة في الاوساط الجامعية في المحافظات وثلاثة مراكز في مدن صغرى من مدن الاقاليم ، وكانت النتيجة أن (٣٥٪) من الكتب المباعة قد بيعت في مجموعة المراكز الاولى و (٢٣٪) في المجموعة الثانية و (٢٤٪) في المجموعة الثالثة و (١٨٪) في المجموعة الرابعة . ومعنى ذلك أن الباريسيين ، وخاصة الطبقة البورجوازية الوسطى ، هم الذين يشكلون العدد الاكبر من المشتركين .

والغريب أن كتب سارتر أشد تذوقاً في الاحياء الشعبية الباريسية وفي مدن المحافظات الجامعية منها في الاحياء التي تحيط بالصوربون وفي سان جرمان دوبره .

اما المؤلفون الاجانب فهم اكثر رواجاً في الاحياء المثقفة من العاصمة اذ تبلغ النسبة ٣٨ ٪ كما بلغت نسبة المبيع في المدن الجامعية ٢٦ ٪ كما نجد ان النساء هن غالبية المشترين لسلسلة كتاب الجيب !. المعروضة في المخازن الكبرى .

ومن المعروف ، ان هذه السلسلة لا تضم ، في الاصل ، كتباً تاريخية (عدا مذكرات ديغول) ذلك لان رغبة القراء المتزايدة لمعرفة التاريخ قد اطفئت عن طريق مجلات شهرية مختصة ، مثل : التاريخ و « مرآة التاريخ » و « التاريخ

للجميع » مع العلم أن هذه المجلات لا تعالج الموضوعات التاريخية من الناحية العلمية أو الفلسفية بل أن سرد الطرائف والنوادر التاريخية مقدم على الامعان في تحليل الاسباب والوقائع .

على ان هناك كتباً اخرى ظهرت حديثاً خارج نطاق سلسلة « كتاب الجيب » ولاقت الرواج ايضاً بالرغم من ارتفاع اثمانها ككتب هنري ترو ايت ، وسيسيل سانت — لوران ، ولارته كسي ، ودانيقوس ، وجورج بلوند ، وفرانسواز ساغان ، وسيمنون وغيرهم .

هذا ويمكن رد نجاح كثير من هذه المؤلفات الى انها تعالج موضوعات الساعة كالحرب العالمية الثانية وحرب الهند الصينية ، ومأساة الجزائر .

ثم ان الحب يحتل في موضوعات المغامرة مكان التوابل في الطعام ولا يقصد بذاته كموضوع أساسي الا في القليل النادر . فهناك سلاسل خاصة مثل « بريد القلوب » انصرفت الى شؤون « العاطفة » . اما سلسلة « القصة السوداء » فآخذة في التدني .

ويجب الا ننسى اندفاع قسم كبير من الشباب نحو العلم التطبيقي والمكتشفات العلمية ، ونلاحظ ان الكتب العلمية سرعان ما تلاقي الرواج سواء اعرضت بطريقة تعليمية أو باسلوب روائي .

من هذه الملاحظات المتفرقة يمكن استخلاص نتائج مشجعة . ذلك ان حب القراءة لم يتزايد عند الناس فحسب ، بل انه يسير في اتجاه مطمئن ، فالكتب القيمة الجيدة التي تخرج للجمهور يقبل عليها اقبالا كبيراً بدافع من التبصر والوعي ودقة التمييز .

ومن المؤكد ايضاً أن الكتب التي تتسم بطابع من ترف الفكرة وزخرفة

الاسلوب تظل غريبة بعض الشيء بالنسبة لجمهرة القراء (فجيرودو ، وفالري ، وحتى جيد قد أصابهم الاهمال) وكذلك فان هذا الجمهور لم يعد يلتفت الى الشعر الا قليلا (ويمكن استثناء رامبو) . ومن جهة أخرى نجد انه يملك ادراكاً واضحاً لمشاكل الساعة الرئيسية ورغبة مشكورة في معرفة كل ما يتصل بهذه المشاكل . كما أنه يؤثر الموضوعات الجادة العميقة على الموضوعات الخفيفة السطحية ، حتى انه يشك فيما نلمسه بعض الاحيان من فضول حاد نحو موضوعات العاطفة والحب ، لأن هذا الفضول يثار عادة بوسائل عديدة من الدعاية .

هذه الحقائق لابد وأن يجعلها الناشرون نصب اعينهم ، وكل ماتتمناه أن يذكر الناشرون (واغلبهم يذكر ذلك) انهم ليسوا تجـــار ورق فحسب ، بل اصحاب رسالة مزدوجة عليهم أن ينهضوا بها : رسالة تثقيف جمهورهم الكبير وتوجيهه نحو ادب قوي جاد ، ورسالة الاهتمام بالمؤلفات ذات القيمة الاصلية وحتى ولو لم تتذوقها في الوقت الحاضر على الاقل الا الصفوة من القراء .





شجر الزيتون

قصة بقلم:
ياسين رفاعية

أغمض عينيه ببطء ، لكنه ظل يرهف السمع .

همست حفيدته قائلة : أمي .. ان جدي قد نام .

وسمع خطوات تنسحب من الغرفة ، انه قادر على تمييزها ، خطوات ابنه . زوجة ابنه . ابنته . حفيدته . وهاهو الباب قد اغلق .

فتح الرجل عينيه ، وحدق الى الغرفة . ان الظلام ينتشر فيها الآن ولكنه ظل يحدق الى ان اعتادت عيناه رؤية الاشياء ، واندار على جنبه الأيسر ، فأحس بارهاق وانهيار شديدين ، انه متعب جداً ، ونظر عبر النافذة الى بستانه . فبدت له شجرات الزيتون كأنها تنظر اليه مرتاعة ..

فابتسم .

وحاول ان يلمس جبينه المتغضن بيده المعروقة ، فبذل جهداً كبيرا كي يفعل ذلك . وهمس لنفسه : انك متعب .. لقد تعبت اخيراً

وتذكر قبل شهر واحد فقط ، كيف كان نشيطاً في العمل حتى ان ابنه خالد قد تعجب وهتف به : مازلت شاباً يا أبي .. فقال له : سأظل شاباً حتى أموت .. ان الارض يابني وفية للذين يرعونها ، انها تمنحهم الشباب الدائم ..

وضحك خالد في ذلك الوقت ، وقفز الى أبيه وقبل لحيته البيضاء طويلاً ، ثم سجد الى . الأرض والتقط حفنة تراب وهمس : يارب .. بحق هذا التراب علينا .. أمدد بعمره .

انه يذكر تلك الصورة الحلوة ، ويتمنى الآن لو يعيش طويلاً كي لايخيب رجاء ابنه .

وعاد ينظر عبر النافذة الى البستان : ان شجر الزيتون ينشر ظلاله واغصانه على شجيرات المشمش والدراق . لكنه يذكر عندما زرعها منذ اربعين عاما بيديه

هاتين — ورفع راحتيه قليلاً — كيف قال له ابوه آنذاك : عليك ان تباعد بين كل شجرة واخرى ، ان الزيتون لايطعمك الآن . . لأن الزمن يطول قبل ان يعطيك ثمره .

ابوه،ذهب منذ زمن بعيد،لكن شجر الزيتون نما وترعرع . . تراه يذهب هو ويبقى الزيتون . . ؟

وعندما وصلت افكاره الى هذا الحد ، عاد فتأمل أشجار الزيتون المحيطة بالمنزل ، واحس برغبة ملحة لأن يخرج الى البستان ، فأزاح عنه الغطاء الرقيق وعندما حاول ان يجلس ، شعر بقوة غريبة تدب في اعضائه ، وارتباح كبيريلف قلبه ، فتساءل : هل شفيت . . ؟

ونزل عن سريره الخشبي ، وتقدم من النافذة . اتكأ براحتيه على حافتها ثم اجتازها ، فقدماه طويلتان والنافذة واطئة تكاد تقارب الارض . وعندما لمست قدماه الأرض ، احس بحرارة التراب ، وادرك أن جسده بارد جداً ، لكنه لم يعبأ .

تقدم من الشجرة الأولى وعانق جذعها بحنان عجيب ،وحاول ان يتذكر شكلها منذ زرعها اول مرة ، لكنه لم يستطع ، فربت براحته على طرف الجذع وابتسم ، وأحس كما لو ان اغصان الشجرة تعانقه . . فازداد التحاماً بها ، وقبلها طويلاً . كانت دموعه الآن تبلل شاربيه ولحيته ، وخطا عدة خطوات الى شجرة الزيتون الثانية ، وجلس القرفصاء الى القرب منها ، واخذ يداعب بأصابعه التراب المحيط بها ، انه خشن وجاف ، فتذكر ان الفصل صيف ، وقام ، لقد بدا لنفسه هذه اللحظة انه أقوى من اي وقت مضى ، فشعر بغبطة فائقة ، وودلو يعود الى

فراشه ، لولا انه أحس كأن بقية الشجرات تناديه فاقترب من الشجرة الثالثة وعانقها طويلاً ، ان شجر الزيتون اكثر غنى من كل الشجر ، وخيل اليه ان الشجرة قد أدركت ما يجول في خاطره .. واتفق ان هبت ريح ، فصفقت بأغصانها طويلاً ، واحس كأنها تتطاول وترتفع عبر الفضاء . فداعب خشبها كما يداعب الرجل شعر ابنه الصغير .

وراح الشيخ بعد ذلك يتنقل من شجرة الى أخرى .. ولقد همس لكل واحدة منها بحديث شائق . لعله تحدث عن نشأتها معه ، ونشأته معها . وعانق جذوع كل الأشجار .

اثنتان وثلاثون شجرة ، انها لثروة كبيرة .

واخذ الشيخ يبتعد صوب المنزل ، وعندما وصل الى مقربة من النافذة التي خرج منها ، أحس بالانهيار والخوف ، فأخذ يبكي بحشرجة مخنوقة ، وتطلع الى الشجر ، فبدت له كأنها تنحني الى الأرض ، فقال بصوت خافت : ستكونين وفية لأولادي واحفادي ، وفية للأرض التي حملتك طوال هذه الاعوام، واحس كما لو أن الشجيرات تعاهده على ذلك ، فاجتاز حافة النافذة عائداً الى سريره ، واستلقى على جنبه الأيسر ، ولكنه احس كأنه يضمحل . وحاول ان ينظر عبر النافذة الى البستان والشجرات فسمع كأن صوت مطر يلامس الارض الجافة . وفتح عينيه جيداً ، فرأى الماء يتساقط من اغصان شجرات الزيتون كأنه قطرات من الدموع ، فتعجب الشيخ اذ تذكر مرة اخرى انه في شهر آب . ولكن الصور الآن اخذت تنزاح من أمام عينيه الواحدة تلو الاخرى .. ثم أحس كما لو ان دماءه تنسل من عروقه .

فاستسلم

في الصباح . عجب اولاد الشيخ واحفاده وجواره عندما وجدوا ان ارض البستان مبتلة كما لو أن مطراً غزيراً قد تساقط .

قالت الحفيدة لأمها : هل نزل المطر ..؟

اجابت الام بدهشة : انه مطر ..

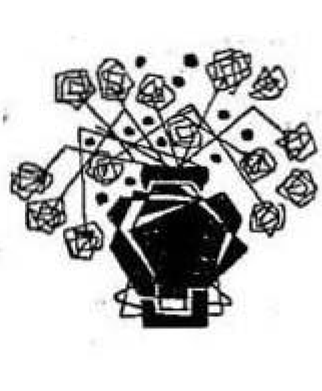
عادت الحفيدة لتقول : تعالي نخبر جدي

ودخلتا غرفة الشيخ . واقتربت الحفيدة منه ، كان مغمضا عينيه كأنه يغط في نوم عميق .. وكانت هناك ابتسامة عذبة قد ارتسمت على شفتيه .

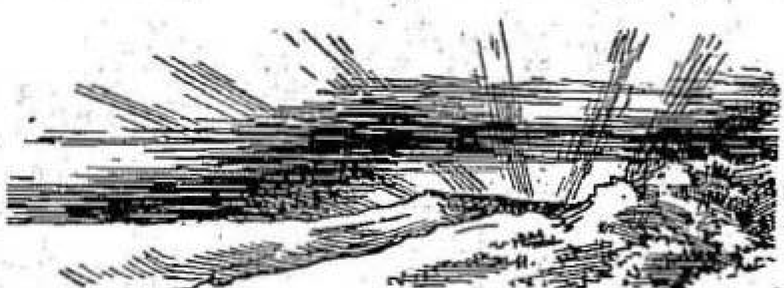
وهزته الحفيدة : جدي .. جدي ..

ولكنه لم يجب

وكانت الشمس في الخارج ترتفع الى الافق



الأرض ، اليوم ، الليل ، النفس



قصة لوليم سارويان
ترجمة خلدون الشمعة

كان يستمع الى الفتاة الجالسة قبالته في طرف المنضدة الآخر ، تحدثه بشيء يتعلق بهما كلاهما ، تحدثه بشيء بدأ في أعماقه وقد لاينتهي ، شيء في أعماق الانسان ،.. عن حياته على الارض .. عبر الايام والليالي ، عن كونه ذا جوهر وحركة متلازمين ..

من نافذة في الطابق الثاني رأى رجلا يركب دراجة في الشارع ، عجلتان تذرعان المدينة وقد امتطاهما رجل .. الفتاة ماتزال تتحدث ...

لابد أن هذا قد حدث في العام الذي ذهب فيه مع أمه وأبيه الى المصور ، وكان اذ ذاك في الثالثة من العمر تقريباً . انه لايتذكر أمر ذهابه ، ولكن الصورة ماتزال

في حوزته .. وفي مقدوره أن يرى فيها الرجل الطويل يحمله بين ذراعيه ، وأمه جالسة بجانبه.. وكلهم يبتسمون . كان ذلك في العام .. قبل وفاة والده .. كانوا كلهم مبتسمين في الصورة . وكان الأمر الثاني الذي أدركه صورته ممسكا يد أمه ، ماشيين في الليل الصامت عبر المدينــة المظلمة .. وسأل : الى اين نذهب ياأماه .؟.

لايذكر بأنه سمع جوابا ، بل انه تابع المشي بجانب والدته .. وكان آنذاك في الرابعة من العمر ــ كما يظن ــ .. ومر ليل وتفجر حزنه اثنــاء النوم ،فأخذ يبكي بكاء دون دموع .. وضحك مرة .. ولكن بطريقة تختلف عن الضحك حين يكون المرء صاحياً .. كانت ضحكة أكبر بكثير .. ضحكة عنت كل شيء واتصلت بكل شيء ... وفيما كان مستغرقا في النوم كان خائفا أن يسمعه احد ويسأله عن سبب ضحكه .. ربما تريد أمه أن تعرف السبب ، وأدرك انه لن يكون قادراً على اخبارها .. ولكنه سرعان ماأدرك ايضا ــ في نومه ــ لماذا كان يضحك ، ومن اين مصدر الضحك .. وماذا عنى : كان ضحكا لايعبر عنه بالكلمات . كانت هناك ، كل المعاني واضحة له ، صورة الارض مع صورة الانسان ، انها لتجعله يضحك .

في صباح ما .. وجد نفسه في مبنى المدرسة ، وسمع بالسبب : لكي تتعلم كيف تقرأ . وأحب أن يقول لهم .. لاأريد أن أقرأ .. ولكنه لم يستطع شرح ذلك .

لقد علم بأنه لم يكن ثمة حاجة به للقراءة ، كانت المشكلة هناك .. أمامه ، خلال الليل والنهار ، وكان يرى كل شيء أحس به دون ان تكون به حاجة للكلمات . الاشياء كانت تنحصر في الكلمات نفسها ... ولقد كانت لديه عيناه .. يرى بهما كيف كانت تلك الاشياء .. قادوه الى غرفة مليئة بالمقاعد وبفتيان وفتيات صغار وسألوه : ما اسمك .؟..

وقال .. أوه .. أتقصدونني .؟.. تلك السيدة ، أراد أن يقول ، تلك الواحدة التي كانت هنا وذهبت بعيداً .. هي أمي . والرجل الذي في الصورة ، والذي هو ميت الآن .. هو أبي . انهم يدعونني جون .. جون .. قال لهم .. اسمي جون.. واسمي الآخر ميلوفيتش .

جلس ونسي سراعا ماحدث له مدة شهر كامل . ولكن القلق لازمه حتى في نومه . وأما عن الصبية الآخرين في الصف ، فقد عنوا الكثير بالنسبة له .، لقد كانوا يفكرون به حسب عقولهم .. ويرونه بأعينهم . ويحطمون السر . كانوا يتحدثون عنه ولم يكن يرغب أن يفعل أحد ذلك . لقد اراد الكمال .. أن يظل وحده ، لايتحدث عنــه ، ولا يلاحظ ، ولكنه ــ مع ذلك ــ كان يشغل كل تفكيرهم . قالوا له مرة : جون .. ماهي المسافة من هنا الى الصين.؟، وبالطبع لم يحر جوابا .. وفي الحال ركع من خلفه أحد الصبية .. ركع على يديه وركبتيه ، ودفع به صبي آخر ، وأصبح العالم مقلوبا أعلاه سافله ، وضحك كل الصبية منه . وقالوا : ان عليك أن تدور العالم لتصل الى الصين .. ها .. ها .. ها ..

وفكر : أوه .. انني أفهم .. لقد قصدوا اللعب فقط ، ظننتهم قصدوا الضين ولكنهم يريدون أن يلعبوا فقط . اذا أخذت - ياصبي - مايسألون على محمل الجد ، اذا أبديت اهتماما بكلامهم .. دفعوا بك ضاحكين عليك . ان كلماتهم لاتستحق أن تسمع . انهم يصلحون للعب فقط ..

والمعلمة ... معلمته أيضاً كانت غاضبة عليه . قالت بانه كان غبياً .. فقط لأنه أراد أن يعرف الدنيا .. بسبب الاسئلة التي كان يسألها ، وجعلته يقف في الزاوية عقاباً له . لقد قالت بأن (ق - ط - ط - ة) معناها (قطة) ، وقال هو : لا .. القطة هي شعر أسود وشاربان وذنب وعينان . هذا كل ما كان يعرف ، ولكن ذلك جعلها غاضبة جداً .. فنهرته وأخذ كل الفتية والفتيات يضحكون عليه . (ق - ط - ط - ة) لايمكن ان تعني قطة . الأربعة ارجل وهي تمشي بخفة . تلك هي القطة . لماذا يخترعون الاشياء ..؟

ولاحقه القلق حتى في نومه ، وتصور القطة في الحلم وهي تمشي أمام المعلمة ، وقال : هاهي .. هاهي القطة الحقيقية وليس القطة التي عنيتها .. أترين .. القطة هي عينان وفراء يمشي ..

ومضى الليل بسلام وصحا .. كان واقفاً في الشارع ، ينظر عالياً الى نافذة المكان حيث يعيش . كان الباب الامامي مغلقاً وليس ثمة احد في البيت . كان في الشارع يبكي .. أمي .. أمي .. وقال الناس الذين تساءلوا عن سبب بكائه .. أمي ليست هناك .

حسب ان كل شيء سيتحطم الى قطع ، وشعر بضخامة العالم ، شعر بالاحياء الذين لايمتون بصلة اليه ..

انه لايذكر ماحدث في النهاية . كل مايذكره انه كان في شارع مظلم ، يبكي لنفسه ، شاعراً بأن الشيء كله يتحطم الى قطع ...

لقد علموه بأن يقرأ . كانت سخافة .. علموه عن كلب يدعى فيدو . كان ذلك كل ماتذكر ، صورة كلب يدعى فيدو ، وبعض الكلمات المهجأة عن الاشياء التي يستطيع فيدو القيام بها .. انه ينبح .. عو .. عو .. انه يلعب .. وهكذا .. كان كل ذلك سخيفاً ، ولكن ذلك - على أية حال - مايدرسونه في المدرسة ، ولذلك فقد حاول أن يزعم بأن لهـا معنى ، وحاول جاهداً ألا يسأل الكثير من الاسئلة .

كان جالساً في مسرح مظلم لصق أمه ، ينظر الى صور أناس يتحركون بصمت في مقدمة المسرح ، يلمس واحدهم الآخر .. حتى بشفاههم ، يغيرون ملامح وجوههم ، يركضون ، ويقومون بأشياء رشيقة ، كانوا يمثلون قصة . ثم أنه رأى البحر ... لم يفعل البحر شيئاً ، كان زاهياً .. كبيراً وبسيطاً .. كان من السهل أن يصدق .. كل تلك المياه تجعله يصدق .. لم يكن

هنالك من كلمات ، ولا أناس يغيرون ملامحهم ويركضون ، كان ثمة كل هذه المياه .. ودخل البحر عالمه وظهر في أحلامه : واسعاً وجميلاً ولايحتاج الى الكلمات ليشرح نفسه ..

لم يكن سهلاً عليه أن يتكلم .. حتى مع امه ، انه ليبدو من الطبيعي جداً ألا يتفوه بشيء حتى عندما يكون مريضاً أو حزيناً ، وفي بعض الاحيان تدعوه قائلة : جون .. هل انت بخير ! .. لماذا لاتقول شيئاً .؟.. دعني أرى لسانك . جون هل هناك ماتخفيه .؟..

ولكن كل ما استطاع فعله هو ان ينظر في عينيها . وفي بعض الاحيان قد يكون مريضاً .. ولكنه كان دائماً هكذا .. يري والدته لسانه ويدعها تمسك يده لتقيس حرارته ، وعندما تقول : جون .. جون .. جون انت مريض ياطفلي المسكين ، كانت تعتريه الدهشة . انها تتظاهر بشكل ماتفعل .. لقد أحس بذلك . أنا واقف هنا فقط ... ذلك يعني بأنه كان في الخارج أيضاً .. في كل مكان .. خارج نفسه أيضاً .. في عقول الآخرين .. ان باستطاعتهم رؤيته .. وبما انهم اضخم منه حجماً فان باستطاعتهم رؤيته بشكل يختلف عما يعرف ، كما ان بمقدورهم الوصول الى نتائج تعتبر مستحيلة بالنسبة له .. ان باستطاعتهم تثبيته في ذاكرتهم .. من حيث طوله ووزنه ، وملامح وجهه ، وطريقة تفكيره .. ولكنه يعجز عن ذلك . لقد كان هناك ينتظر .. محاولاً أن يتخيل الامر ..

ثم جاء دور الكنيسة فيما بعد .. تذكر الناس وهم يغنون .. وأمه جالسة بجانبه تغني ايضاً .. كانت تبدو جميلة بغرابة ، ثمة شيء جديد فيها .. رائحة جديدة هي أشد حلاوة الآن . أراد ان يغني معهم : كان رائعاً فعلاً .. نور صباح الاحد في الكنيسة والكل يغني ، ولكنه لم يكن يعرف الكلمات . كانت الأرض جميلة بشكل لايتصور .. كانت واسعة جداً لمن يريد الحياة . وبدأ يتدفق بأعماقه خارجاً للقاء الناس .. الى الارض .. يغني مع أمه ، يصطنع الكلمات .. ولايستطيع البقاء صامتاً على الاطلاق . كان ذلك وقتاً لطيفاً ، ذلك الوقت في الكنيسة وهو يغني لانه مفعم بالحياة .

وظهر القطار كأنه آت من لامكان : كان كبيراً وأسود . رنين أجراسه وصوت نحاس عجلاته يشعره بالخوف . وقالت أمه تخاطبه

جون . نحن ذاهبان بعيداً . وصعدا القطار ثم جلسا . وسمع القطار ينفث الدخان ، يبطء أخذ يتحرك حاملاً إياه . كان يشعر بالذهول وهو جالس في القطار : رأى الأبنية آتية بالقرب منه ثم ذاهبة بعيداً عنه . . في البداية يبطء .. ثم برشاقة فأرشق ثم سرعان ما برز صوت أشبه بالموسيقى : واحد اثنان ثلاثة ، واحد اثنان ثلاثة ، أشياء صلبة تمر مسرعة، وميض ، شجرة . بيت ، وميض ، ثم تعاود الموسيقى : واحد اثنان ثلاثة ، واحد و واحد ، اثنان ، واثنان ، العجلات تسحق : طريق ، نهر ، وميض ، و ميض ، ومن ثم صراخ القطار .

كان محزناً جداً أن يرى أشياء كثيرة خلال وقت قصير ، قبل أن يصبح في مقدوره أن ينظر اليها ملياً . ثم هناك ضخامة المكان ، شيء واحد يمر خلال زمن ، يتمطى بلا نهاية في كل اتجاه، الأرض كلها تتمطى بلا نهاية في كل اتجاه .. وتحطم قلبه . لقد أراد أن يمس كل شيء ، أراد أن يملك شيئاً يمت بصلة وتمت الى كل هذا .. أراد أن يكون على علم بشيء ، أن يعني شيئاً بالنسبة لكل ما رآه .. كل شجرة ، كل بيت ، كل وجه ، كل الارض ، كل التلال المكسوة بالاعشاب والزهور ، كل الجداول . وذلك البيت حيث سكن مع والديه .. أين ذلك الآن ، وأين هو وقد عاش مرة في ذلك البيت ؟.. ذلك الصبي الصغير الذي لم يستطع حتى أن يتعلم كيف يقرأ.؟..

كان المكان جديداً الآن . كان خالياً من التلال : مكان أصغر ، الوجوه فيه جديدة ، والشوارع جديدة . وهو مازال كما كان من قبل ، على الرغم من أنه كان يرتدي سروالاً أكبر ومعطفاً جديداً .

ثم كان حلم يطير به الى شيء جديد ، الى جمال أكثر جدة ، الى فتاة صغيرة في الصف الثالث اسمها « ماكبين » ، رأى نفسه في الحلم وقد ذهب اليها فرأت علامات حبه بادية وسرعان ما محضته بدورها الحب : ومشيا معاً متشابكي الأيدي . وفي الصباح ، وفي أعقاب الحلم ، كان مريضاً بحب فتاة . ولم يستطع تناول إفطاره ، إذ ذهب الى المدرسة مأخوذ البصر ، متمنيا ألا يصحو من الحلم . وعندما رأى الفتاة في قاعة الصف ، أمرضه حبها على نحو جعله يقف بصعوبة على رجليه . أمامي فقد جلست أمامه .. أبعد من محله بمقعدين ، وقضى اليوم بأكمله يحملق بشعرها البني الطري ، غارقا في احلامه الى حد أنساه انه كان في المدرسة ، وفي كل مرة كان ينادى عليه لتسميع الدرس ، كان يخفق في أن يقول شيئاً . لم يكن ثمة مايقال على الاطلاق . كل ما عمله هو أنه أحب فتاة ، أحبها ، أحبها ، ولاشيء آخر . ولم يرد شيئاً أكثر من أن يتأكد من حبها ، وتساءل عماذا يمكن أن تعني . . أحبها سراً مدة شهر كامل . ثم ضاعت .. ضاعت ، وعلى الرغم من انها ما تزال تأتي الى الصف ، إلا انها لم تعد تعني أكثر مما عنت ، مرة ، بالنسبة له .

كان الوقت مساء ، وكان يمشي عبر فناء المدرسة في طريقه الى البيت ، وهو يغني : « إن الدرب طويل طويل الى Jipperary ، إن الدرب طويل لمن يريد أن يذهب .. كان يغني باذلاً كل استطاعته ، ولم يكن قد رأى الآنسة فارغو وهي تهبط درج المدرسة . لقد شعر بأنه كان وحيداً .. وان باستطاعته أن يجهر بالغناء بالطريقة التي يحب ، ولكن فجأة رآها ، واقفة على الدرج تنظر اليه بدهشة . وسمعها تقول : تعال الى هنا يا جون ، فذهب اليها ، وهو يشعر بالخجل من فعلته . لم يكن يعلم بأن ثمة أحداً حوله . لم يقصد أن يدع أحداً يسمعه . وقف تلقاءها ممسكاً بقبعته وشاعراً بالضيق .

وسألت : — أين هي Jipperary يا جون ؟ ..

فأجاب قائلاً : — في ايرلندا .

كان خائفاً أن ينظر في وجهها . كانت معلمة شابة أحبها كثيراً . على وجهها مسحة حزن محببة . وكان رائعاً أن يجلس المرء في غرفة طيلة النهار فقط لينظر اليها . ومرة نظرت اليه بحزن فأجابها بنظرة حزن أخرى . ورأته وسمعته ، ثم نظرت في عينيه وابتسمت .. ابتسمت له وحده . وحين غادر الغرفة للاستراحة ، ذهب راكضاً عبر المدرسة بفرح ، الآنسة فارغو تراه . . هو نفسه .. تراه وتبتسم له . وقفت على الدرج دقيقة مديدة ، لا تتكلم ، ومن ثم شعر يدها تعبث في شعره قائلة : شكراً لك يا جون .

لم يستطع أن ينسى ذلك ، إن الأمر ليبدو غريباً فائق الروعة .

وفي أعقاب ذلك كان الوادي وكانت الشمس الحارة ، وكان يغذ السير على طول الطريق وعبر كروم العنب ، بصحبة غارا كيان ، وبيتي توبين ، وريكس فورد .. وكانوا ذاهبين للسباحة والوقت صيف . ثم كان الماء .. بارداً ونظيفاً .. ثم الغطس .. وكان الصبية كلهم عراة ...

لا يستطيع أن ينسى وهم يغطسون في الماء .. وجاءت الحرب خلسة دون أن يشعر بها ، وكان راكضاً عبر البلدة وهو يصيح السلام .. السلام .. فالحرب قد انتهت ..

وفي أثناء نومه اقتحم القطار تخوم الارض ، وشعر بشوق الى أمكنة نائية ، شعر بشوق الى أن يذهب بعيداً عن الوادي ، أن يعبر الجبال ، ليصل الى البحر ، الى مدن قصية ، أمكنة بعيدة ...ورأى سفناً زاهية .. تقلع أشرعتها بعيداً الى كل مكان على الارض .. الى Jipperary

كان على متن قطار يعبر الجبال ، وحيدا ، وكان في السابعة عشرة ... ثم راكباً سيارة باص .. في التاسعة عشرة .. ثم قطار تحت الارض في نيويورك .. في العشرين ..

الثلج ، الزحام الحي في ذاكرته ... وكان في الواحدة والعشرين . يوم واحد ، ليلة واحدة ، الأرض ، نفسه ، الدوران حول الأرض مرة ثانية ، يوم واحد ، ليلة واحدة ، حول الأرض مرة ثانية ، ومرة ثانية لنفسه ، ومرة أخرى وأخرى ...

كان جالساً في غرفة صغيرة يشرب ... في الثانية والعشرين .. والفتاة جالسة قبالته في طرف المنضدة الآخر ، تراقبه . لقد كان صامتاً لفترة طويلة ، ربما لعشر دقائق ، يشرب ..

كانت تبكي .. يوم واحد ، ليلة واحدة ، وذلك يعني لحظة جديدة من الكلام عن الوجود ، وها هو يعود الى نفسه مرة أخرى ، ثم خارج نفسه ، في ضمير آخر ، مصطحباً معنى آخر..

جون ـ سمعها تقول ـ جون حدثني .. بماذا تفكر ؟ جون .. هل ثمة من أمر يهم ؟..

رأى نفسه واقفاً قبالة البيت وهو يبكي وسمع الفتاة تكلمه .. تكرر الأشياء نفسها وتكرر ... جون ، جون .. هل ثمة من أمر يهم ؟.

ولكنها كانت تفضي اليه بشيء .. شيء مسر ، شيء أيقظ صورة البحر الذي يراه في الحلم ، أيقظ اللحظات التي يكون فيها مفعماً بالحياة .. وفكر : هذه الفتاة .. انها جميلة جداً .. ثم بدأ يضحك بصمت ، متطلعاً في وجهها ، ضاحكاً من الامر ...

أعيدي علي ماقلت ثانية .. كانت فتاة قد لقيها في حلبة رقص رخيص .. قال : اعيدي علي ثانية .. لم أفهم تماما ماعنيت .

وبدأت تتكلم مرة أخرى ، بملامح خائفة .. وهي تدخن لفافة ، وكل ما استطاع فهمه من حديثها أن عمر الجنين ، بعد ، شهران .. ولقد كان منه .. كانت واثقة من ذلك .. لقد عرفت رجالا آخرين قبل أن تصادقه .. ولكنه كان الوحيد فيما بعد .. فهل يصدقها ، لم تمس .. لم تمس من رجل آخر ، قبل أكثر من خمسة شهور ، لقد كانت مخلصة وفية .. فهل يصدقها ؟. والان عمر الجنين شهران .. انها خائفة .. لم تستطع الرقاد ، كان عليها فقط أن تراه .. بماذا كان يفكر .؟.

وقال كمن يخاطب نفسه ؟ انا نفسي ، في خارج نفسي ، تذوب معاً ، وثمة شيء ينمو ، نفسي .. أهذا ماتعنين .؟.

قالت : ـ أجل ، أجل ، ياجون أرجوك أن تصدقني .. سوف تجد ، صدقا ، سوف تجد بانه ولدك .. أنا لم أحب أحداً سواك انا أعلم بانك لم ترد أن تجري الامور هكذا .. وانا بدوري لم أردها كذلك .. لقد حدث الامر وحسب .. ولكنه ولدك ، صدقاً ياجون ، أنا لااختلق شيئاً غير حقيقي ..

وبدأ يضحك ثانية ، ويشعر بانه كبير .. يمتد خارج سور نفسه .. مالكا كل الارض ، وقال : ـ أنا .. أنا نفسي ، شيء ينمو في أعماقك ..

فقالت : ـ اذن فستفعل . كنت أستطيع قتله .. ثمة أطباء ، واستطيع التخلص منه .. ولكني ظننت بأنك ربما أحببت أن تعلم ..

ونهض بغضب هازاً الفتاة ، باسماً في وجهها بعد لحظة واحدة : ـ عن أي شيء تتحدثين .؟. ثم استدرك :

ـ ارجوك ألا تتحدثي كالغبية .

قالت : ـ هل ستفعل .؟.

فبدأ يضحك بكل قواه : ـ إنه ملكي أليس كذلك . وجلس يبتسم في وجهها بدهشة ، ثم قال : ترى كيف يشعر في داخلك .؟. هل تريدين أن تقولي بأنك واثقة .. بان الامر ليس واحداً من الاشياء الاخرى .. هل تعنين بان حجمه كبير الآن .؟.

ـ أجل كبير . . أستطيع أن أشعر به .. نستطيع استئجار مكان صغير .
قال ـ انه لرائع .. لاتقلقي هل تظنين بأني أبله !. سننتقل الى بيت صغير .
ثم أضاف : هل ترغبين أنت به .. هل انت واثقة .؟.
فقالت : ـ أجل .. أريد أن أراه .. في العالم .. يعيش .
قال : ـ تعنين أن تحصلي عليه وانت تنظرين للاشياء .. واقفة على الارض.تنظرين ؟
قالت : ـ أجل .: استطيع الذهاب الى الطبيب .
فقال : ـ لاتتكلمي بهذه الطريقة .! ترى كيف يجملك تشعرين .. لقد بدأت اعيش إحساساً رائعاً منذ لحظة فقط ..
فتهللت : ـ اني اعيش نفس الشعور .. لقد كنت خائفة فقط .. ظننت بأنك اعطيتني النقود لاذهب الى الطبيب ..
ـ اقفلي فمك .. سأكسر اسنانك اذا كررت هذا على مسامعي مرة أخرى .
ـ ولكنك تحبني .. تحبني .. اليس كذلك ياجون ؟...
ـ أجل بالطبع أحبك . ولكن ليس هذا المهم .. أخبريني هل تنامين جيداً .؟!.
ـ أبداً فقد كنت قلقة جداً .
فقال : ـ كفي عن القلق . يوم واحد ، ليلةواحدة ، الارض، نفسه ، ثم شخص آخر ، ثم نفسه مرة اخرى ، ثم الشخص الآخر ، ثم تلك النظرة الاخرى على الارض .. وهو يراها بعينيه ، ثم صورته معانقاً الآخر ، وهذه الفتاة .. وقال لنفسه :
ـ كف عن القلق .. سنحاول الانتقال الى بيت صغير وننتظر .. حسبت بأنك تسعين وراء النقود .. لم افهم ما كنت ترمين اليه .. هل تعنين بأنك تريدين أن تريه ، أنت نفسك ، وهو ينظر .؟.. هلا سمحت أن المس موضعه بيدي .؟..
ولمس بيده الفتاة .. ضاحكين معاً .. وفكر .. اجل ، انا نفسي ، خارجاً ، انمو في احشائها .. اكون الارض كلها ...
وقال فجأة :
ـ كنت تتكلمين كثيراً .. ظننتك تسعين وراء المال .. لم اكن استمع .
واضاف : ـ بالتأكيد .. سننتقل الى بيت صغير
وننتظر .. انه لرائع .. لماذا لم تخبريني بالامر ببساطة .؟
لماذا لم تشرحي القضية رأساً .. ظننتك وراء المال ...
رأى الارض تنمو في احشائها .. الكون وهو يتساقط على صورة انسان .. الوجه .. العينان : صلابة ، فحركة ، فنطق ، فادراك ، فحديث صامت ثم مشاركة ، هو نفسه مرة ثانية ، ثم آخر ، ليسير من خلاله ، يوم واحد ، ليلة واحدة ، الارض ، ثم طاقة الانسان ، ووجه الانسان نفسه ...
وبدأ يضحك بليونة ، متلمساً الفتاة .. حيث ينمو الجنين .. وهو يشعر بغبطة بالغة .

الفنون

الكتاب والموضوعات

آثار عربية من العهد الاموي

في بادية الشام

بقلم محمد ابو الفرج العش

من الأنباء الهامة في الأوساط الأثرية العالمية التنقيب في الموقع الاثري العربي الذي يعود انشاؤه الى أوائل العهد الاموي ، ذلكم هو جبل أسيس .

يقع جبل أسيس شرقي دمشق على بعد ١٠٥ كم على خط مستقيم ، وهو حرة بركانية تقع شمالي شرقي الحرات التالية المترامية الى شمالي جبل العرب . يتوسط الحرة فوهة كبيرة لبركان خمد في العصور السحيقة بالقدم . ثم انبثق في جزئها الغربي بركان آخر هو جبل أسيس الذي يعلو عن مستوى البحيرة حوالي ١٠٠ م . وبعد أن خمد البركان الثاني ، تفجرت ضمن فوهته عدة براكين صغيرة .



المخطط : يمثل الجزء الجنوبي الغربي من الفوهة البركانية الكبرى

تتجمع مياه الامطار والسيول في الفوهة الكبرى ، وفي السنين الخصبة تتشكل بحيرة أبعادها ٢×٣ كم تقريباً (يطلق عليها البدو اسم الخبرة) يبلغ عمقها الوسطي ٨٠ سم ، أهم الوديان التي تؤدي الى البحيرة الوادي الشمالي الغربي والجنوبي الغربي والجنوبي الشرقي ، وكانت مياه ينبوع تجرى من الوادي الجنوبي الغربي الا أنها جفت الآن . تنبت الاعشاب والازهار حول البحيرة ، وتصلح المنطقة للرعي فقط دون الزراعة .

يذهب القاصد الى جبل أسيس من طريق بغداد بعد أن يقطع خمسين كيلو مترا بعد أبي الشامات . وهناك تتراءى له في الجنوب ربوات وتلال ، فيتوجه عندئذ نحو الجنوب حتى يبدو له

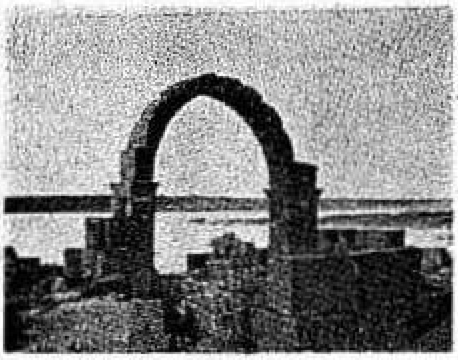
تل مكحول ، ثم يستمر جنوباً على أن يجعل الوعر الى يمينه دائمـا ، حتى يظهر له جبل أسيس كأنه سفينة كبيرة راسية ، يجعله الى يمينه مسافة حتى يعثر على مدخل الحرة الوحيد ، فان لم يعثر على هذا المدخل فانه من المستحيل على السيارة أن تصل الى الموقع .

ذكر ياقوت الحموي أسيس وقال « انـه ماء شرقي دمشق » . وتعود أهمية الموقع الى وجود الماء ، لذا يعتبر منزلاً للبدو في فصل الصيف ، وممراً لعابري المنطقة للتزود من الماء . ولقد حفظت يد الانسان أهمية المكان في السنين الجافة . فاحتفرت عـدداً كبيراً من الآبار ، لايزال أكثرها صالحاً وخاصة البئر الكبير الذي تقدر أنه من العهد الاموي . ولقد احتفرت الدولة سنة ١٩٣٦ بئرين كبيرين لهما منزل ومشارب ، ينتفع بهما حتى الآن . الى جانب الانتفاع بالآبار فقد حفر الانسان أيضاً عدة برك في الخبرة وبنى جدرانها وجعل لكل منها سلما يهبط منه الى القاع . اكتشف من هذه البرك حتى الآن ثلاث فقط ، تعود جميعهـا الى العهد الاموي . وتقدر أنه يوجد أيضاً عدد آخر منها مطموسة سيكشف عنها . يبلغ عمق البرك ما بين ٢٥٠ ـ ٢٧٥ سم ويبلغ ضلع البركة الكبيرة ٣٦ م يمكن لهـذه البرك ان تختزن الماء لينتفع به في موسم الجفاف ، ونعتقد أنها تستوعب جميع مياه الخبرة . لقد أقيم أيضـا في العهد الاموي على فم الوادي الجنوبي الشرقي سد من الحجر البازلتي لحجز مياه السيول والامطار للاستفادة منهـا طوال أيام الجفاف . هذه العناية بادخار الماء تدل على أن المكان كان يلعب دوراً حيوياً هامـاً في البادية باستمرار لارواء المواشي الراعية أو المواشي المارة من المنطقة والمكان المستقرين .

يوجد في هذا الموقع قصر كبير يقع الى جنوبي الخبرة وعلى بعد مئـة وخمسين متراً شرقاً يوجد حمام . وفي جنوبي شرقي الحمام أنقاض بناء كبير ربمـا كان خانا ومستودعا للحبوب . ويقع الى غربي الجامع على بعد ثمانين متراً مسجد صغير أنشىء بعد خراب القصر . وقد عرفنا ذلك لأن حجارته جميعها مأخوذة من القصر ، أنشئت جدرانه بدون أسـاس ، ويوجد حول وبين هـذه المجموعة من الأبنية وعلى سفح حدود الفوهة البركانية عدد كبير من الدور الشعبية بعضها ملاصق للقصر الكبير . وفي سفح جبل أسيس وغربي الخبرة قصر صغير مربع ضلعه ٣٠ م يبدو أنه تخرب ثم رمم بعد العهد الاموي واستعملت بعض عناصر بنـاء القصر الكبير ، يحيط به ويتوضع على امتداد السفح عدد من الدور لم ينقب بها بعد (المخطط) . ويوجد أيضا شمالي الخبرة داران منزلتان .

ان وجود هذا العدد من القصور والدور والحمام والخان والمسجد يدل أن الحياة كانت تمور في المنطقة . ولقد تبين من القطع الأثرية المكتشفة ضمن الأبنية المنقب فيها أنها جميعاً تعود الى العهد الاموي ، كما تدل أن القصر قد احترق في آخر العهد الاموي ، وأهمل المكان عدداً من السنين ثم عادت الحياة مرة أخرى فاستفيد من عناصر الأبنية القديمة من أجل انشاء وتجديد الابنية الأخرى على نحو ما ذكرنا .

تقدمت بعثة أثرية المانية برئاسة الدكتور كلاوس بريش طالبة التنقيب في الموقع الأثري فسمحت المديرية العامة للآثار والمتاحف لها .



آثار المسجد المعمور بها بحجارة القصر

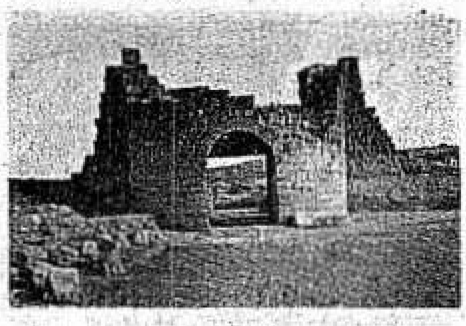
قامت البعثة حتى الآن بأعمال التنقيب في موسمين ١٩٦٢ و ١٩٦٣ ، استطاعت خلالها أن تكشف عن القصر الكبير والمسجد ودار مجاورة للقصر الكبير والقصر الصغير ومصلى صغير الى جواره ، كما أجرت بعض السبور في ثلاث برك في الخبرة عرفت بها حدودها وكشفت عن ادراجها الموصلة الى القاع .

القصر الكبير : مربع الشكل ، له في زواياه أبراج مستديرة ، وفي منتصفات أضلاعه أبراج نصف دائرية يحيط بالقصر سور ضخم قاعدته من الحجر البازلتي القشيم ، يبلغ عرضه ٢٠٠٢ سم . يبلغ ضلع المربع بدون ابراج ما بين ٤٨ ر ٦٦ م – ٦٢ ر ٦٧ م ويبلغ مع الأبراج ٩٠ ر ٧٢ م – ٩٨ ر ٧٣ م . يقع مدخل القصر في الجهة الشمالية ضمن البرج نصف الدائري . المدخل قنطرة نصف دائرية مضببة قليلا ، يدخل منه الى دهليز صغير سقفه على شكل قبو ، ثم يجاز الباب المستطيل الضخم الى دهليز واسع طويل ٧٨ر١٠ × ٠٦ر٦ م يؤدي الى باحة سماوية محاطة برواق يبلغ عرضه ٨ر٣م كان الرواق محمولا على أقواس نصف دائرية لاتزال قواعد دعائمها باقية . يتوسط الباحة بئر يعلوه حجر مكعب الشكل ، له فوهة اسطوانية ، يبلغ عمقه بالقياس الى البئر الاموي في الخبرة ١٣ م أو يزيد .

يتألف بناء القصر من عدة دور منفصلة عن بعضها البعض ، يعتقد أن الدار الرئيسية تقع في صدر الجناح الجنوبي مقابل المدخل ، وهي تتألف من بهو طويل ينتهي في صدره بحنية هي داخل البرج الاوسط ، وفيها على كل من طرفي البهو غرفتان متصلتان . يوجد ايضاً في الجناح الجنوبي داران أخريان على كل من جانبي الدار الرئيسية ، يلي كل منهما في ركن القصر مطبخ واسع فيه تنور أو أكثر ودورة مياه وزاوية قد تستعمل حماماً .

هذا المخطط يتكرر تقريباً مع فوارق بسيطة في الاجنحة الاخرى – يوجد بين المطبخ الواقع في الزاوية الجنوبية الغربية ووحدة السكن المجاورة مقسم مستطيل ضيق اكتشفت فيه الدرجات السفلية للسلم المؤدى الى الطابق العلوي . ويوجد مثل هذا المكان في الجهة المقابلة الا انه لايوجد أي أثر للسلم .

رصفت الارض بالحجر البازلتي النحيت من امام المدخل الى الدهليز والى الاروقة والباحة جميعها والمطابخ وبعض الممرات الى المطابخ، ورصفت ارض الغرف بالالواح الرخامية على مايظن لانه وجد اثناء التنقيب كمية كبيرة من كسور الالواح الرخامية .


مدخل القصر بعد ازالة الانقاض من حوله

بنيت الجدران السميكة من اللبن (الطوب) على أساس من الحجر البازلتي وقد استعملت طريقة بارعة لربط الجدار المقام من اللبن مع السور الحجري الذي يستند اليه ويتعامد معه، وذلك بأن جعل مكان الاستناد مبنياً من الحجر وبشكل يتعشق معه ، وجعلت الاحجار مكان الاتصال متدرجة بشكل يتداخل فيها ألواح اللبن والحجر . لوحظت هذه الظاهرة في كل مكان أريد فيه وصل جدار لبني بجدار حجري . طليت الجدران جميعاً في داخل القصر وخارجه بطبقة من الكلس لاخفاء الفارق بين مواد البناء ، طليت هذه الطبقة احياناً بصباغ أصفر واحمر وازرق ، وزينت احياناً بعروق نباتية عفوية ملونة بعدة الوان .

كان للقصر طبقة علوية لازال أثرها باديا فوق المدخل لأنها مبنية بالحجر البازلتي،جدرانها من الحجر الغشيم وأطر نوافذها الخمسة من الحجر النحيت ، وهي أيضاً كانت مطلية بطبقة كلسية مزينة بزخارف عفوية ملونة قوامها على الاغلب خطوط متلوية ومشجات تشبه تقليد الرخام .

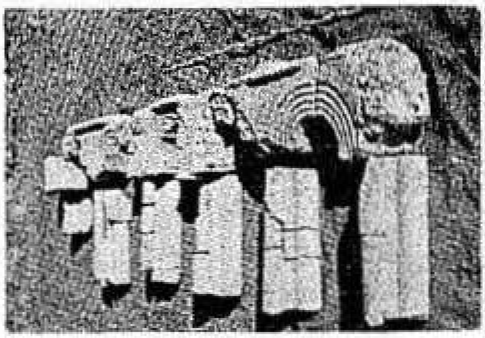
نجهل تقسيمات الطبقة العلوية (١) تماماً الا أن الآثار الساقطة تدلنا أنها كانت مرفوعة على عوارض خشبية ضخمة وكانت أرضها مغشاة بطبقة سميكة من الكلسمونة (أي المؤونة الكلسية) وكانت الواجهات التي ترمي الى الباحة قائمة على اعمدة رخامية ترتكز على قواعد رخامية أوحجرية كلسية تعلوها تيجان متنوعة بعضها يعود الى الفن الكلاسيكي وبعضها الى الفن العربي المبسط ،يعلوها اقواس من الآجر نصف دائرية ، تربط بين قواعد الاعمدة درا بزونات من الجص ذات فتحات مستطيلة وحنيات اقواسها اكثر من نصف دائرية وهي على نوعين متناوبين من حيث الزينة : النوع الاول مزين بدوائر متتالية مركزية ، والنوع الثاني بدوائر مماثلة يتخللها مسننات.

يعتبر استعمال الزخارف الجصية في هذه الدرابزونات أول واقدم استعمال في سورية لهذه المادة على مواد البناء .

---

(١) اعتقد أن الطبقة العلوية موجودة في الجناح الشمالي والجناح الجنوبي فقط ، لأن آثارها موجودة بكثرة في هذين المكانين .

يعلو الواجهات الداخلية شرفات مسننة مخروقة في الوسط على شكل سهم ، يبلغ ارتفاع



بعض العناصر الزخرفية من الجص

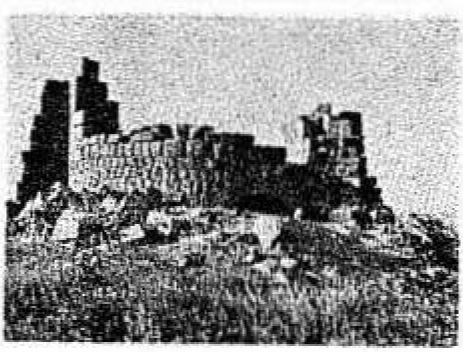
الواحدة الكلي قامة الانسان ، بنيت هـذه الشرفات من الآجر وغشيت بطبقة من الجص، كسيت السطوح بألواح من القرميد قابلة للتراكب وهي من مقاييس مختلفة تناسب الاستعمال يجمع بينها ويغطي الشقوق الحادثة بينها انصاف اسطوانات قرمدية قابلة أيضاً للتراكب .

يوجد في وسط القاعات الكبرى في الطبقة العلوية دعامات من الآجر تحمل قنطرة في وسط القاعة يعتمد عليها السقف ، رصفت في الدعامات الالواح الآجرية بشكل متقن ، وجمعت بينها (الـكلمونة) المتينة ثم طلي وجهها بطبقة جصية سميكة .

أصف جميع اجزاء البناء من مشاهدة آثارها بين الانقاض وتفحص بنيتها واسلوب تركيبها .

طرأت على القصر ظروف وأحوال ، اعتقد أن أول مصيبة حلت به كانت في نهاية العهد الاموي فقد احرق القصر ودمر بشكل مقصود . ولقد وجدت آثار الحريق بالخشب والآجر . ومن شدة حرارة الحريق فقد سال السيليس الموجود في بنية الآجر وكون جسماً متبلرا ،وسال الرصاص الذي كان يربط بين العمود الرخامي وتاج العمود ، وتفحم الخشب داخل الجدران .

يبدو من آثار الانسان المطروحة خارج القصر التي ظهرت في سبر أجري قرب السور أن القصر هجر مدة من الزمن ثم عاد الانسان اليه ثم هجر ثم عاد مرات في فترات متقاربة . ان هذه الآثار تؤيد ما اكتشف داخل القصر من تغييرات في معالم القصر لقد نقلت احجار القناطر الساقطة من الرواق الى الغرف والمطابخ لانشاء حواجز وأبنية مستحدثة ، كما انشئت قنوات المياه المستحدثة ايضاً على مستويات متفاوتة وقد لجأ بعض السكان الى قلع الرخام من الارض واحراقه لتهيئة (كلمونة) يستعان بها على ترميم بعض اجزاء المكان .



مدخل القصر وقد كان مغموراً بالانقاض

لقد نقلت الاحجار وعناصر البناء كالأعمدة الرخامية وقواعدها وتيجانها الى أمكنة اخرى لترميمها وتقويمها أيضاً بعد الخراب ، حتى ان المسجد القريب من القصر بني كله من عناصر القصر الكبير ، لانه لوحظ أن الاحجار النحتية متنوعة ، وقد بنيت الجدران بدون أساس ؛ وبني محراب المسجد من حجارة قناطر رواق القصر بشكل غير رصين ، كما نقلت اليه قنطرتان كاملتان من الرواق لتحملا سقفه احداهما لا تزال ماثلة الى الان وقد نقلت قنطرة اخرى وأحجار لبناء مصلى صغير امام القصر الصغير الواقع غربي الخبرة .

على أي حال هـذه الدلائل جميعاً تعطينا فكرة أن المكان كان عامراً في عهد بني امية ثم سكن عدة مرات وبقي آهلا مدة كبيرة من الزمن حتى العهد المملوكي على الأغلب وقد عرفنا ذلك من الاشياء التي وجدت اثناء التنقيب ، الا أنه يلاحظ أن المكتشفات الهامة تعود كلها الى العهد الاموي . لقد اكتشف فيه عدد من النقود النحاسية والفضية في الطبقة السفلى القريبة من مستوى البلاط الاصيل ،كلها من العهد الأموي ما خلا قطعة واحدة من العهد الروماني ولا يعني هـذا أبداً ان الرومان سكنوا المكان ، ربما وجدت قطعة النقد هذه في مكان آخر فأحتفظ بها السكان.

لم يوجد في القصر مع الأسف كتابة تشير الى باني القصر ، لعل المغيرين عليه في نهاية العهد الأموي قد أتلفوا تلك الشواهد ، الا أن الانسان لحسن الحظ لابد أن يترك أثراً ، فقد كان سكان القصر يقضون اوقات فراغهم على قمة جبل اسيس ، ولقد خطوا هنالك على الصخور كتابات عربية عديدة خلدوا فيها اسماءهم وأدعيتهم وأمانيهم ، وتركوا لنا عدة تواريخ : ٩٣ ، ١٠٠ ، ١٠٨ ، ١١٣ ، ١١٩ هـ . يوجد من بين سكان القصر اربعة امراء من اولاد الوليد بن عبد الملك كما يوجد أسم مرثد وطيب ومولى وسواهم . لقد شاهد سكان المكان في القمة كتابات صفوية قديمة تعود الى القرن الاول بعد الميلاد ، فتركوا ثم أيضاً كتابات تشهد على حياتهم .

سأعالج موضوع هذه الكتابات التي صورتها ورسمتها ودرستها ، وسأنشرها ـ ان شاء الله ـ وربما اعطيت بمقال آخر في هذه المجلة لمحة عنها وعن الرسوم الصفوية التي تعود الى عدة قرون من القرن الاول الميلادي الى نهاية العهد الاموي

هذه لمحة عن هذا الموقع الأثري الذي يعود الى العهد الأموي ، ارجو أن اكون قد وفقت في اعطاء صورة سريعة عن جغرافيته وأبنيته وحياة الانسان فيه .

أثر الفن الافريقي (١)
في الفن التكعيبي

بقلم نعيم قداح

اني لا اهدف من بحثي هذا الى التحدث عن الفن التكعيبي أو المثالين التكعيبيين ولكنني ارمي الى عقد مقارنة بين النحت الافريقي سواء على الخشب أو الحجر وبين المدرسة التكعيبية المعاصرة في النحت ، وايجاد اوجه الشبه الكثيرة بين الاثنين ، ثم بيان الاثر الذي خلفه النحت الافريقي في الفن العالمي .

وليس يستغرب في أن تكون أفريقية وفنها وأدبها وموسيقاها ذات أثر بعيد على كثير من الادباء والفنانين الكبار في أمريكا وأوروبا ، فلقد كانت (الثقافة الافريقية) دائماً دافعاً الى ظهور مدارس فنية وأدبية في القارتين أخذت سماتها واصولها من الادب والفن الافريقي ، ان من الفنانين الاوروبيين والامريكيين من نهل مباشرة من الفن الافريقي ، ومن الفنانين الافريقيين الذين يرتادون الغابة ويسيرون حفاة عراة ، ولم يدخلوا مدرسة ولا تعلموا في جامعة .

---

(١) مصادر البحث اعداد مختلفة من مجلة « نهضة افريقيا » .

ومن أمثال هؤلاء الفنانين الذين نهلوا وتأثروا مباشرة بالفن الافريقي ... المصور انسور Unsor استخدم الاقنعة الكنغولية وعرف سر تشكيلها ورسمها ، وصممها . وذاع صيته وعلا نجمه تبعاً لذلك ، ومن امثالهم ايضاً كرشنر Kirchner ، وكلي Klee . ولقد تعلم هؤلاء الفن الافريقي وصوره كما تعلموه فلم يضيفوا اليه شيئاً . وليس يعنيني أن اتحدث عن هؤلاء رغم شهرتهم الذائعة وصيتهم المرموق . لأن الحديث عن هؤلاء هو حديث عن الفن الافريقي مباشرة وليس عن فنهم هم انفسهم . ولكنني سأتحدث هنا عن تأثير الفن الافريقي في غيرهم من كبار الخالقين المبدعين الذين جرى على أيديهم الفن متأثراً بما رأوه ودرسوه من الفن الافريقي وفن النحت بصفة خاصة .

ويقصد بتأثير الفن الافريقي في هؤلاء الفنانين معنى معين دون غيره من المعاني ، فالتأثير هو أن يتشبع الفنان برأي معين بحيث يصبح من تلاميذ أو حواريي من تشبع وتأثر بفنهم . ولو حاولنا قياس درجة التأثر التي يحققها فنان من فنان آخر ، فاننا سنجد الأمر عسيراً غاية العسر ، وتتوقف هذه الدرجة على شخصية الفنان المؤثر والفنان المتأثر . فلو حاولنا قياس ذلك في شخص الفنان موديلياني الذي اقتبس اقتباساً علنياً سافراً ومباشراً من النحت الأفريقي ، لذهلنا حقيقة ومع ذلك نسلم بوجود الذوق الشخصي لدى موديلياني ومن الغريب ان يكون الفن الافريقي على درجة من الاتساع والتفتح بحيث يؤثر تأثيراً كبيراً في الفن الاوروبي . ولكي نسهل ونقرب صورة الفن الافريقي في هذا المجال أشبهه بالفنان سيزان ، فسيزان كما يقول الناقد ليجه في مجلة Les Arts (باريس) فنان يولد فيه فنانون ، ولكن واحداً مثل رينوار Renoir فنان لا يولد منه الا مقتبسون ومقلدون ، والفن الافريقي هنا مثل سيزان يجمع الفنانين والمدارس الفنية ، ولقد كان سيزان دائماً مليئــاً خصباً يوحي ويشير ويعلم . أما رينوار فكان متكاملاً مكتفياً بذاته ومنطوياً على فنه لايقبل التأثر ولا التأثير ــ بالاختصار كان منغلقاً على نفسه . والفن الافريقي هو سيزان تماماً ــ خلق اتجاهاً جديداً في الانشاء مفسحاً المجال لمزيد من التطور الجمالي والتكويني .

ويكفي للدلالة على تفتح الفن الافريقي ومقدار مابه من طاقة ايحائية كافية ان نشير الى بابلو بيكاسو ونقول أن فن بيكاسو التكعيبي هو فن افريقي ولد على أرض افريقية ونما خلال عشرات السنين وتسلمه بيكاسو والتكعيبيون ليفرحوا به وليؤمنوا بما فيه ثم يعلنوه الدنيا فناً جديداً . ولقد اكتشف بيكاسو والتكعيبيون الفن الافريقي في وقت كانت فيه اوروبا في قمة الثورة على النظم الاجتماعية والسياسية السائدة نتيجة للمظالم الاجتماعية الكثيرة . وكان لابد للفرد الاوروبي وسط هذه الأنواء أن يترجم عن الأزمة الجديدة التي تهصره بين مخالبها وأنيابها هصراً ، ولم يكن من الممكن ان يستمر تعبيره عن الازمة الحديثة في الاشكال التعبيرية التقليدية القديمة ، ومن ثم كانت ثورته على الشكل بعد ان ثار على المضمون . واندفعت جموع المثقفين من مفكرين

وفنانين يبشرون بالمفاهيم الجديدة سواء بالمسرح او السينما أو الادب أو الرسم أو الموسيقى . فكانت مدارس الفن الحديث من وحشية وتكعيبية ورمزية وتجريدية وسريالية . واتخذالمفكرون والفنانون لغة الاحلام والعقل والباطن وسيلة لهم يبدعون من خلالها سواء بالحركة أم بالقلم أم بالفرشاة أم الازميل . وهذه هي لغة الرمز ، وهي لغة الشعوب الاولى في قلب القارة الافريقية فالكلمة تغني عن جملة كاملة ، والحرف يغني عن الكلمة ، والصورة الصغيرة قد تعني شيئاً مختلفاً تماماً عما تبدو عليه .

وقد اجمع النقاد على توغل أثر الفن الافريقي في فن بيكاسو والتكعيبيين الآخرين . وترجع معرفة بيكاسو للفن الافريقي الى سنة ١٩٠٦ عندما اشترى ماتيس Matisse بعض التماثيل الافريقية من تاجر عاديات ، واخذها الى بيكاسو . ولقد اعترف بيكاسو ضمناً بتأثره بالنحت الافريقي عندما قال : « ان النحت الافريقي لايجارى ابداً فهو يعلو على كل نحت حديث » . فبيكاسو كواحد من التكعيبيين كان يجد في الفن الافريقي مصدراً من مصادر الثقافة الفنية الرفيعة . ومن قبله فعل ذلك فلامينك ، فمنذ سنة ١٩٠٤ وهو يجمع التماثيل والرسوم الافريقية وكان فلامينك بذلك اول باريسي يعنى بهذا الفن . ويذكر اندريه سالمون في مجلة Art Vivant الباريسية ان فلامينك وهنري ماتيس اشتريا تماثيلهما الافريقية ، وأطلعا عليها بيكاسو ، وأخذ بيكاسو يقارنها بالنحت المصري والنحت الافريقي ، وكانت هذه التماثيل مثار جدل عنيف في المدارس الفنية الفرنسية وبدأت مراسم عارض الفنية بمدارسها جمعاء ، وكانت مثار عجب واعجاب منهم جميعاً لما تتسم به من ابعاد ثلاثية قارنوها بالمكعب واطلقوا عليها اسم التكعيبية .

ويكتب سالمون في مجلة بارلنجتون (لندن) عن « القلق الذي استحث الفنانين المحدثين على التثقف واستنباط القيم من حضارة التماثيل الحجرية والخشبية الافريقية » ويضيف قائلاً : « لقد كان بيكاسو يجمع الاقنعة الافريقية البدائية » . وتعترف جرترود شتاين في كتابها عن بيكاسو « قد تأثر حقيقة بالفن الافريقي » . ويقول ليونس روزنبرج . وهو صديق آخر من اصدقاء بيكاسو ـ في كتابه عن التكعيبية : « ان التعبير بالتكعيب الذي ظهر في رسوم جورج براك وسيزان وبابلو بيكاسو يعود الى تأثرهم بالفن الزنجي الافريقي » .

وهكذا نرى ان كل المراجع الاجنبية تؤكد هذه الصلة بين التكعيبية اشهر المذاهب الفنية الاوروبية وبين الفن الافريقي ، وتؤكد كذلك تأثر بيكاسو وأشهر الرسامين الاوروبيين بالفن الزنجي الافريقي . ولقد ظلت تماثيل ورسوم الفن الافريقي مدفونة بالمتاحف يشيرون اليها كنتاج فكري متخلف لمجتمع بدائي ، وبقيت كذلك لا كثر من مائتي سنة وما كان احد يعتبرها من الفن . واذا تحدثوا عنها حاكوها برسوم الاطفال ، حتى رآها الفنانون التكعيبيون ووجدوا في اشكالها

مجالات جديدة غنية في التعبير فخرج من نفس هذه الرسوم والتماثيل البدائية مذهب الوحشية في الفن . وبـدأ الباريسيون المترددون على مراسم الفنانين الوحشيين يتذوقون الفن الافريقي ويقتنونه ويطلبونه لذاته ، فكأن الفن الافريقي لم يخلق المدرسة الفنية الجديدة ، ولكن ارادة التعبير الجديـدة عن الواقع الجديد هي التي وجدت في الفن الافريقي وسيلة من اعظم الوسائل للتعبير عن نفسها وكان اعظم ما اسداه الفن الافريقي في هذا المجال هو انه امدهم كما يقول احد الفنانين بعناصره التشكيلية التي اكدت ثقة الفنان التكعيبي بنفسه ، وشجعته على اعلان مكونات ذاته من داخل اطارها .

وتتميز التماثيل الافريقية بالثورة في خطوطها ودوائرها . وامل هـذه الثورة هي التي تجاوب معها الفنان التكعيبي ، فالتكعيبية تمر في مرحلتين : الاولى الثورة كبداية . والثانية ارادة تحقيق الثورة في تكوين ثوري .

والثورة تعني تحطيم اشكال الفن السائدة (أو الاسلوب السائد) وهو ما لا بد لنا من تحليله اذا كان علينا أن نحدد دور الفن الافريقي في ابراز المدرسة التكعيبية . والثورة في الفن ـ أي ثورة ـ قوامهـا تأكيد بالذات . والدافع النفسي لها هو التعويض عن عدم الاستقرار الداخلي . ويأخذ الفن الجديـد صورة حادة عندما يجد مقاومة ، وعندئذ يفرض نفسه بالغلو في ممارسة نفسه . ولقد كان التكعيبيون في الايام الاولى من اكتشافهم للفن الافريقي يحسون بأنهم وحدهم وانهم معزولون عن غيرهم ، ولذلك اتجهت رسومهم وجهتين : الوجهة الاولى ان يبرهنوا لأنفسهم انهم على حق في محاولاتهم الفنية . والوجهـة الثانية أن يبرهنوا للناس على صواب نظرتهم وحدسهم .

وحرر هذا الجانب الايجابي الخلاق في الفن الافريقي ، الفنانين التكعيبيين من أي تقليد ، وأطلق قدراتهم الابداعية من اسارها وأعرب جوان جريس عن ذلك بقوله : أتمنى أن أواصل الرسم بوسائل تشكيلية أضيف اليها عناصر جمالية جديدة اساسها العقل وهو مانجـده في الفن والفنان الافريقي » .

ويقول هنري ماتيس : إن الصورة لاتصبح ذات صلة بما حولها إلا صلتها هي بنفسها » . وهذا المبدأ مبدأ جديد كل الجدة في الخلق الفني لم يحدث أن وجد شبيه له في الدوائر الفنية من قبل . ولذلك كان فنانو مجاجهالى تأكيد وثقة جديدتين في هذه الحقيقة التي عثروا عليها. والفضل في ذلك يرجع للفن الافريقي . ويعبر هنري ماتيس تعبيراً رائعـاً عن أثر الفن الافريقي في مجموعة الفنانين المنتمين اليه فيقول : ان ثورتنا كانت ضد المبـادىء الفنية المستقرة وضد السلطة والثورة ضد السلطة في أي من مستوياتها تنبع اساساً من عدم الاحساس بالأمن والاستقرار ، وهي تخلق في ثورتها احساساً بالذنب ، ولقد كان اكتشاف النحت الافريقي تجربة غنية للفنانين التكعيبيين

والوحشيين ، وهم كفنانين لم يحسوا فقط احساساً عاطفياً تجاه هذه التماثيل ولكنهم التهموها التهاماً ذهنياً . كيف استطاع المثال الافريقي أن يحرز كل هذا الأثر الذي تعكسه تماثيله ؟ لقد كان هذا مثار عجبهم . انهم لم يتوصلوا الى ما توصلوا اليه الا بعد حضارة استنفدت ملايين السنين فكيف استطاع البدائيون في افريقية أن يصلوا الى نفس النتيجة من أول الامر ورغم تخلف حضارتهم ؟ إن هذا هو سر الاصالة في الفن الافريقي ، إن التكعيبية لاتنقل الطبيعة فالصورة فيها ليست صورة مرئية . انها صورة ذهنية ،صورة ترسم المفهوم الذهني للطبيعة ، فهي صورة عقلية تعكس الصورة المرئية ، لذلك فهي تعتمد على الخطوط المستقيمة والدوائر الهندسية والانتظام الهارموني بين كل هذا والالوان . فكيف استطاع الفن الافريقي ان يتوصل الى هذا كله ؟!! هنا تثار مسألة جوهرية حادة تفسر لنا سر استطاعة الافريقيين التوصل الى هذا الفن الرائع من الفنون التشكيلية الكبرى .

فالأساس في الحضارة الافريقية أو الثقافة الافريقية ، إن جاز لنا أن نستعمل التعبير ، هو الوجدان والقلب بعكس العقل والمنطق . والافريقي حاد الحدس يفكر به ويعيش عليه ، ووسيلته في الاتصال بالآخرين ليس التراسل الذهني ولكنها الراسلة الوجدانية . من أجل ذلك كان السحر بدلاً من الطب في علاج الامراض عندهم ، وكانت الاكواخ المخروطية المستديرة في هندسة العمارة تلك التي تشير الى السماء وترتفع في شبق الى الحياة الاخرى ومن اجل ذلك كان استخدام الموسيقى الرتيبة ذات الايقاع البسيط المتكرر السريع الذي يلهب الحس ويرسل القلب في قفزات وصولية ونشوة صوفية ، بدلاً من الموسيقى الهارمونية ذات التركيب المعقد التي تحتاج لكل الملكات الذهنية لتحليلها وفهمها .

فالافريقي اذن توصل الى الحقيقة بوجدانه وحدسه ولذلك وصل بسرعة لأن الوجدان اسلوب لايحتاج لتربية ومدرسة وعلم وبحث .

ان الفن الافريقي لاينبع من الفكر ولذلك اخطأ الغربيون عندما اسموه في اول عهدهم به فناً وحشياً Sauvage .والفنان الافريقي لايتبع عقله فعلاً في التصوير والصقل والنحت ولكن يتبع شعوراً غريزياً تلقائياً . ويرتبط الفنان الافريقي بالتقاليد الفنية الموروثة ، وهو يتتلمذ على اساتذة الفن من المسنين وهو مع ارتباطه بالتقاليد وحيويتها عنده من الناحية العقائدية الا انه في كل تمثال له يقدم عملا مستقلا تماماً . بحيث يجيء كل عمل منفرداً بخصائص جزئية تباعد بينه وبين بقية الاعمال الاخرى وهو اذ يختار هذا الاسلوب المتفرد الذي يصور فيه جانباً واحداًمن جوانب المنظور ويهمل فيه بقية الجوانب انما يخضع لاحساس عاطفي جياش يصرفه في عمله الفني ويعبر فيه عن روح الحضارة الافريقية ذات الجوهر الديني الغيبي . والفارق اذن بين التكعيبية الافريقية والتكعيبية الاوروبية أن التكعيبية الافريقية ذات اساس حضاري ديني وفنانهـــا فنان منتم يخضع لثقافة وقيم حضارته ، أما التكعيبية الاوروبية فهي تكعيبية لا أساس لها من الدين وفنانها فنان لامنتم ثائر على ثقافة وقيم حضارته . ومن هنا تأتي الاصالة العميقة للتكعيبية الافريقية .

في تطور الفنون التطبيقية :

مستقبل الفنون التطبيقية في سورية

بقلم غازي الخالدي

بدأت تتردد في الآونة الاخيرة كلمة الفنون التطبيقية ، وبدأ الناس يتساءلون ماهي الفنون التطبيقية، وما الفرق بينها وبين الفنون التشكيلية.

الفن التشكيلي فن يبحث عن الشكل بنوعيه : المسطح والمجسم ، فعندما يرسم الفنان خطوطاً ومساحات لونية على الورق أو القماش انما يبحث عن علاقات بين الخط واللون والمساحة ليعبر بهذه العلاقات عن الفكرة أو « الشكل » الذي يريده .

اذن وهو في بحثه عن الهدف الذي يريده انما يضع مجموعة علاقات ، وهي نفسها عملية « تشكيل » اي « البحث » عن الشكل في المجال المسطح ، ونعني بالشكل ، الاطار أو الهيكل العظمي الاساسي للفكرة التي يريد ان يعبر عنها

الفنان ، وفي لغة النقد نستعمل كلمة فورم Forme لتعبر عن مدلول الشكل في العمل الفني ، فنقول مثلاً ان الفنان الفرنسي بول سيزان درس الفورم دراسة بنائية وخرج منها بان حلل جميع الاشكال او «الفورم» في الطبيعة الى مخروط واسطوانة ومكعب .

من كل هذا نخلص الى القول بان التصوير بانواعه : الزيتي ، المائي ، الشمعي ، الفحمي ، وجميع مايرسم على الخامات المسطحة يعتبر من الفنون التشكيلية ذات البعدين .

اما عن النوع الآخر من الفن التشكيلي فهو النوع المجسم ، وهو ذو ثلاثة ابعاد ، الطول ، العرض ، العمق ، أي التعامل مع الفراغ وهو مايسمى بالنحت ، وتتم العملية بان يحضر الفنان قطعة صماء ذات حجم غير محدد وذات ثلاثة ابعاد ، ويبدأ في نحتها اما بيديه اذا كانت من الخامات الطرية ، او بآلات خاصة اذا كانت قاسية كالحجر او الخشب حسب نوع الخامة التي يتعامل معها ، وشيئاً فشيئاً تظهر من القطعة الصماء التي بين يديه ملامح لشكل معين .

اذن كذلك في مجال النحت تسمى العملية عملية البحث عن « قيمة الشكل » ولكن في مجال الفراغ .

هذا تعريف بسيط وسريع للفنون التشكيلية من تصوير ونحت من الناحية التكنيكية البحته ، أما من الناحية الميتافيزيقية فالفن التشكيلي بنوعيه «النحت والتصوير» فن الفكر والفلسفة والرأي ، من خلاله تعالج كبرى المشاكل والفلسفات الانسانية المختلفة ، وفي تاريخ الفن رأينا مذاهب واتجاهات كاملة في الفن التشكيلي تعتمد على فلسفات ونظريات من علم النفس والفلسفة وعلم الطبيعة ، فمثلاً فلسفة اللاشعور والاحلام عند فرويد وجدناها عند الفنان الفرنسي السيريالي سلفادور دالي ، وكذلك عند الفنان النرويجي المعروف مارك شاجال ، وفلسفة نيتشه عند الفنان التعبيري جورج رؤوه وغيره من الفنان المعاصرين ، وخاصة في مجال البحث عن الفلسفات الوجودية وجدنا الكثير من الفنانين الذين عبروا عن المفهوم الوجودي في الفن مثل الفنان ميرو وبابلو بيكاسو . وفي مجال علم الطبيعة فقد وجدنا نظرية التكامل عند شفريل ، ونظرية قرص نيوتن في اعمال ماتيه وموتيه وسسلي وبيسارو وسوراه ، حيث صار الفن استمراراً للعلم وتوضيحاً له ، والعكس صحيح كما اثبتت النظرية التكعيبية الفنية التي رافقتها ظهور نظرية التبلور والذرة العلميتين .

والفن التشكيلي رغم انه فن الرأي والفكر والفلسفة الا انه بنفس الوقت فن تزييني جمالي الى حد بعيد ، يعتمد في جوهره على علم الجمال ، ودوره التزييني هذا سهل انتشاره في العالم على مر العصور ومهد لدخوله الصالات الكبيرة والمتاحف .

اما الفن التطبيقي فهو الفن التشكيلي مضافاً اليه الخبرة العملية ، فهو يعتمد في جوهره على مبادىء الفنون التشكيلية من رسم ونحت ، وليس وراء الفن التطبيقي في الغالب فلسفات او آراء وافكار من علم النفس او الفلسفة او علم الطبيعة ، واذا اردنا التوضيح اكثر قلنا ان الفن

التطبيقي هو فن عملي نفعي اكثر منه نظري ، وتزييني بآن واحد ، من هنا نرى الفرق بين التشكيلي وبين التطبيقي من حيث النتائج العملية ، فالتشكيلي كما قلت يعتمد على الفكر ودوره تزييني ايضاً أما التطبيقي فيعتمد على الخبرة اليدوية والتكنولوجية ودوره تزييني وعملي ونفعي بآن واحد.

وحتى يتوضح الأمر اكثر لابد ان نستعرض معاً فيما يلي بعض الفروع التي تنتمي الى الفنون التطبيقية لنرى مدى التصاقها بالحياة العملية النفعية التصاقاً وارتباطاً مباشراً :

فن السيراميك ، أو « الخزف » :

وهو فن تزييني جميل ، يصنع على شكل اوان وتماثيل صغيرة ، ومنفضة سجاير، واطباق وصفائح على شكل لوحات حائطية .. وتحف تزيينية صغيرة بانواع مختلفة والوان متعددة تستعمل لاغراض مختلفة . وتعلوه طبقة لامعة زجاجية تسمى « الجليز » ، تجعله يشبه الزجاج والودع ، واصل الخزف هو تراب وماء من نوع خاص يعمل على شكل طين ، ثم يشكل باليد او بدولاب يدوي او بالآلة ، بالشكل الذي يريده الفنان ثم تجرى عليه بعض التلوينات باكاسيد معدنية واصباغ كيماوية ويحرق اكثر من مرة حسب الحاجة المطلوبة من قبل الفنان التطبيقي .

وتستعمل لحرقه افران ذات درجات عالية جداً من الحرارة .. وقبل اخراج الخزف أو السيراميك من الفرن يجب أن يعود الفرن الى الدرجة الطبيعية حتى يتمكن الخزف من مقاومة الحرارة والتوازن بين حرارة الفرن العالية والحرارة الطبيعية .

ومن البديهي بعد ان استعرضنا بشكل سريع صناعة السيراميك (الخزف) ان نلاحظ أن اول وأهم عملية في السيراميك هي عملية التشكيل والبحث عن الفورم المطلوب ثم بعد ذلك تأتي عمليات الخبرة والصناعة التكنولوجية والعلمية بالاضافة الى مهارة وموهبة في عملية اختيار الالوان ودمجها مع بعضها قبل عملية الحرق .

فن زخرفة النحاس والجلد والزجاج والخشب :

وزخرفة النحاس من الفنون التطبيقية الهامة ؛ وهي عملية ضغط على النحاس ، تتم بعد ان يرسم الفنان الشكل الذي يريده على الطبقة النحاسية الرفيعة ثم تقلب على الوجه الاخر لتتم عملية الضغط بادوات صغيرة خاصة بشكل عكسي ، فالبارز من الخلف يظهر غائراً من الامام..وتستخدم مواد مساعدة باللباد أو الزفت أو المقوى السميك ليسهل عملية الضغط .

ونفس الطريقة بالنسبة للجلد ، أما الزجاج فالعملية تتم بين الرسم والتلوين ، أو بجمع قطع زجاجية ملونة ووضعها بالشكل الذي رسمه الفنان وصممه قبل البدء ، وهذه العملية تسمى بالزجاج

المشق الملون ، كما نرى في شبابيك ونوافذ بعض الكنائس أو المساجد كما هو في الاموي مثلا .
اما الخشب فهناك وسائل عديدة لزخرفته ، اما بالحفر المستوى، أو الحفر المجسم الغائر ،
اما الحفر المستوى فهو ما يسمى بالحفر العربي ، اما الغائر المجسم فمنه ايطالي ومنه فرنسي ،وتختلف انظمته حسب التسلسل التاريخي لفن الحفر على الخشب . ويعتمد كذلك فن الحفر على الخشب على الرسم بالدرجة الاولى بحيث يرسم الفنان الزخرفة التي يريدها اولا ثم يبدأ عملية الحفر .
وهناك زخرفة خاصة للخشب تستعمل فيها آلة خاصة للحرق ، اي أن تأتي الآلة وتمر مروراً دقيقاً وحفراً وبأيد ماهرة على سطح الخشب (البلاكيه) والذي سبق ورسم عليه الشكل المطلوب ، تمر هذه الآلة مع قليل من الضغط وهي متصلة بتيار كهربائي متناوب بدرجة حرارة مرتفعة فتترك اثراً لهذا الكي أو الحرق على الخشب فتعطيه شكلاً جميلا وغريباً بآن واحد .
ويستفاد من لوحات الحرق على الخشب في عمل « باراڤان » او حاجز في الصالونات كما نرى في الفنون اليابانية والصينية التطبيقية .

فن النسيج والحصر والسجاد والطباعة

ومن الفنون التطبيقية ايضاً : النسيج ، الحصر والسجاد وهو معروف ايضاً ، ولكنه كذلك يعتمد بالدرجة الاولى على النماذج الزخرفية المرسومة والمطبوعة الملونة .
ثم تتم بعد ذلك عملية النقل من النموذج الى الخيوط الصوفية والقطنية في النول المطلوب .
وكذلك نجد فن الطباعة على الاقمشة ، وفن حفر الكليشة على الخشب ومادة خاصة اخرى تدعى اللينوليوم ، وهي عبارة عن صفائح اصلها من الخيش المضغوط ويطلى بطبقة خاصة تشبه الى حد ما طبقة عازلة من الكوشوك .. ترسم على سطحها الاملس اللوحة المطلوبة بشكل عكسي ثم تحفر بادوات خاصة وباليد فقط ، ثم تطبع على الورق بالوان مختلفة فتعطي احساساً جميلا ورائعاً وهذا الفن متطور في الصين واليابان تطوراً كبيراً لانه فن يدوي ودقيق جداً .

فن الموزاييك (الفسيفساء)

وكذلك نجد فن الموزاييك وهو نوعان نوع يعتمد على تمشيق الخشب بوحدات زخرفية صغيرة مأخوذة من الصدف أو الفضة أو الخشب أو الرخام الملون الصغير ، ونوع يعتمد على تجميع قطع صغيرة مربعة زجاجية او مثلثة تجهز خصيصاً لهذا الغرض وتوضع على التصميم المرسوم الملون كل حسب لونه ، مربع الى جانب مربع مع مراعاة تدرج الالوان وانتقالها من مرحلة الى اخرى.
وفن الموزاييك قديم جداً وظهر في اوروبا منذ اكثر من ستة قرون في ايطاليا وتزين اكثر الكنائس بلوحات جدارية منه ، ونحن نستطيع ان نزين جدراننا ووجوه الطاولات والارض .. ونستفيد من امكانيات الموزاييك استفادة كبيرة ومشبعة . ولكي نأخذ فكرة عن عدد المربعات الملونة المتوفرة منه نجد ان في الفاتيكان (٢٨) الف لون من القطع الموزاييك الزجاجية .

فن الفرسك

ومن الفنون التطبيقية الهامة فن الفرسك ، وهو فن خاص قائم بذاته يعتمد بالدرجة الاولى على الرسم أيضاً ، على أن يتم على الجدران ، وله اصول وتعاليم خاصة اهمها أن تتم عملية الرسم والتخطيط والتلوين بسرعة اثناء وجود الرطوبة الكافية في الطبقة السطحية على الجدار ، أي أن يتم التلوين مع تشكيل هذه الطبقة من الجير والرمل بنسب معينة ، فعندما تجف يجف معها اللون ويصبح جزءاً منها لايتأثر لا بالحرارة ولا بالرطوبة ولا بالريح ولا بالماء .. رغم أن أصل الوان الفرسك الوان ترابية من اكاسيد معدنية لاتتأثر بالكلس تذوب بالماء وتطلى على الجدار وهو رطب وتجف معه الكلس والرمل وتصبح مع الزمن قطعة من اصل الجدار نفسه .

وتاريخ الفرسك قديم جداً يقال ان العرب اول من عرفوه ، ولكن الفراعنة رسموه على جدران مقابرهم ولا يزال منذ (٥) آلاف عام قائماً الى الآن لم يتغير ولم يتأثر بالزمن ولا بعوامل التعرية اطلاقاً ، ثم ظهر الفرسك في حضارة اليونان في معابدهم وفي كنائسهم ، واليوم في القرن العشرين نرى روائع لوحات الفرسك على جدران وواجهات المؤسسات الحكومية والدولية في اوروبا والهند والصين واليابان وامريكا ومصر .

الاعلان والتصوير وصب البرونز

ومن الفنون التطبيقية أيضاً التصوير الفوتوغرافي وفن الاعلان والانيش ، وفن الغلاف ، وفن الميدالية وصب التماثيل البرونز والجبس والنحاس ، وفن الاباجور والتحف الصغيرة التي يستفاد منها لامور عملية نفعية في البيت .

ومن المؤكد ان جميع هذه الفنون التطبيقية تعتمد اعتماداً جوهرياً وكلياً على الفنون التشكيلية سواء الرسم أو النحت .

لذلك لايمكن أن يقوم فن تطبيقي دون أن يعتمد على فن تشكيلي . وباختصار نقول أن الفن التطبيقي هو الفن التشكيلي مضاف اليه الصناعة والتكنولوجيا والخبرة اليدوية .

واليوم وجمهورنا العربي على ابواب حضارة عالية مزدهرة تساهم وزارة الثقافة في هذا المجهود الفني الحضاري العظيم وتقدم أحلى هدية للجماهير العربية .. تقدم لهم مركزاً خاصاً للفنون التطبيقية .. هذا المركز الذي سيكون النواة الاولى لفن تطبيقي على مستوى عالمي خلال سنوات قليلة باذن الله ..

وهي فرصة طيبة لجمهورنا العربي المؤمن بالتطور والمؤمن بالحضارة والمؤمن بالتقدم .. فرصة طيبة له ليتعلم مجاناً إحدى هذه الفنون التطبيقية .. وانا واثق تمام الثقة ان بلادنا سترى خلال اعوام قليلة نتاجاً من الفن التطبيقي العربي السوري لم ير في أي بلد عربي آخر وذلك لأصالة الفنون التطبيقية في بلادنا ، من حفر على الخشب ، وعلى الرخام ، وعلى النحاس وعلى الزجاج .. كما نرى في فنوننا الشعبية القديمة الشامية المشهورة التي يقصدها العالم من كل حدب وصوب ،

ومهمة مركز الفنون التطبيقية هو تطوير هذه الفنون الشعبية الشامية وتسهيل تنفيذهـــا بالآلات والادوات الحديثة وتعميم فنونها بين سائر طبقات الشعب دون تمييز أو حصر وتوفير كافة الامكانيات الفنية والصناعية وبتكليف اساتذة اخصائيين في هذه الفنون للتدريس على احدث الاصول والمناهج .

ونحن عندما نشجع مثل هذه المراكز الفنية لايعني ابداً أن لانعترف بفضل الفنان الشعبي العربي السوري الذي عاش طوال حياته وهو يبحث ويكتشف اسرار الفن التطبيقي مثل المينا ، والحفر العجمي كما في قبة البرلمان وتطعيم النحاس بالذهب وتطعيم الزجاج بالفضة والمينا .. بل بالعكس نعترف لهذا الفنان الاصيل بالفضل ونؤكد له انه هو الذي دلنا على الطريق وهو الذي سبقنا الى هذا الميدان الواسع فقد صنع ادواته المنزلية بيديه وزين جدران بيته بالاطباق الفخارية المحروقة الملونة بطريقته البدائية البسيطة ، ونسج السجاد الملون والحصير واطباق القش المزخرف بوحدات زخرفية مختلفة ورائعة . وصنع الاواني المختلفة كالزير والخابية والجرة وحفر على الخشب ليزين صندوق العروس بالفضة والصدف والخشب الملون . ولون زجاج نوافذه بالالوان المتعددة دون أن يدري ان هذه الزخارف والالوان هي بداية فن الزجاج المعشق الملون الذي استعمل في المساجد والكنائس .

وصنع آلة الطرب « الربابة » و « البزق » باشكال بسيطة وبمواد خام رخيصة . وكذلك نسج الالبسة وشكل زخارف رائعة بالخرز والصدف والنحاس والفضة والذهب .

كل هذا نعترف به ونحترمه ونعتبره الرائد الاول للفن التطبيقي عندنا .. بل نعتز به لأنه فن عربي اصيل ورائع .. ونحن انما نطور هذا الفن ونقدمه لجميع المواطنين ليكون مجالاً جديداً لبعث الامكانيات الخلاقة في الجمهور العربي السوري ، ولبناء حضارة فنية مزدهرة في المستقبل القريب .



مجلة

المعرفة

مع

التيارات الفكرية العربية والعالمية



كتاب الشهر



القنفذ والثعلب

دراسة في نظرة تولستوي إلى التاريخ

بقلم ايسايا برلين

• عرض وتلخيص الدكتور فؤاد أيوب

من التراث الشعري الاغريقي بيت للشاعر أرخيلوكوس يقول: «يعرف الثعلب أشياء كثيرة، أما القنفذ فيعرف شيئاً كبيراً واحداً». ولعل هذه الكلمات تعني أن القنفذ الذي لا يملك سوى دفاع وحيد يتغلب آخر الامر على الثعلب رغماً عن كل ما يتحلى به هذا الاخير من دهاء وسعة حيلة. بيد أننا اذا اخذنا هذه الكلمات بمعناها المجازي، فهي قد تعبر عن أحد الفوارق العميقة التي تقسم الكتاب والمفكرين، وربما سائر الكائنات البشرية. ذلك أن هوة كبيرة تفصل بين اولئك الذين يرجعون كل شيء الى رؤيا مركزية وحيدة، الى جملة اكثر أو اقل تماسكا أو ترابطاً يفهمون ويفكرون ويحسون وفقاً لها، واولئك الذين يسعون خلف اغراض عديدة ما اكثر ما تنعدم كل صلة بينها، بل ما اكثر ما تكون متناقضة لا تترابط الا بصورة ظاهرية بفعل سبب سيكولوجي أو فيزيولوجي، دون أن يوحدها أي مبدأ اخلاقي أو جمالي. هؤلاء يعيشون حياتهم وينجزون افعالهم ويغذون افكارهم بطريقة نابذة أولى منها جابذة. وان فكرهم لمشتت ضائع، يتحرك على مستويات عدة، معنياً بجوهر التجارب والاشياء المتنوعة لما هي في حدذاتها، غير ساع بوعي أو بدون وعي لادخالها الى رؤيا باطنية موحدة شاملة وغير متبدلة، أو متناقضة وناقصة، بل مهووسة في بعض الاحيان. ان النوع الاول من الشخصية الفكرية والفنية ينتسب الى صف القنافذ، اما النوع الثاني فينتسب الى صف الثعالب. ويمكننا القول ان دانتي وافلاطون ولوكريشيوس وباسكال وهيغل ودوستويفسكي وايبسن وبروست ينتسبون الى المقولة الاولى، بينما شيكسبير وهيرودوت وارسطو ومونتيني وايراسموس رموليير وغوته وبوشكين وبلزاك وجويس ينتسبون الى المقولة الثانية.

اما اذا جئنا الى تولستوي وتساءلنا الى أي المقولتين ينتسب هذا العملاق، فاننا لن نتلقى جواباً فورياً أو واضحاً على سؤالنا. ومع ذلك فقد حدثنا تولستوي عن نفسه وآرائه ومواقفه اكثر مما فعل أي كاتب روسي او اوروبي آخر. ثم

انه ليس في مقدورنا مطلقاً أن ننعت فنه بالغموض، فعالمه خال من الزوايا المظلمة ، وقصصه مضيئة بنور النهار الساطع ، وقد اوضحها لنا بنفسه وناقشها وناقش اساليبه في تأليفها بقوة وسلامة ووضوح لايجاريه فيها أي كاتب آخر . أهو ثعلب أم قنفذ ؟ أهو نظير شيكسبير وبوشكين أم نظير دانتي ودوستويفسكي ؟ أم تراه لايشبه هذا ولا ذاك بحيث يبقى السؤال دون جواب ، لأنه سؤال عديم الجدوى ؟

لعل الصعوبة في الرد على ذلك تقوم في أن تولستوي كان غافلاً عن المشكلة ، أو بذل قصاراه كي يزور الجواب . كان ثعلباً في طبعته ، لكنه كان يعتقد أنه قنفذ . كانت مواهبه وعمله شيئاً واحداً ، وكانت معتقداته - وبالتالي تفسيره لعمله - شيئاً آخر . ولذا قادته مثله الى تفسير خاطىء لما كان يعمله أو لما كان يجب أن يعمله هو وغيره من الناس . ومهما يكن من امر ، فان النزاع بين كينونته ومعتقداته لايتضح في أي مكان مثل وضوحه في نظرته الى التاريخ الذي كرس له بعضاً من صفحاته الاكثر روعة وتناقضاً .

ولنسرع الى القول : ان فلسفة تولستوي عن التاريخ لم تحظ على العموم بما تستحق من انتباه سواء بوصفها نظرة باعثة على الاهتمام بحد ذاتها أم حدثاً مرموقاً في تاريخ الافكار أم عنصراً في تطور تولستوي الفكري . فاولئك الذين يعتبرون تولستوي روائياً في المقام الاول قد نظروا الى المقاطع التاريخية والفلسفية المبعثرة بين صفحات « الحرب والسلم » على اعتبارها شططاً فاسداً في الرواية أو آراء غيبية عرجاء عديمة الاهمية من جهة وبعيدة كل البعد وغريبة كلياً عن العمل الفني بمجموعه في غرضه وبنائه من جهة ثانية . ذلك كان رأي تورغنيف وفلوبير مثلاً ، ورأي معظم الكتاب والنقاد الروس في ذلك العصر . « يجد الخبراء الاديبون أن العنصر الفكري في الرواية ضعيف جداً ،وأن فلسفة التاريخ تافهة وسطحية، وأن انكار ما للشخصيات الفردية من تأثير حاسم في الاحداث ترهة صوفية . لكنه مما لاشك فيه، فيما عدا ذلك ، أن موهبة الكاتب الفنية لاتحتمل النقاش » . ولقد شكا الخبراء العسكريون والمؤرخون المعاصرون من انعدام دقة الوقائع التاريخية،ثم جاء بعدئذ مايثبت أن مؤلف «الحرب والسلم » قد زور التفاصيل التاريخية عن سابق عزم وتصميم ، مطلعاً على كل المصادر المتوفرة ، عارفاً بانعدام أي برهان داحض . ويبدو أنه عمد الى مثل هذا التزوير ليس لغرض فني ، بل لغرض ايديولوجي بالاحرى . وقد عبد هذا الاتفاق بين النقدين التاريخي والفني الطريق لسائر التقديرات اللاحقة لمحتوى « الحرب والسلم » الايديولوجي، فهذا شيلغونوف يسميه « فلسفة المستنقع » ،بينما يتجاهله الآخرون بكل ادب ، أو يعتبرونه انحرافاً مميزاً ناجماً من جهة عن ذلك الميل الروسي المشهور الى الوعظ (وبالتالي الى افساد الآثار الفنية) ، ومن جهة اخرى عن ذلك الشغف بالافكار العامة الذي يميز المثقفين الشبان في البلدان البعيدة عن المراكز الحضارية . وفي رأي الناقد أخشاروموف أنه « من حسن الحظ أن الكاتب فنان أكثر منه مؤلفاً » ،وهو الرأي الذي ظل معظم نقاد

تولستوي ، الروسيين منهم والاجانب ، الرجعيين منهم والتقدميين ، السوفيتيين منهم والسابقين للعصر السوفييتي ، يرددونه طوال ثلاثة ارباع القرن .

لكنه من المؤكد أن تناقضا هاما يجثم هنا . لقد كان اهتمام تولستوي في التاريخ ، وفي مشكلة الحقيقة التاريخية ، اهتماماً محموما قبل أن يكتب « الحرب والسلم » وفي سياق كتابته له . ولا يمكن لأي امرىء يقرأ مذكراته أو رسائله أو « الحرب والسلم » نفسه أن يرتاب لحظة واحدة في أن المؤلف نفسه قد جعل هذه المشكلة في قلب الموضوع كله ، أو بالاحرى القضية المركزية التي بنيت الرواية حولها . ومن المؤكد أن كل ما وصف به تولستوي من نعوت الشعوذة والسطحية والضعف الذهني لا يمكن أن تنطبق عليه في حال من الاحوال ، اذ ليس انسان يتمتع بقواه العقلية يمكن أن يحلم بانكار قوة تولستوي الفكرية وقدرته المذهلة حقـا على النفاذ الى بواطن الامور ، وذلك التشكك الناخر الذي ابتدع له الامير فيازمسكي خصيصا عبارة « العدمية » . فما لاريب فيه إذن أن احدى الحلقات مفقودة هنا . وانه لما يلفت الانتباه حقا هذا الرفض اللاتاريخي ، بله ضد التاريخي ، الذي يجابه تولستوي به كل الجهود المبذولة من اجل ايضاح او تبرير الفعل او الخلق الانسانيين بمـا يتفق مع التطور الاجتماعي او الفردي او مع الجذور الغارقة في الماضي البعيد والقريب ، وذلك بالاضافة الى اهتمام عميق في التاريخ استمر طوال الحيـاة وانتهى الى تلك النتائج الفنية والفلسفية التي أثارت مثل تلك الانتقادات اللاذعة من قبل ناقدين لاتحوم الشبهة مطلقا حول أهليتهم وحبهم لتولستوي . فلنسبر غور الموضوع إذن ، ولنسع الى ايضاح هذا التناقض .

لقـد عني تولستوي بالتاريخ بصورة مبكرة جداً ، ويبدو أن عنايته هذه لم تنشأ من الاهتمام بالماضي بوصفـه ماضياً فحسب ، بل بالاحرى من الرغبة العنيدة في النفاذ الى الاسباب الاولى ، وفهم كيف ولماذا تحدث الاشياء كما تحدث وليس بصورة مختلفة ، وفي النفور من تلك التفسيرات الدارجة التي لاتفسر شيئاً ، ومن ميل الى الارتياب في كل ما لايجيب على السؤال بصورة كلية جامعة ورفض مثل هـذا الجواب اذا اقتضى الامر ، وباختصار من الميل الى الالمام بجذور الاشياء مهما كان الثمن . ويضـاف الى ذلك حب لاينطفىء للاشياء المحسوسة ، التجريبية ، التي يمكن التحقق منها ، وتشكك غريزي لقاء كل ما هو مجرد ، غير ملموس ، فوق الطبيعي ، وذلك ما يشكل الموقف العلمي والوضعي ، وهو موقف نفور على الدوام من الرومانطيكية والصيغ المجردة والغيبيات .

لقد كان يفتش على الدوام ، في كل قضية ، عن « الحقائق القاسية » وحدها ، وكانت القضايا التي تواجه الشباب في كل مكان وفي كل جيل تعذبه وتثقل عليه : الخير والشر ، وأصل الكون وقاطنيه وغاياتهم ، وأسباب كل ما يجري في هذا العالم الفسيح العميق . بيد أن الأجوبة التي يقدمها اللاهوتيون والميتافيزيائيون على هذه القضايا ما كانت

تروي غليله ، بل هي في نظره سخيفة لا مجدية ، ولو لمجرد أنهـا صيغت في كلمات تتجرد عن كل علاقة بالعالم اليومي للحس العام العادي ، وهو العالم الذي يتعلق فيه بعناد وصلابة . وكان التاريخ ، والتاريخ وحده ـ هـذا الحاصل العام للتجربة العقلية للبشر العقليين في علاقاتهم بعضهم بعضـا وبمحيط ذى ثلاثة ابعاد يمكن اختباره تجريبيا ـ ينطوي على الحقيقة ويشكل المـادة التي يمكن الحصول منها على الاجوبة الصحيحة . فالتاريـخ وحده اذن ـ هذا الحاصل العام للمعطيات التي يمكن اكتشافها تجريبا ـ هو الذي يحمل المفتاح من أجـل فهم السبب في حدوث الأمور التي حدثت مثلما حدثت وليس بصورة مختلفة ، وبالتالي فالتاريخ وحده يقـدر أن يلقي نوراً على القضايا الاخلاقية الاسـاسية التي أرهقت مثلا أوهقت المفكرين الروس في القرن التاسع عشر ـ ما العمل ؟ من نحن وما عسانا نفعل ؟ لم نحن هنا ؟ ولمـاذا يجب أن نعيش ؟ «أسئلة ملعونة » ، لكنه لابد من الجواب عليها .

ولقـد درس مونتني وهيوم وتيير وروسو وستيرن وديكنز ، وكان يعتقد ان القضـايا الفلسفية لايمكن فهمها الا في التعبير المحسوس عنها في التاريخ . «ان كتابة التاريخ الحقيقي لأوروبا الحالية قمين بأن يكون هدف حياة انسانية كاملة» . وفي مكان آخر : « تبعث أوراق الشجرة فينا السرور أكثر من جذورها» . وفي هذا القول ، ضمنيا ، أن مثل هذه النظرة الى العـالم هي نظرة سطحية . لكن هذا الاعتقاد لا يخلو من خيبـة الأمل ، من الاحساس بأن التاريخ ، كما كتبـه المؤرخون ، يضع مطالب لايمكن تنفيذها ، لأنه يدعي ـ مثله مثل الفلسفة الغيبية ـ انه يستطيع التوصل الى اشياء هو عاجز عن بلاغها في واقع الامر ، بمعنى انه علم قمين بلوغ نتائج اكيدة . فادام الناس عاجزين عن حل المسائل الفلسفية بواسطة مبـادىء العقل ، فهم يسعون الى حلها تاريخياً . لكن التاريخ هو «أحد العلوم الاكثر تأخراً ، هو علم فقد غرضـه الصحيح » . والسبب في ذلك أنه من المحال على التاريخ ، بسبب عجزه ، ان يحل المسائل الكبرى التي عذبت البشر في كل جيل . لقد كدس البشر ، في سياق سعيهم الى الجواب على هذه الاسئلة ، معرفة بالوقائع تعاقبت في الزمان ، لكن هذه المعرفة ليست سوى محصول ثانوي يخطىء الناس اذ يدرسونه كغاية في حد ذاته . « لن يكشف لنا التاريخ قط ما هي العلاقات القائمـة ، وفي أية أزمنة ، بين العـلم والفن والاخلاق ، بين الخير والشر والدين والفضائل المدنيـة ... ان ما سيخبرنا به (وبصورة غير مضبوطة) ، هو من أين أتى الناس ، وكيف عاشوا ، وما هي أسس قوتهم ، الخ . » وفي مكان آخر : «ليس التـاريخ سوى مجموعة من الخرافات والترهات العديمة النفع ، قد جمعت دونما ترتيب الى جمهرة من الوجوه غير الضرورية وأسماء الاعلام . . . موت ايغور ، والافعى التي عضت اوليغ . . . ما عسى أن تكون هـذه الاشياء جميعا سوى أقاصيص عجائز ؟ ومن يريد أن يعرف أن زواج ايفان الثاني الى ابنة تيمريوك تم في ٢١ آب ١٥٦٢ ،

بينام زواجه الرابع من آنا ألكسيفنا كولتو فسكايا عام ١٥٧٢ ؟ »

فالتاريخ لايكشف عن الاسباب الدفينة، بل كل مايفعله هو ان يقدم لنا تعاقباً عقيماً لأحداث لاتفسيرلها. «يصبح التاريخ شيئاً حسناً لو انه كان صحيحاً » . ولقد سادت هذه الفرضية القائلة ان التاريخ يمكن ، ويجب ، ان يجعل علماً في القرن التاسع عشر . لكن القليلين هم الذين فهموا عبارة « علم » بمعنى العلم الطبيعي ، وبالتالي تساءلوا ما اذا كان يمكن تحويل التاريخ الى علم بهذا المعنى المخصوص . وكان اوغوست كونت اكثرهم حزماً ، اذ حاول ان يجعل من التاريخ مجرد علم للاجتماع ، مع كل ما ينجم عن ذلك من عواقب تفوق التصور . ولعل كارل ماركس هو الوحيد ، من بين سائر المفكرين ، الذي اهتم بهذا البرنامج بصورة جدية ، وقام بأجرأ محاولة من اجل اكتشاف قوانين عامة تسير التطور التاريخي . وكان تولستوي يعتقد ، على غرار ماركس ، انه اذا كان التاريخ علماً فيجب ان يكون في المستطاع اكتشاف وصياغة مجموعة من القوانين الصالحة له ، وهي قوانين اذا جمعت الى معطيات المشاهدة التجريبية جعلت التنبؤ بالمستقبل ، واستقصاء الماضي ايضاً ، امرين ممكنين كما هي الحال في الفلك والجيولوجيا . لكنه ادرك بوضوح اكثر من ماركس ان هذا الامر لم يتحقق في الواقع ، وأتى بحجج تبين ان الامل في تحقيق ذلك معدوم ، واختتم الموضوع بملاحظته ان تحقيق هذا الرجاء العلمي سيضع حداً للحياة الانسانية حسبما نعرفها : « اذا سمحنا بأن تساس الحياة الانسانية بالعقل ، فان امكانية الحياة ، اعني بوصفها فعالية عفوية تتضمن الوعي بالارادة الحرة ـ تتعرض للدمار اذن » . بيد ان اكثر مايضايق تولستوي ليس هو طبيعة التاريخ « غير العلمية » ـ بمعنى اننا لن نتمكن ، مهما بذلنا من جهد في البحث التاريخي ، ان نكتشف قوانين يمكن الاعتماد عليها ، حتى من ذلك النوع من القوانين الذي تستلزمه اكثر العلوم الطبيعية تخلفاً ـ بل اعتقاده بانعدام اي مجال لتبرير الانتقاء الاعتباطي للمواد ، والتأكيد الاعتباطي ايضاً على هذه معطيات دون تلك ، وهما امران يبدو ان لامناص منهما في كل تأريخ . فبينما العوامل التي تقرر حياة الانسانية متنوعة للغاية ، نرى المؤرخين ينتقون منها مظهراً وحيداً ، كالمظهر الاقتصادي او السياسي مثلا ، ويروجون سوروه على اعتباره العامل الاولي او السبب الفعال في التغير الاجتماعي . فماذا يحل اذن بالعوامل « الروحية » ـ الدين مثلا ـ والمظاهر العديدة الاخرى ـ وهي مظاهر لاحصر لها بالمعنى الحرفي للكلمة ـ التي تمهر سائر الاحداث بها ؟ وكيف الافلات من الاستنتاج بأن سائر التواريخ الموجودة لاتمثل سوى « ربما ١,٠٠١ بالمائة فقط من العوامل التي تشكل فعلا تاريخ الشعوب الحقيقي » على حد تعبير تولستوي . ان التاريخ يمثل ، كما يكتب عادة ، الاحداث « السياسية » ـ الاحداث العامة ـ بوصفها الاحداث الاهم ، بينما الحقيقة ان الاحداث « الباطنة » ـ الروحية ـ التي هي الاكثر واقعية بالفعل ، اذ هي التجربة الاكثر فورية للكائنات البشرية ، هي ماتألف

الحياة منه في آخر تحليل . وهنا هو السبب في ان المؤرخين السياسيين الماديين لا ينطقون الا سخفاً .

وفي الخمسينات من القرن الماضي ، كان تولستوي منكباً على كتابة رواية تاريخية يتوخى منها اظهار التناقض بين تركيب الحياة « الواقعي » ، حياة الافراد والجماعات على السواء ، وبين الصورة « غير الواقعية » التي يقدمها لنا المؤرخون عن تلك الحياة . وهكذا نصادف مراراً وتكراراً ، في « الحرب والسلم » ، تراكباً حاداً بين « الواقع » ـ ماوقع « حقاً وفعلا » ـ وبين الوسيط الذي يشوه هذا الواقع كما سوف يعرض علينا فيما بعد في الوثائق الرسمية ، وحتى في ذكريات اصحاب الادوار انفسهم ، هؤلاء الذين لابد ان تعدل افكارهم في ذكرياتهم . وتلك هي الحال بالنسبة الى نيقولاي روستوف تلقاء الامير باغراسيون في معركة اوسترليتز ، او بالنسبة الى الامير اندريه سواء تجاه حياة البلاد السياسية واصلاحات القيصر الكسندر ورئيس وزرائه سبيرانسكي أو في معركة بورودينو حيث اصيب بجرحه القاتل ، او بالنسبة الى بيير بزوخوف اذ يتيه في ميدان قتال بورودينو « ضائعاً » ، يبحث عما يصفه المؤرخون ويرسمه الرسامون كمعركة عادة ، فلا يجد سوى الاضطراب العادي للكائنات البشرية الفردية الساعية كيفما اتفق خلف هذه الحاجة الانسانية او تلك . ذلك ان « الوصية التي تنص على عدم تذوق ثمرة شجرة المعرفة لم تكتب في اي مكان بمثل الوضوح الذي كتبت به في مجرى التاريخ . ان النشاط اللاواعي وحده يثمر ، والفرد الذي يلعب دوره في الاحداث التاريخية لايدرك مغزاها قط ، واذا هو حاول ان يفهم أصيب بالعقم » . ان الاحداث لاتخضع ابداً لمجموعة من القوانين او القواعد التي يمكن اكتشافها ، بل كل ماهنالك سلسلة من « الطوارىء » التي لايمكن التنبؤ بأصولها او بعواقبها . تلك مجموعات من الاحداث الرخوة الترابط ، وهي لاتخضع لاي ترتيب يمكن تمييزه ، ولابد ان يكون كل من يريد ان يحشر التعدد الهائل للاسباب والنتائج ضمن قوانين « علمية » مشعوذا او اعمى يقود عميانا في احسن الاحوال ، كاولئك العسكريين الذين يريدون ان يقرروا مجرى الاحداث ويضعون الخطط لذلك ، او نابليون نفسه الذي يتصرف ـ وقد سحر الآخرين بحيث صدقوه ـ كما لو انه يفهم الاحداث بفكره الخارق ويسيرها ، بحيث يستطيع ان يجيب بصورة صحيحة على ما يطرحه التاريخ من قضايا . لكنه بقدر مايكون الادعاء اعظم تكون الكذبة اكبر .

ذلك هو اذن الوهم العظيم الذي يحاول تولستوي أن يفضحه : أن يكون في مكنة الافراد ، بامكانياتهم الخاصة ، ان يفهموا مجرى الاحداث ويتحكموا فيه . إن الذين يؤمنون بذلك يخطئون خطأً فادحاً . بيد ان العالم الحقيقي يقوم الى جانب هذه الصورة العامة المضللة ، وذلك هو تيار الحياة التي يفهمها الناس ، والاهتمام بالتفاصيل العادية للوجود اليومي . وإما يقارن تولستوي هذه الحياة الحقيقية ، هذه التجربة « الحية » ، الفعلية ، اليومية ، التي يمارسها الافراد ، بالنظرة الشاملة التي يدعيها المؤرخون ، فان الشك لايراوده لحظة واحدة في ايهما هي الحقيقية وأيهما هي

الوهمية . فكل مايقع خارج النفس الفردية ـ أي مايسمى الوقائع الاجتماعيــة والاقتصادية والسياسية ـ هي مظاهر عديمة الاهمية ، وأما الشيء الحقيقي الوحيد فهو التجربة الفردية ، العلاقات النوعية بين الافراد ، الالوان والروائح والمذاقات والاصداء والحركات ، عناصر الغيرة والحب والكراهية والعواطف ، والبرهات التي تقلب وتبدل ، وباختصار التسلسل اليومي العادي للمعطيات الخاصة الفردية .

ماهي وظيفة المؤرخ العظمى اذن ؟ ان يصف المعطيات الاخيرة للتجربة الشخصية ، « الافكار والمعرفة والشعر والموسيقى والحب والصداقة والبغض والعواطف » التي تتألف منهــا الحياة الحقيقية في نظر تولستوي ، وأن يصف هذه الاشياء فقط ؟ تلك هي المهمة التي كان تورغنيف لايني يدعو اليها تولستوي وجميع الكتاب . لكن تولستوي يرفض ذلك بكل عنفوان ، لأنه لايعني إعطاء الجواب على ماهو موجود ، ولماذا وكيف حدث وانقضى ، بل يعني أن يستدبره المرء تماماً ، وأن يكبح رغبته في معرفة كيف يعيش الناس في المجتمع ، وكيف يتأثرون بعضهم بعضاً وبمحيطهم على العموم . لقد كانت مثل هذه العناية بتحليل ووصف تجربة وعلاقات وقضايا حيوات الافراد الداخلية شيئاً تافهاً وكاذباً في نظره ، اذ هي « ورود » الحياة اللامجدية ، بينما غرضه ـ هو تولستوي ـ أن يبلغ « الجذور » ، أن يكتشف الحقيقة ، الامر الذي يطلب منه أن يعرف مم يتألف التاريخ ، وأن يعيد خلق ذلك . ومن الواضح أن التاريخ ليس علماً ، اذ لم تكتشف اية قوانين حقيقية له ، وليست المفاهيم الدارجة عن « السبب » و « الحدث » و « العبقرية » سوى اقنعة تغطي الجهل وتحاول إخفــاءه . وإن بعض المؤرخين يعزون الحوادث الى افعال الأفراد ، لكن هذا الجواب لايكفي ، لأنه لايفسر كيف « تسبب » هذه الافعال الحوادث التي ينسب اليها « سببها » أو « اصلها » .

« يشبه التاريخ الجديد إنساناً أصم يرد على أسئلة لايطرحها عليه احد ... وان السؤال الأولي هو ماهي القوة التي تحرك مصائر الشعوب ؟ ويبدو ان التاريخ يفترض ان هذه القوة معطاة ، وهي مألوفة لدى الجميع ، لكنه رغماً عن ارادتنا الطيبة في الاعتراف بأن هذه القوة مألوفة لدينا ، فان اي امرىء قرأ عدداً كبيراً من المؤلفــات التاريخية لايمكن إلا ان يشك فيما اذا كانت هذه القوة التي يفهمها المؤرخون المختلفون بطرق مختلفة هي في الحقيقة مألوفة لدى الجميع » .

ويقول إن المؤرخين السياسيين الذين يكتبون بهذه الطريقة لايفسرون شيئاً ، بل لايفعلون أكثر من ارجاع الاحداث الى « السلطة » التي يقال إن الافراد يمارسونها على الآخرين ، لكنهم لايقولون لنا مامعنى كلمة « السلطة » وكيف يحصل الافراد عليها ، وهل يمكن نقلها من فرد الى آخر ؟ ومن المؤكد أنه لايقصد بها القوة الجسمية ولا القوة الاخلاقية . وهل كان نابليون يملك أياً منهما ؟

وإذ يعمم بعض المؤرخــين المشكلة ، فانهم

لايكشفون أسرارها . إنهم يتحدثون عن بلدان أو أمم عديدة بدلاً من بلد واحد أو أمة واحدة، لكن تداخل « القوى » لايوضح لنا لماذا يخضع بعض الناس للآخرين أو لماذا تخضع بعض الأمم لأمم أخرى ، ولماذا تقع الحروب ، ولماذا يقتل الناس الابرياء بعضهم بعضاً بكل حمية وفخار ، ويمجدون من اجل ذلك ، مع انهم يعتقدون في سريرتهم ان القتل جريمة لاتغتفر ، ولماذا تحدث الحركات العظمى للجماهير البشرية ، من الغرب الى الشرق تارة ، ومن الشرق الى الغرب تارة اخرى .

ولايفعل مؤرخون آخرون افضل من ذلك . انهم يأتون بعامل اضافي هومايسمونه قوة الافكار او الكتب . لكننا نظل مع ذلك جاهلين معنى مفهوم « القوة » ولماذا يجب ان يؤدي نابليون او مدام دي ستال او بارون ستين او القيصر الكسندر ، او جميعهم بالاضافة الى « العقد الاجتماعي » ، الى حمل الفرنسيين على تقطيع رؤوس بعضهم بعضاً . لا ، ان مؤرخي الثقافة يبالغون .

اما دعاة النظريات السياسية والاخلاقية والميتافيزيائية فيضيفون ظلاماً فوق ظلام ، ومثال ذلك ان مفهوم العقد الاجتماعي يتحدث عن « تخويل » فرد او جماعة لإرادات اناس عديدين. لكن اي نوع من الفعل هو هذا التخويل ؟ قد يكون له مغزى شرعي او اخلاقي ، وقد يرتبط بما يجب ان يعتبر مسموحا او محرما ، بعالم الحقوق والواجبات ، بالحسن والرديء ، لكنه لايفسر البتة كيف يكدس حاكم مايكفي من « السلطة » ، وكأنها سلعة ما ، بحيث تمكنه من الحصول على هذه النتيجة او تلك . ان هذا الفعل يعلن ان تخويل السلطة يعطي السلطة ، لكن هـذا لايعني شيئا . فما هي « السلطة » وماهو « التخويل » ؟ ومن يخولها وكيف يحـدث ذلك ؟ ان الامر يختلف عنه في العلوم الفيزيائية . ان التخويل فعل، لكنه فعل غير مفهوم ، وهو لايشبه مطلقا الاكل والشرب والمشي والتفكير. نحن ههنا في العتمة .

ويتحول تولستوي الى النظرية الليبرالية عن التاريخ ، التي تزعم ان مصائر الامور قد تتوقف على مايمكن ان يبدو حدثا عديم الاهمية ، فيعمل فيها نقده اللاذع ، ثم ينبري بشيء اكثر من القسوة نحو علم الاجتماع العلمي الذي يدعي اكتشاف قوانين للتاريخ دون ان يكون قد توصل الى ذلك بالفعل ، لأن عدد الاسباب التي تتوقف عليها الحوادث لأعظم من ان تستطيع المعرفة البشرية استيعابها او حسابها . اننا نعرف وقائع قليلة جداً ، ونحن ننتقيها بطريق المصادفة، وبصورة تتفق مع ميولنا الذاتية . ولا ريب انه يكون في مقدورنا ، لو كنا نملك المعرفة الشاملة ، أن نحدد مجرى كل قطرة من تيار التاريخ ، لكننا جاهلون بصورة محزنة ، ومعرفتنا محدودة جداً بالمقارنة مع الاشياء غير المعروفة ، وغير القابلة للمعرفة . وليست حرية الارادة سوى وهم لا يمكن القضاء عليه ، لكنها وهم على اية حال ، ومصدره الوحيد الجهل بالأسباب الحقيقية . فبقدر ما يبعد الفعل عنا زمنياً تتعاظم الصعوبة التي تعترض

سبيلنا في تقدير عواقبه ، وبقدر ما ينغرس الفعل بمتانة في العالم الحالي الذي نعيش فيه يزداد عجزنا عن تصور كيف كانت الامور تجري لو كان الفعل مختلفا . ذلك انه يتراءى لنا امراً محتوما اذن ، واذا ما اتخـذ تفكيرنا مجرى آخر فانه يبعث اضطرابا كبيراً اذن في نظام عالمنا . وبقـــدر ماترابط فعلا مانجنته بصورة محكمة ، فان مسؤولية فاعله تتناقص في نظرنا ، لكننا اذا كنا عاجزين كل العجز عن تحديد سائر الاسباب وعن ربط سائر الافعال البشرية بالظروف التي استلزمتها ، فان هذا لايعني ان تلك الافعال حرة ، بل كل مايعنيه اننا لن نتمكن قط ان نعرف الضرورة التي املتها .

ان فرضية تولستوي المركزية تنص على ان ثمـة قانونا طبيعيـاً تتقرر بموجبه حيوات الكائنات البشرية بما لايقل احكاماً عن القوانين الطبيعية . لكن البشر ، اذ يعجزون عن مجابهة هـذه العملية الصارمة ، يحاولون ان يصوروها بوصفها تسلسلاً لاختيارات حرة ، وأن يلقوا مسؤولية الاحداث التي تقع على أشخاص أسبغوا عليهم فضائل بطولية أو عيوبا بطولية واطلقوا عليهـم اسم « الرجال العظام » . ومن هم الرجال العظام ؟ إنهم كائنات بشرية عادية ، لكنهم على قدر من الجهل والغرور بحيث يقبلون أن يأخذوا على عاتقهم مسؤولية حياة المجتمع . انهم افراد يأخذون على كاهلهم تبعة كل افعال القسوة والعنف والظلم الـتي حدثت باسمهم بدلاً من الاعتراف بتفاهتهم الخاصـة وعجزهم الخاص في التيـار الكوني الذي يتابع مجراه دون ان يعنى مطلقا بارادتهم ومثلهم . ان الرجل العظيم لأشبه بالكبش الذي يسمنه الراعي تهيئة لذبحه . ولما كان الكبش يسمن حسبما ينبغي ، وقد يستخدم قدوة لبقية القطيع ، فانه يتصور بشكل يسير أنه قائد القطيع ، وان الخراف الاخرى انما تذهب حيث يذهب نزولاً عند ارادته ، وقد يتصور القطيع ذلك ايضا . ومع ذلك لم يكن الغرض من انتقائه دور يحسب هو نفسه انـــه يقوم بـه ، بل الذبح ــ وهو غرض تصورته كائنات لايستطيع هو او الخراف الاخرى ادراك غاياتها . وليس نابليون في نظر تولستوي الا مثل ذلك الكبش ، وكذلك الاسكندر ، ومثلهما سائر الرجال العظام في التاريخ . ويبدو ان تولستوي يتجاهل احيانا ، عن عمـد ، الحقيقة التاريخية ويشوه الحقائق عن سابق اصرار وتصميم كيما يدعم فرضيته المفضلة . هكذا حول كوتوزوف مثلا من انسان شهواني واهن القوى ، من عجوز ثقيل الوطأة ، داهية ومكار ، الى الرمز الذي لاينسى للشعب الروسي في كل بساطته وحكمته الحدسية . انـــه يعامل الحقائق بكل اخلاص حين تناسبه ، لانه مشغول في المحل الاول بفرضيته التي هي التضاد بين تجربة الارادة الحرة العمومية والهامة جـدا ، لكنها وهميـة مخادعة ، والشعور بالمسؤولية ، وقـيم الحياة الخاصة على العموم من جهة واحدة ، وبين حقيقة الحتمية التاريخية الصارمة من جهة اخرى ، وهي حتمية لم يجر اختبارها بصورة مباشرة حقا ، لكنه تم الوصول الى التحقق من صحتها على اسس نظرية لاتدحض . ويقابل هذا بدوره نزاعا باطنيا

معذبا بين جانبين من القيم ، العامة منها والخاصة . فمن جهة واحدة، اذا كانت تلك المشاعر والتجارب الفورية التي ترتكز عليها **القيم العادية** للافراد والمؤرخين على حد سواء لاتعدو كونها وهما واسعا ، فيجب باسم الحقيقة ان يثبت ذلك – ان تفضح القيم والتجارب المشتقة عن ذلك الوهم؟ وهذا ما يفعله تولستوي بمعنى ما حين يتفلسف . لكنه من جهة اخرى يفعل نقيض ذلك تماما حين يجابه بمشاهد الحياة العامة **القيم المتفوقة** للتجربة الفردية، « الافكار والمعرفة والشعر والموسيقى والحب والصداقة والبغض والعواطف » التي تتركب الحياة الحقيقية منها – حين يعارض الحقيقة الحسية والمتعددة الالوان للحيوات الفردية بالتجريدات الشاحبة للعلماء والمؤرخين الذين يباهون بشكل تلك القوة لانهم يخلطون بين مقولاتهم الفارغة الخاصة والحقائق الواقعية . ومع ذلك فان اولية هذه التجارب والعلاقات والفضائل الخاصة تفترض تلك الرؤيا عن الحياة ، باحساسها بالمسؤولية الشخصية واعلانها بالحرية وبامكانية الفعل العفوي ، وهي ما يشكل بالضبط ذلك الوهم الذي ينبغي اجتثاثه اذا كان لابد من مواجهة الحقيقة .

هذا اللغز الرهيب لايحل بصورة جازمة مطلقا . إن تولستوي يتردد احيانا ، فيقول ان الفرد « بمعنى ما » ، حر حين يكون الامر متعلقا به وحده: هكذا هو حر ضمن الحدود الحكمية حين يرفع ذراعه . لكنه ما إن يدخل في علاقات مع الاخرين حتى لايعود حراً البتة ، بل يصبح جزءاً من تيار لايرحم . ان الحرية حقيقية ، لكنها مقصورة على الاعمال التافهة . وفي احيان اخرى ينطفىء حتى هذا الشعاع الضئيل من الامل ، فيعلن تولستوي انه لايستطيع ان يقبل بأي استثناء صغير للقانون العمومي : فاما ان تكون الحتمية السببية شاملة وإما الاتكون شيئا مطلقا ، وعندئذ تسود الفوضى . فقد تبدو افعال البشر حرة من الرباط الاجتماعي ، لكنها ليست حرة ، ولايمكن ان تكون حرة ، بل هي جزء من ذلك الرباط . ولا يستطيع العلم ان يدمر وعي الحرية ، هذا الوعي الذي لايمكن ان يكون اخلاق او فن بدونه، لكنه يستطيع ان يدحضه . وليست « القوة » و « الحدث الطارىء » سوى اسمين للجهل بالسلاسل السببية . بيدأن السلاسل موجودة سواء شعرنا بها أم لا . ومن حسن الحظ اننا لانحسها ، لأننا اذا فعلنا عجزنا عن الفعل تقريبا . ان فقدان الوهم سيشل الحياة التي تعاش على اساس جهلنا السعيد . وان ذلك لحسن جداً . لاننا لن نكتشف قط سائر السلاسل السببية الفعالة ، فعدد مثل هذه الاسباب كبير جدا ، والاسباب نفسها صغيرة للغاية ، والمؤرخون ينتقون منها قسماً ضئيلا حتى درجة السخف ويعزون كل شيء الى هذا القسم الذي انتقي اعتباطا وبمحض الصدفة . كيف يستطيع علم تاريخي مثالي أن يعمل اذن ؟ باستخدامه حسابا « تفاضليا » يمكن بواسطته اجراء تكامل اللامتناهيات في الصغر – أي الافعال والاحداث الانسانية واللاانسانية اللامتناهية في الصغر – وعندئذ لايعود التواصل التاريخي يتشوه بتقسيمه إلى تلك المقاطع الاعتباطية .

وليست تلك نظرة صوفية او حدسية الى الحياة ، اذ ان جهلنا بكيفية وقوع الاشياء لاينشأ عن منعة الاسباب الاولى ، بل عن تعددها فقط ، وعن ضآلة الوحدات الاخيرة ، وعجزنا الخاص عن رؤية وسماع وتذكر وتسجيل مايكفي من المواد المتوفرة والتوفيق مابينها . ان المعرفة الشاملة ممكنة مبدئيا حتى بالنسبة الى الكائنات العادية ، لكن بلوغها في الممارسة امر مستحيل . وهذا وحده هو مصدر جنون العظمة عند البشر. فا دمنا غير احرار في واقع الامر ، لكننا لانستطيع أن نحيا دون القناعة بأننا احرار ، فا عسانا نفعل ؟ الافضل لنا ان ندرك اننا نفهم مايحدث كما نفهمه بالفعل — كما يفهمه الناس البسطاء ، العفويون ، الطبيعيون ، الذين لم تعم النظريات ابصارهم — من ان نسعى الى تهديم مثل هذه المعتقدات القائمة على الحس السليم في مصلحة علوم كاذبة لاتعدو كونها وهما وكابوسا لأنها قائمة على معطيات غير صحيحة . ولذا فانه يقف ضد سائر المذاهب العقلانية المتفائلة ، والعلوم الطبيعية ، والنظريات الليبرالية عن التقدم ، والخبرة العسكرية الالمانية ، وعلم الاجتماع الفرنسي ، كما يجعل من كوتوزوف الذي تبع غريزته الروسية البسيطة وتجاهل كل الخبراء الالمان والفرنسيين والايطاليين بطلا قوميا ومعبودا للجماهير .

. . .

كان اهتمام تولستوي بالتاريخ صادراً عن ينبوع اعمق من مجرد الاهتمام النظري بالطريقة التاريخية او الاعتراضات الفلسفية على نماذج معينة من الممارسة التاريخية . لقد كان ينبع بالاحرى من نزاع داخلي مرير بين تجربته الفعلية ومعتقداته ، بين رؤياه عن الحياة ونظريته عن ماهيتها ، بين المعطيات المباشرة التي كان اصدق واذكى من أن يتجاهلها والحاجة الى تفسيرها بصورة لاتقوده الى السخافات الصبيانية لسائر النظريات السابقة له. ذلك أن اليقين الوحيد الذي ظل مزاجه وفكره مخلصين له طوال حياته قد كان ينص على ان سائر المحاولات السابقة من اجل ايجاد نظرية عقلانية للوجود — من اجل تفسير كيف ولماذا حدث ماحدث في هذا الوقت او بتلك الطريقة ، ولماذا من الخير او الشر أن يفعل هذا الشيء او لايفعل — لم تكن سوى عبث لاطائل تحته ، وخبية تكفي كلمة صادقة واحدة للقضاء عليها القضاء المبرم . ولم يكن تولستوي ، بطبيعته ، خياليا ، بل كان يرى الاشياء والاوضاع المتعددة على هذه الارض في كل تنوعها ، وكان يدركها في جواهرها الفردية ، وما يفصلها عن الاشياء المختلفة عنها ، وذلك بوضوح لامثيل له . ولقد رفض بكل احتقار ، ودونما كبير صعوبة ، سائر تلك النظريات التي تسعى الى الجمع ، والتوفيق ، و « التركيب » ، وكشف بواطن الامور والعلاقات الداخلية الخفية التي تتضمن وحدة سائر الاشياء بالرغم من عدم ظهورها للعين المجردة . وكانت عبقريته تقوم في ادراك الخصائص الخاصة ، في ادراك الصفة الفردية التي يكاد التعبير عنها أن يكون مستحيلا ، وهي الصفة التي تجعل هذا الشيء المعين يختلف بصورة فريدة عن سائر الاشياء الاخرى . ومع ذلك فقد كان يتوق الى مبدأ تفسيري عمومي ، ألا وهو

ادراك أوجه الشبه او الاصول المشتركة ، او الغاية الوحيدة ، او الوحدة في ذلك التنوع الظاهري للتنف والاقسام المتنافية التي تتركب منها لحمة العالم. وكان لابد مثله مثل سائر اولئك المحللين ذوي البصيرة النافذة، المتخيلة ، الذين يشرحون او يسحقون كل شيء كيما يبلغوا الى اللب الذي لا يطاله التلف ، ويبررون فعاليتهم المدمرة (التي لا يستطيعون الامتناع عنها) باعتقادهم بوجود مثل ذلك اللب ـ يحطم تراكيب خصومه باحتقار بارد ، بوصفها لا تليق بأناس اذكياء ، مترجيا دون انقطاع ان تنبثق الوحدة « الحقيقية » من عمليات التدمير المتواصلة لتلك التراكيب المزورة الخادعة التي هي فلسفات التاريخ في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . وبقدر ما كان يعاظم الشك بأن مثل هذا المسعى قد يكون مجدياً ، وبأنه لن يتم الوصول قط الى اي لب او اي مبدأ موحد ، كانت عمليات التدمير للمزيد من تلك النظريات المدعية للحقيقة تزداد عنفا وقوة . ولقد كانت قدرة تولستوي الذهنية المحضة على مثل هذا النشاط القتال عظيمة جداً واستثنائية ، وكان يبحث طوال حياته عن بنيان يملك ما يكفي من القوة كي يقاوم الاندماره وقنابله وبطارياته . كان يتمنى ان يوقفه عائق لا سبيل الى اجتيازه ، ان تقوم تحصينات لا سبيل الى اختراقها في وجه قذائفه المتتالية .

ولم يبق من كل هذا البحث اليائس سوى تلك العقيدة « الوضعية » النحيلة الخاصة بالتبدل التاريخي في كتاب « الحرب والسلم » ، وكان التفوق الهائل لاسلحة تولستوي الهجومية على اسلحته الدفاعية هو الذي جعل فلسفته عن التاريخ ـ نظرية الجزئيات الدقيقة التي تحتاج الى عملية التكامل ـ تلوح بالية مصطنعة في نظر القارىء العادي المعتدل الحساسية . من هنا كان اتجاه معظم النقاد الى تأييد فرضية اختار وموف القائلة ان عبقرية تولستوي تقوم في خاصيته ككاتب ، كمبدع لعالم اكثر واقعية من الحياة نفسها ، وليس في تلك التحاليل النظرية التي لا تلقي اي خيط من نور على صفة او قيمة المؤلف نفسه ، او العملية الخلاقة التي تم انجازه بها ، وذلك بالرغم من ان الكاتب نفسه يعلق الاهمية القصوى على تلك التحاليل بالضبط . وانه لمن سخرية التاريخ ان يعامل تولستوي بهذه الطريقة ، اذ ان ذلك هو اسلوبه الخاص مع المؤرخين الاكاديميين الذين وجه اليهم نار سخريته . ومع ذلك فان في هذه النتيجة شيئا كثيراً من العدالة الشعرية ، اذ ان النسبة غير المتكافئة بين العناصر النقدية والبناءة في فلسفته تنجم فيما يبدو عن الحقيقة التالية ، ألا وهي ان احساسه بالواقع (هذا الواقع الذي يقوم في الاشخاص المفردين وفي علاقاتهم فقط) قد عمل على ابطال سائر النظريات العريضة التي تجاهلت موجوداته ، لكنها اثبتت عجزها عن توفير اساس من اجل تقدير الحقائق بصورة افضل . وليس ثمة اثبات على ان تولستوي نفسه قد ادرك انه من الممكن ان يكون ذلك اصل « الثنائية » التي عبر عنها في « الحرب والسلم » ، اصل الاخفاق في التوفيق بين « الحياتين اللتين يعيشهما الانسان »

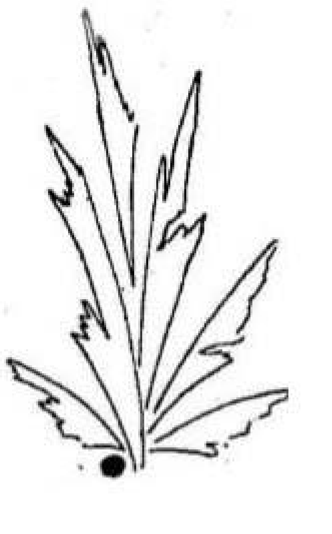
ان النزاع الشائك بين اعتقاد تولستوي بأن صفات الحياة الشخصية هي وحدها الشيء الحقيقي وعقيدته بأن تحليلها لايكفي من اجل تفسير مجرى التاريخ (يعني سلوك المجتمعات) يتوازى ، على مستوى اكثر عمقا وشخصية ، مع النزاع بين مواهبه الخاصة ككاتب وانسان من جهة ، ومثله من جهة اخرى ـ هذه المثل التي آمن احيانا بأنه قد بلغها ، وعلى اية حال فقد آمن على الدوام بها واراد ان يبلغها ·

واذا ماتذكرنا مرة اخرى تقسيمنا للفنانين الى ثعالب وقنافذ ، فان تولستوي قد ادرك الواقع في تنوعه وتعدد وجوهه ، بوصفه مجموعة من الوحدات المستقلة المنفصلة عن بعضها بعضا التي كان يرى من حولها وضمنها بجلاء ونفاذ لن طاوله اليهما انسان ، لكنه بالمقابل كان يؤمن بكل واحد ، واسع وغير منقسم ، ولا يعرف تاريخ الفن كاتبا اظهر مثل تلك القدرة على استبطان الحياة في كل تنوعها ، على النفاذ الى الفوارق والتضادات والصدامات القائمة بين الاشخاص والاشياء والاوضاع ، وقد ادرك كل منها في تفرده المطلق وصورها لنا بدقة لامثيل لها عند اي كاتب آخر · ابداً لم يتفوق انسان على تولستوي في التعبير عن النكهة الخاصة والنوعية المضبوطة لاي شعور ، ودرجة « تذبذبه » ، ومده وجزره ، وحركاته الدقيقة ، او اللمحة الداخلية والخارجية لنظرة ، او فكرة ، او غصة عاطفية ، او وضع معين من الحياة ، ومرحلة كاملة من وجود الافراد والاسر والجماعات والامم الكاملة . ان ذلك الشبه بالحياة الذي يتحلى به كل غرض او كل شخص في عالمه انما ينشأ عن قدرته المذهلة في تصوير كل عنصر مركب له في كمال جوهره المفرد ، في جميع ابعاده المتعددة ، كما هو في الاصل تماما · انه لايصوره لنا قط كمجرد احد معطيات الوجود ، مهما كان حيا واضحا ، ضمن تيار ما من الشعور ، بحواف غامضة ، او بظل يغمره فيغطي بعض جوانبه ، وكذلك لايصوره لنا وقد ارتبط بعملية ما من عمليات المحاكمة الذهنية في عقل القارىء ، بل هو يمثله لنا ، دائما ، على اعتباره شيئا جامداً ، يشاهد في وقت واحد من قريب ومن بعيد ، في ضوء النهار الطبيعي الذي لم يطرأ عليه اي تبدل ، من سائر زوايا الرؤية الممكنة ، انه حدث حاضر كليا امام الحواس او المخيلة من سائر وجوهه وجوانبه ، وكل منعطفاته بينة بكل جلاء ووضوح ·

ومع ذلك فان ما كان يؤمن به هو نقيض ذلك تماما . لقد كان ينادي برؤيا شاملة وحيدة ، ولم يكن يبشر بالتنوع ، بل بالبساطة ، وليس بمستويات الشعور المتعددة ، بل بارجاع الاشياء جميعا الى مستوى وحيد ـ مستوى الرجل الطيب القلب والمفتوح النفس في « الحرب والسلم » ، او مستوى الفلاح فيما بعد ، او ايضا مستوى الاخلاق المسيحية كما وردت في الاناجيل ، مجردة عن اي تعقيد لاهوتي او ميتافيزيائي . ان عبقرية تولستوي تقوم في قدرته على التصوير المحكم بصورة مذهلة لما لايمكن تصويره ، على الاثارة العجائبية تقريبا لفردية الفرد الكاملة التي لايمكن التعبير عنها ، وهو مايبعث في القارىء شعوراً

حاداً بأنه يشاهد الشيء نفسه ولا يقرأ وصفا له فقط . ولكن هذا الكاتب نفسه يعود فيبشر بمجلسة كبرى ، وخاصة في مرحلته الدينية الاخيرة بنقيض ذلك تماماً ، اي بضرورة رفض كل مايخضع لقياس شامل بسيط ، مقياس هو تارة مايحبه الفلاحون او لايحبونه ، وهو تارة اخرى الخير الذي ينادي الانجيل به .

هذا التناقض العنيف بين معطيات التجربة التي ماكان يستطيع تحرير نفسه منها والتي كان يعرف طوال حياته ، بصورة اكيدة ، انها وحدها تتحلى بصفة الواقعية ، وبين ايمانه الميتافيزيائي العميق بوجود جملة لابد لتلك المعطيات ان تنتسب اليها ، سواء بان عليها ذلك ام لا ، هذا النزاع بين المحاكمة الفريزية واليقين النظري – بين مواهبه وآرائه – يعكس النزاع الشائك بين واقع الحياة الاخلاقية باحساسها بالمسؤولية ، وبأفراحها واحزانها ، وبما ينتابها من مشاعر النقص والكمال – وهي جميعاً مشاعر وهمية على اية حال – وبين القوانين التي تسير العالم ، وهي قوانين موجودة وحقيقة بالرغم من جهلنا بالقسم الاعظم منها .



في المكتبة العربية

أعلام "المنجد"

بقلم منير العمادي

سألني سائل هل فيمن علمت من اسماء ملوك اليمن قبل الاسلام من اسمه شمير يوهارش ؟ ، قلت لا ، فان هـذا الاسم عبري « مثل يهواش ويهوارم » او يكاد يكون ، فأصر على انه ملك عربي يماني ، واصررت على خلافه الا بحجة ، فقال داحضة لا يأتيها الباطل ، قلت لا اجتهاد في مورد النص .

وتراهنا على ان من يقمر صاحبه يحتكم ، واتفقنا ، واتعدنا ، واقبل الي يحمل مجلداً ضخماً ، بسطه وأخذ يقلب صفحات وصفحات ووضع اصبعه على نهاية صفحة ، ودفع لي بالكتاب كمن يشرع بطاعنة قرن له عنيد .

فقرأت «شمير يوهارش» من ملوك اليمن ٢٧٤ — ٢٨١ عبدوثن عشتار ، لقب بملك (سبأ وذو زيدان) وملك عرب السهل والجبل .

اما الكتاب فهو (المنجد) المعجم المعروف ويلحق بـه في الادب والعلوم ، معجم لاعلام الشرق والغرب ، موضع بحثنا ، وانه لمن النوادر التي لاشك في انها سدت ثغرة في خزائن المكتبة العربية ، وقرأت المقدمة :

« ان صاحب المنجد اللغوي ، الاب لويس معلوف ، رحمه الله ، حدثته النفس مراراً ان يضع لمعجمه ملحقاً في الادب والعلوم ، لكن الظروف حالت دون ذلك فعرض علينا الفكرة فرحبنا بها .

اقبلنا على تحقيقها ، منذ سنة ١٩٣٠ ، وحولنا نخبة من العلماء والادباء ، من

نعتمد على رأيهم ونهتدي بنصائحهم ، وبين ايدينا من المصنفات الشرقية والغربية ، قديمها وحديثها ، ما يقرب المواد الينا . فأخذنا بالتأليف مستندين خاصة الى « دائرة المعارف الاسلامية » لكبار المستشرقين مع ترجمتها العربية (الى حرف الدال) و « معجم المطبوعات العربية والمعربة » ليوسف اليان سركيس و « مجاني الادب » للأب شيخو و « تاريخ التمدن الاسلامي » لجرجي زيدان و « تاريخ الآداب العربية » لبروكلمان (بالالمانية) و « تاريخ الآداب العربية المسيحية » لغراف (بالالمانية) والانسيكلوبيديات الغربية الكبرى ... » الخ الخ .

بيروت ٢ شباط ١٩٥٦

لأب فردينان توتل اليسوعي

ورجعت الى شمير يوهارش بل رجعت الى مالدي من المؤلفات عن تاريخ العرب قبل الاسلام ، وأريت صاحبي ان حجته الداحضة خاطئة ، والاسم ليس عربياً ، وهو مترجم خطأ ومسخاً ، عن (شمر يرعش) اول ملوك الطبقة الثانية من ملوك حمير كما سيمر بك فيما تطالع ، فقنصت صاحبي وقمرته ، وفزت بغنم هو هذا الكتاب ، ولقد صاحبته « الكتاب » ساعات طوالاً ولقيت في صحبته نصباً ، ورأيت عجباً ، واصارتني لتصحيح الكثير من المغالط فيه .

ولا ادعي بأني استوفيت التام في التصحيح والتنبيه ، ولعلي في مطالعة ثانية ، اقع على ما يوجب التنبيه .

جاء في الصفحة الأولى عند ذكر آدم : أنه وحواء عصيا أوامر الله فطردا من جنة الفردوس ، ولكنهما وعدا بمخلص هو المسيح .

فهل أن الوعد لآدم يعتقد به أهل الكتب السماوية كافة ؟ لقد كان الأولى أن يقول ان المسيحيين يدينون بهذا الاعتقاد ذاك أن هذا الكتاب ليس خاصاً بفئة دون فئة من الناس .

وفي الصفحة ٣ يقول آلوسي زادة ، فكان ينبغي ان يذكر معنى كلمة « زادة » وهو آل ، أي آل الآلوسي .

وفي آخر الصفحة ٣ ، قال الانجاز ، والاصح ابزاخ ، وهم اقوى وأشد قبائل

الجركس شكيمة ومنعة ، وكلهم هاجروا الى المملكة العثمانية ولم يبق منهم احد استظل بحماية روسيا كما ورد في تعريفهم . واكثر الجركس المقيمين في البلاد العربية هم من الابزاخ .

وفي الصفحة ١١ اذرعات ، يقول انها اليوم درعاء الأردنية ، وهذا وهم وغلط ، فأسمها اليوم درعا ، وهي سورية لا اردنية .

وفي الصفحة ٢١ عند ذكر الاسلام يقول ان اركان الاسلام خمسة الصلاة والصوم والزكاة والحج والجهاد ، وهذا تحريف فظيع اذ ليس الجهاد من اركان الاسلام قط ، وقد اغفل او الغى الركن الهام في عقيدة الاسلام ، وهو شهادة التوحيد وهي الاقرار بوحدانية الله عز وجل ، وأما الجهاد فله ظروف واحوال خاصة لا علاقة له من قريب او بعيد بأركان الاسلام .

وفي ص ٢٤ عند ذكر الاصمعي يقول « وابي عمرو بن الاعلا » والصواب ان يقول بن العلاء .

وفي ص ١٧ عند ذكر اسامة بن زيد بن حارثة انه من مواليد محمد ، وهذا غلط فاحش ، فأسامة هو إبن زيد وزيد هذا مولى محمد استوهبه من زوجه خديجة واعتقه وتبناه وقد خيره محمد بين ان يبقى عنده او ان يذهب مع أبيه فاختار البقاء مع الرسول .

وفي ص ١٨ عند ذكر استير صاحبة السفر من كتب العهد العتيق ، كان يحسن ان يذكر اسمها الاصلي وهو « هداسة » بتشديد السين . وهو اسمها اليهودي واستير تنكرت به ، وهو فارسي . ومعنى هداسة بالعبري زهر الريحان ، واستير في الفارسية كوكب الزهرة ، استار عشتار احدى آلهة الكلدانيين .

وفي ص ٣٧ عند ذكر أمية بن عبد شمس يقول جد بني امية اعيان قريش في مكة ، والاولى ان يقول من اعيان قريش ذلك ان الاعيان في قريش عندة بيوت ، كبيت مخزوم وبيت هاشم وبيت امية و ... الخ .

وفي ص ٤٨ اورد اوليا جلبي بضم الالف وتسكين اللام وكسر الجيم التي افصحت ، والصواب ان تكتب اوليا بفتح الالف وتسكين اللام ثم كتابة الجيم بثلاث نقط مع فتحها وفتح اللام .

وفي ص ٥٤ من آثار الايوبيين الفنية صورة كتابة يقول كتابة كوفية فالخط ليس كوفياً بل هو الخط الثلث لعصر

الايوبيين ، وقاعدة **الخط الكوفي** تختلف كثيراً عن الثلث .

وفي ص ٦٣ ، مدينة في تركيا اسمها « **باليقصير** » غلط والصحيح باليكسر بالباء الموحدة النقطة والكاف ، لا بالباء المثلثة «P» النقاط والقاف والياء . ويبدو ان هذا العلم مترجم عن التركية المكتوبة بالحروف اللاتينية وتقيد المترجم بما رسم، لا بكيفية اللفظ .

والغريب ان يرد اسم هذه المدينة في ص ٨٤ ب بليكسير بتسكين الكاف « Balikesir » هكذا مدينة في تركيا شمالي ازمير وحقيقة لفظها ، بفتح الكاف وسكون السين .

وفي ص ٦٥ عند ذكر **بجيلة** قال جبال سراط غلط وصوابها جبال السراة بالقرب من الطائف في الحجاز .

وفي ص ٧٥ ذكر **البسوس** بضم الباء الموحدة والصواب بالفتح ، ويقول انها شاعرة جاهلية من بني تغلب . هذا وهم فليس في عرب الجاهلية شاعرة بهذا الاسم ، والبسوس خالة جساس بن مرة ، وفي رواية هي ناقة تدر على المبس بها أي الطائف بها ليحلبها ، كما جاء في لسان العرب ، وبها سميت الحرب بين تغلب وبكر حرب البسوس ودامت أربعين سنة .

وفي ص ٧٥ ، عند ذكر **بسيربني** ، ان البسارنة حي في حلب ، فليس في مدينة حلب حي بهذا الاسم ، بل فيها حي باسم البساتنة ولعل احد الاسمين محرف عن الآخر .

وفي ص ٧٧ عند ذكر **البطراء** صورة بناء ، يقول انه مسجد في بطراء وهذا غلط فالرسم وهو اثر قديم معروف بخزينة فرعون منحوت في الجبل من آثار البطراء . وقد نشر هذا الرسم في عدة مؤلفات منها تاريخ العرب قبل الاسلام للمرحوم جرجي زيدان ، وفي تاريخ العرب قبل الاسلام للدكتور جواد علي ، ويظهر ان الكاتب بمراجعة كتاب اعلام المنجد شاهد في الرسم محاريب فخيل اليه انه مسجد مع انه رسم بطابقين .

وفي ص ٨٥ يقول **بنجاب** بضم الباء الموحدة . ارض الأنهار الخمسة ، واذا اردنا التعريف الصحيح لها ، فينبغي ان يقال بنج آب ، بالباء ذات النقاط الثلاث . ومعنى بنج خمسة ومعنى آب ، ماء .

وفي ص ٨٧ عند ذكر **البهنا** يقول بحر يوسف والصواب بحر سوف .

وفي ص ٩٨ عند ذكر بيهس يقول

ابو الهيصم والصواب ابو الهيثم بالثاء المثلثة النقاط لا بالصاد .

وفي ص ٩٨ يقول تاج الدين الحسيني والصواب الحسني، نسبة للحسن لا للحسين .

وفي ص ١١١ عند ذكر تغلب انها من اعظم قبائل العرب يمنية الأصل - غلط - فأن تغلب عدنانية وموطنها ما يلي العراق في الشمال الشرقي لجزيرة العرب ، أي انها عدنانية لا قحطانية يمانية .

وفي ص ١١٢ وردت قرية التلبيسة ، والصواب تلبيسة من غير تعريف .

وفي ص ١١٤ يقول عن تنوخ انها قبيلة عربية مسيحية الأصل والصواب ان يقول دانت بالمسيحية ، لأن المسيحية ليست قومية .

وفي ص ١١٥ يقول توبة بن الحِمْيَر ، بكسر الحاء وتسكين الميم وفتح الياء والصواب الحُمَيِّر بضم الحاء المهملة وفتح الميم وتشديد الياء المكسورة على التصغير ، صاحب ليلى الأخيلية بفتح الهمزة وتسكين الخاء وفتح الياء وتشديد الياء الثانية ، لا كما اوردها الأخيَلية بفتح الخاء وتسكين الياء الاولى .

وفي ص ١٢٠ عند ذكر ثقيف وردت كلمة طائف ، والصواب الصحيح الطائف معرفة .

وفي ص ١٢٠ و ١٢١ عند ذكر ثورة ، يذكر ثورات تافهة جداً لا شأن لها مثل ثورة المرتزقة التي اخمدها كراسوس ٧٣ ق م ، وثورة المنيطرة التي ثار فيها اللبنانيون في كسروان على ولاة العباسيين ٧٥٩ وثورة الفلاحين في لبنان بزعامة طانيوس شاهين ضد المشايخ اصحاب الأملاك ١٨٥٤ ويذكر ثورة عرابي باشا في مصر على السلطنة العثمانية ١٨٨١ وشعارها مصر للمصريين لا على الانكليز ثم يقول وانتصر الانكليز على عرابي باشا في تل الكبير ١٨٨٢ ولم يذكر شيئاً من الثورات التي قامت في سورية وفي العراق وفي فلسطين في وجوه الانكليز والفرنسيين بشيء وكان اولى له لو انه أشار او شرح سبب الاقتصار .

وفي ص ١٢٣ يذكر سعد الله الجابري لم يذكر توليه رئاسة مجلس النواب ولا رئاسة مجلس الوزراء ، كما يذكر غيره بل اكتفى بالقول انه شخصية سياسية في سورية .

وفي ص ١٣١ عند ذكر جبلة بن الايهم آخر ملوك غسان ذكر اسلامه ولم يذكر انه ارتد بعد اسلامه وذهب الى بيزنطية مع نفر من اهله وعشيرته .

وفي ص ١٣١ عند ذكر جبلة يقول

مدفون فيها **ابراهيم بن الادهم** والصواب ابن ادهم بغير تعريف .

وفي ص ١٣٩ يقول الجلاح من غير تشديد اللام والصواب بضم الجيم وتشديد اللام، وهو اجيحة بن الجلاح الشاعر

وفي ص ١٣٩ **عند ذكر جلال الدين الرومي** مؤسس الطريقة المولوية انه الف كتـــاب المثوى والصواب **المثنوي** ، ولا حاجة بنا لمناقشه الآراء والمعتقدات الصوفية التي نسبها الكتاب للرومي

وفي ص ١٤٨ عند ذكر الحارث يقول عنه زعيم العرب وملك سورية نحو ١٧٠ قم والصواب انـه ملك دولة الأنباط وعاصمتها البطراء وافتتح سورية

وفي ص ١٤٩ يذكر **الحاقة** سورة من سور القرآن من غير تشديد القاف والصواب بتشديدها

وفي ص ١٥٣ عند ذكر **حجر** اوردها بفتح الحاء والصواب بضمها ، الكندي الملقب بآكل المرار ، والمشهور بمـا بين ايدينا من المصادر انـه لقب بذلك لغير تشويه في وجهه

وفي ص ١٥٤ ذكر اسم **حذام** بكسر الحاء علم لأمرأة في الجاهلية ، والصواب حذام بفتح الحاء و كسر الميم ، وهي معدولة عن حاذمة ، كما في اللسان

وفي ص ١٦٠ عند ذكر **حسين باشا دلي** ترجم كلمـة دلي بالجسور والصواب المجنون ، وفي اللغـة التركية يذكرون الصفة دائماً قبل الموصوف مثل دلي حسين باشا و كوجوك حسين باشا ... الخ

ولقد كان يحسن ان يورد هذه الحقيقة دفعاً للالتباس في فهم الكثير من الأعلام التركية الموزعة في هذا الكتاب

وفي ص ١٦٢ يقول **حفني ناصيف** والصواب ناصف

وفي ص ١٦٧ يقول **حموند** بفتح الاحرف الثلاثة وتسكين النون والصواب هماوند قبيلة كردية

وبين الصفحتين ٣٤٤ و ٣٤٥ خارطة لجزيرة العرب يذكر في اليمن منـازل **قبيلة حمدان** وهو غلط فأسم القبيلة همدان بالهاء لا بالحاء .

وهنا يتضح لنا بجلاء انها مترجمة عن بعض اللغات الاوروبية

وفي ص ١٦٨ **عند ذكر محمد الحنيفي الحلبي** يقول تعلم في حلب وفي الازهر الدروس التركية ، وما نعلم ان في الازهر يعلمون التركية ؟ ولا الحنيفي كان يعلم التركيـة .

وفي ص ١٧٣ عند ذكر **قبيلة خثعم** ان صنمهم ذو الخلاصة والصواب انه ذو

الخلصة بفتح الخاء واللام . وزعيمهم انتصر على بني عامر بن سعسعة وهذا غلط ايضاً والصواب عامر بن صعصعة ، بالصاد لا بالسين -الخطأ بالترجمة-

وفي ص ١٧٦ يذكر **خرقاي شريف**، والصواب خرقه شريف، وفوق الهاء المربوطة همزة ويلفظها الاتراك خرقئي شريف ، اي البردة الشريفة

وفي ص ١٨١ **خميس الدعسة** يقول انه عيد يحتفل المسلمون به ، في بعض المناطق وهو خطأ فاحش ، فليس خميس المشايخ عيداً بل تقليد تافه مقتصر على حمص ، وقد بطل

وص١٨٣ عند ذكر فارس الخوري يقول انه من رجال الحزب الوطني ، والصواب من رجال الكتلة الوطنية ويقول انه اشتغل مع عبد الرحمن **الشابندر** -كذا ، وهذا غلط فانه كما نعلم لم يشتغل مع الشهبندر وترأس رئاسة الحكومة السورية ، هذا صحيح ولكنه لم يذكر ترؤسه مجلس النواب مراراً ولا رئاسة مجلس الامن في الامم المتحدة والغريب انه في ص ٢٨٤ يقول عبد الرحمن شاهبندر على الصحة .

وفي ص ١٨٣ يقول عن بلدة في ايران **خوى** بكسر الخاء والصواب ان يقال خيوه .

وفي ص ١٨٦ يقول عن بلدة في نجد **الدارعية** ، والصواب الدرعية .

وفي ص ١٩٥ يقول **الدليم** بفتح الدال وكسر الياء والصواب بضم الدال وسكون الياء ، على تصغير الدلم ، والدليم قبيلة كبيرة معروفة في العراق وبها سميت البلدتان في العراق .

وفي ص ٢٠٢ عند ذكر آمد أو ديار بكر يقول عياض بن غنام خطأ والصواب بن غنم بضم الغين وسكون النون وينسبه للنهر فيقول النهري والصواب الفهري نسبة الى فهر .

وفي ص ٢٠٨ يقول صنم ذو الشراء والصواب ذو الشرى ومعبده في صلع غلط والصواب **سلع** بفتح السين وتسكين اللام موضع بقرب المدينة .

وفي ص ٢١٠ يقول رأس البشنك غلط والصواب البشنك فقط وهو الدابة التي تسير في مقدمة الركب والقافلة وفي رقبتها جرس كبير ، ولا حاجة لذكر الرأس .

وفي ص ٢١٥ عند ذكر رسالة الغفران ، يقول طبعت باهتمام ومراقبة الشيخ ابراهيم

اليازجي واحد علماء الازهر ١٩٠٧ فقط والاولى ان يذكر الطبعات التي جاءت بعدها كطبعة كامل كيلاني ، ثم طبعة بتحقيق واسع للدكتورة بنت الشاطي... الخ

وفي ص ٢١٧ **يقول عن ابن الرشيد انه من زعماء الوهابية** ، وهذا غلط فأبن الرشيد لم يكن من الوهابيين وهو شمري من شمر العبدة لا العبدي وهو عدو آل سعود العنزيين .

وفي ص ٢٣٤ يقول عن احدى سور القرآن سورة الزمر بضم الزاي وفتح الميم والصواب بضم الزاي وضم الميم .

وفي ص ٢٤٠ بذكر زينب « بنت النبي البكر . تزوجها ابن عمها ابو العاصي ، اما زوجها فهو ابو العاص وهو ابن خالتها لا ابن عمها .

وفي صفحة ٢٤٠ زينب بنت جهش غلط ، الصواب جحش ثم يقول احدى زوجات النبي كان قد زفها الى زيد بن حارثة فطلقها .

وقصة هذا الزواج هي ان زيد بن حارثة — وهو الذي اعتقه النبي محمد وتبناه كما سبق ذكره في مؤتنف التصحيح ـ طلق زوجه زينب ثم بعد انقضاء عدتها تزوجها النبي « صلعم » وذلك لكي يعلم ان المتبنى «اي الابن بالبنوة» ، ليس كالابن المولود من زوج الرجل ، فيجوز الزواج من مطلقته « لكي لا يكون على المؤمنين حرج في ازواج ادعيائهم » الآية ٣٦ من سورة الاحزاب .

وفي ص ٢٥٠ عند ذكر السدير قصر في الحيرة سمي بذلك لكثرة شجره ونخله ، وهذا وهم وغلط فالسدير كلمة معدولة عن كلمتين فارسيتين سه ومعناها ثلاثة ودر بفتح الدال ومعناها باب ، اي القصر ذو الثلاثة الابواب ، هذه هي حقيقة قصر السدير التاريخية .

وفي ص ٢٥٥ يقول سفارية نهر في الاناضول « بالفاء الموحدة وبتشديد الياء » والصواب سقاريا بالقاف المثناة وبغير تشديد الياء .

وفي ص ٢٥٦ عند ذكر السقاف ، قال من مؤلفاته « قمع الشهوة عن تناول التباك والكفته والقاف والقهوة » غلط والصواب عن تناول ... الكيفة لا الكفتة والقات لا القاف « والكيفة هي الحشيشة والقات نبات مخدر يتعاطاه اليمانيون بالمضغ ويشربون معه الماء .

وفي ص ٢٥٨ عند ذكر سلانيكي من مؤلفاته « **تاريخي سلانيكي مصطفى افندي** » وهو خطأ فادح بالترجمة ، والصواب « تاريخ سلانيك » وفي التركية

يلفظون دائماً المضاف مكسورة وتكتب بغيرياء ولكن المترجم لما ترجمها عن التركية المكتوبة بالحروف اللاتينية اوردها على حرفيتها لا كما ينبغي ان تلفظ.

وفي ص ٢٦٤ عند ذكر سمية انها والدة **عمار بن يسار**، غلط، والصواب **عمار بن ياسر**.

وفي ص ٢٨٣ في ذكر الشام يقول قنصرين بالصاد غلط والصواب قنسرين بالسين، ثم يقول الشغور، غلط والصواب الثغور بالثاء.

وفي ص ٢٨٦ يقول شجر الدر عن زوج الملك الصالح ايوب، والصحيح ان اسمها شجرة الدر.

وفي ص ٢٨٩ عند ذكر شعيب انه نبي جاء ذكره في القرآن، لقد كان ينبغي ان يقول كذلك انه حمو موسى المذكور بالتوراة باسم يوآب.

وفي ص ٢٨٩ يذكر شفا عمر بضم العين وفتح الميم، والصواب عمر بفتح العين وسكون الميم بلدة في الجليل الاعلى بفلسطين.

وجاء في ص ٢٩١ ذكر شمس الدولة حاكم حمدان غلط والصواب حاكم همدان بفتح الهاء والميم.

وفي ص ٢٩٢ **يذكر شمر** وان بينهم وبين العنزي عداوة قديمة، العنزي غلط، وصوابها عنزة بفتح العين والنون والزاي وبدون تعريف.

وفي ص ٢٩٢ يذكر **شمير يوهارش** من ملوك اليمن، وعند ذكر هذا الاسم رأيتني لا أستطيع ان املك نفسي عن التعجب الشديد باستهتار القائمين بتأليف هذه المعلمة، وبأعمالهم الذي يبدو انه مقصود ومتعمد.

شمير يوهارش، لقد ترجمت حتماً عن كتب فرنجية، فيا رعاك الله ايها المترجم ألا رجعت لبعض المؤلفات العربية القديم منها والحديث؟ فتتبين منها دول اليمن التي يرجع عهد بعضها الى الألف الثالث قبل الميلاد، وبعضها، وهي آخر الدول اليمانية يرجع عهدها الى سنة ٥٢٥ بعد الميلاد

فاسم شمير يوهارش الذي حاول بعض الطالعين ان يقنعني بأنه اسرائيلي فقلت له أنه ترجمة محرفة عن شمر يرعش، وهو اول ملوك الطبقة الثانية من ملوك حمير، ملوك سبأ وذي ريدان وحضرموت ملك من عام ٣٧٥ الى ٣٠٠ ب م.

ولو ان المترجم الذي يعتمد على المدونات الفرنجية ـ ولا اشك في فائدتها وفضلها ـ

رجع الى المؤلفات العربية ، كالأكليل للهمداني ، والعرب قبل الاسلام لجرجي زيدان ، وتاريخ العرب قبل الاسلام للدكتور جوادعلي ، الذي يعد موسوعة في هذا الباب ، لكفى نفسه بالاطلاع على حقائق كثيرة.

وجاء في ص ٢٩٣ شناق قلعة ، خطأ وصوابها جناق قلعة ، بالجيم ذات الثلاث نقاط . ومعناها الصحن.

وفي ص ٢٩٣ يذكر الشهداء بهذا النص – هم في لبنان الوطنيون الذين اعدمهم جمال باشا او سبب موتهم لسعيهم في سبيل استقلال لبنان وتحرير العرب من نير العثمانيين ، اعدم قسمهم الاكبر في دمشق « ساحة المرجة » او في بيروت بساحة الشهداء المعروفة قبلا بساحة البرج يحتفل اللبنانيون بذكراهم عيداً وطنياً في ٦ أيار.

ولم يذكر احداً ممن اعدموا في سبيل التحرر من نير العثمانيين غير اللبنانيين ثم هل كان الذين اعدموا يعرفون يومذاك باللبنانيين ، كما ورد في هذا النص ؟ لقد الف العرب الجمعيات والاحزاب لتحرير العرب من العثمانيين الاتراك . هذا كان الواقع حينذاك على مايعلم العرب .

وفي ص ٢٩٥ جاء بتعريف الشوايا ، « اسم يطلق في بلاد الفرات على البدو الذين سكنوا المدن وتحضروا من عهد قريب » هذا التعريف خطأ ، والصواب ان تسميتهم بالشوايا اشتق من الشاة ، أي اهل الشاة ، تمييزاً لهم عن اهل الأبل أو اهل النجعة الذين هم في حل دائماً وترحال . اما الشوايا فهم في القرى ، وعلى الأصح في الزور ، متوطنون ، ويشرقون ، « بتشديد الراء وكسرها » باغنامهم في اوائل الشتاء الى البوادي واخصها بادية الحماد في سبيل المرعى .

وفي ص ٣٠١ يقول عن احدى سور القرآن سورة الصاد ، خطأ والصواب سورة صاد « ص » بدون تعريف .

وفي ص ٣٠٢ عند ذكر صالح بن علي العباسي ، يقول مروان بن الحكم آخر خلفاء بني امية ، خطأ ، والصواب ان اسمه مروان بن محمد الجعفي الملقب بمروان الحمار لشدة صبره وتحمله ، ومروان بن الحكم هو جد جد جده .

محاضرات في احمد امين

تأليف الدكتور زكي المحاسني

عرض وتحليل عدنان بن ذريل

السيرة الشخصية ، والفنية ، لأديب ، أو عالم او مصلح ، معاصر ، او قديم ، فن صعب ، وشاق ، يحتاج الى احاطة ودقة ، حاجته الى الامانة ، والنزاهة ؛ وهي حين تستوفي معالمها ، وأدواتها ، في العرض ، والتحليل ، والتفنيد ، تصبح لبنة من لبنات التاريخ ، والمجتمع ، والحضارة ، او خيطاً من نسيج الفكر ، والادب والريادة التي نافح عنها صاحب السيرة .. ومن هنا فائدتها الجمة على الفكر ، والادب ؛ اذ هي بمثابة دفعة استبطانية ، كشافة الى الامام ، تحمل في تضاعيفها هموم التجربة السالفة ، في تحققها ، ومحاولاتها ، وآمال الحاضر ، والمستقبل ، في تطورها ، وتجددها المستمرين . .

ولامراء في ان محاضرات الاستاذ ، الاديب الدكتور زكي المحاسني ، عن ـ احمد امين ـ الاديب ، والمفكر ، والعالم ، والمؤرخ العربي المعروف ، في (معهد الدراسات العربيةالعالية) التابع لجامعة الدول العربية .. تعتبر سجلاً علمياً وفنيا ، دقيقا ، وأمينا لجهاد علم من اعلام النهضة المعاصرة ؛ والحديثة ، وكشافا صادقا ، وطيداً عن حيوات العصر ، في الفكر ، والادب ، والاصلاح . .

وقد زاد في قيمة المحاضرات ، ان المؤلف الدكتور زكي المحاسني ، صديق لصاحب السيرة ، وزميل له ، عرفه عن قرب في الجامعة العربية ، والجامعة المصرية ، فكانت بينهما صداقة ، ومودة وقد زامله على الخصوص في اللجنة الثقافية التي أنشأتها جامعة الدول العربية ، لانشاء معهد الدراسات العربية العليا ، الذي ألقيت فيه المحاضرات .. وقد افاد الدكتور زكي المحاسني الفكر ، والقلم من صداقته له ، او معرفته به ، فاستطاع ان يترك لنا وصفا له ، وخلاله كما عرفه ، او شاهده ...

يقول الدكتور زكي المحاسني في وصف (احمد امين) : ـ .. كان (احمد امين)طويل القامة عريض المنكبين حزين الملامح قمحي اللون نظارته السميكة على عينيه دائما ، وطربوشه على رأسه ، والابتسامة الخفيفة التي لم تخرج مرةمن اعماقه ، لاتفارقه على وقاره وجده في المظهر والحديث وتجافيه عن التكلف ، والنكتة المصرية تجيء في حينها على لسانه عميقة الصدى ، خفيفة الروح . ـ المحاضرات ، ص ١٢ ـ ١٣ .

او يقول في صوته : ـ وفي عصرنا ،يضاف الى التمثيل ، والتخيل السماع من المذياع ،فصوت (احمد امين) كان يصل الى قارئيه من بعيد تهدجا ذا استطالات في جمل متتابعة بنفسواحد،

وعلى وتيرة قرائية غير متبدلة ، وفي لفظه ، ونطقه مايشبه اللثغة . – المحاضرات ، ص ١٢ .

وقد سرد الدكتور زكي المحاسني قصة حياة احمد امين ، وجهاده للعلم ، والتعليم ، والتأليف بناء على مصادر مختلفة اهمها كتاب (حياتي) لاحمد امين ، او مقدمات كتبه ، اومقالاته المختلفة في (فيض الخاطر) ، او الرسالة ، والثقافة ، وغيرها ، او ماقيل في تأبينه ، او درسه . . فعرض سيرته ، ولادته في اسرة متوسطة تعيش على الكفاف ، وتعلمه في الكتاب ثم في الازهر ثم في مدرسة القضاء الشرعي ، وتدريسه خارج القاهرة ، ثم في الجامعة المصرية ، ورئاسته للجنة التأليف ، والترجمة والنشر ، ثم انتخابه في مجمعي دمشق والقاهرة ؛ وبذلك يبسط لك الوقائع ، ويحللها ، وينقدها ، وينقدها ، ومع ذلك يعلق الدكتور زكي المحاسني ، على خلق احمد امين ، وأدبه ، في معرض تعليقه على كتابه (حياتي) فيقول :

— وفي ادبنا الحديث كانت (ايام) طه حسين من اصدق الآثار الذاتية ، التي عبرت باخلاص عن نشأته ، وحياته الاولى ومذكرات محمد كرد علي ، وان كانت مضطربة في سردها لكنه لم يلتزم فيها التجرد او انه كتب صورحياته ومجتمعه بأعصابه ، وفورات نفسه .. اما (احمد امين) فقد رأيت صورته في كتابه (حياتي) ، كما رأيته في العيان ، والممارسة ، ولم اجد الشخص الذي في الوجود مخالفاً الشخص الذي صور نفسه على الورق ، بل لمست فيه تواضع العلماء ، والبعد عن التبجح ، والغرور ، ولم يضف الى نفسه صفحة لم تكن فيه ، جيدة او مكروهة ... — المحاضرات ، ص ١٦ .

ومن اللفتات الموفقة التي سجلها الدكتور زكي المحاسني على حياة العصر ، والادب ، والفكر ، المحاولات التجديدية ، في المنهجية العلمية الحديثة في الادب ، والنقد ؛ فيقول : – ونجد ضالتنا عند (احمد امين) حين يروي لنا كيف كان تدريس الادب العربي ايامه سائراً على طريقة الاوائل في ايراد طرائفه كما اوردها صاحب (العقد الفريد) او صاحب (الاغاني) .. أما دراسة الادب العربي حسب العصور ، وترجمة الادباء والشعراء في كل عصر على حدة ، وميزة كل اديب وشاعر وخصائصه ، فأن اول من ادخل هذا المنهج في دراسة الادب العربي في مصر هو الاستاذ (حسن توفيق العدل) الذي درس الادب في المانية فأدخل هذه الخطة في دراسة الادب العربي حين عهد اليه بالتدريس استاذاً في دار العلوم فاقتبس من العلماء الالمان ، دراساتهم المنهجية لتاريخ آدابهم ، ثم كان الشيخ (محمد المهدي) تبعاً لطريقته ، وعن المهدي تلقى (احمد امين) هذه الطريقة في دراسة الادب العربي . – المحاضرات ، ص ٣٤ .. في حين سابقة الدكتور طه حسين في المنهجية في دراسة الادب ، ترجع الى عام ١٩٢٧ في مقدمة كتابه (في الادب الجاهلي) .

ومنها اشارته الى تأليف كتابه (النقد الادبي) في جزئين ؛ من ان الجامعة طلبت منه تدريس مادة البلاغة فيها عام ١٩٢٦ ، فلم تعجبه كتب النقد العربية القديمة ، ولا كتب البلاغة ، وانكب على النظريات الغربية ، يتدارسها ، ويعرفها .. ألا أنه لم ينشر كتابه الا عام ١٩٥٢ ؛ وسبقه الى موضوعه مؤلفون عديدون ، منهم (احمد الشايب) في اصول النقد الادبي . و (غنيمي هلال) في المدخل الى النقد الادبي ، و (شوقي ضيف) في النقد الادبي ، وغيرهم ..

وقد شارك (احمد أمين) في التأليف في الادب ، والنقد والتاريخ، والمجتمع ، والاخلاق؛ كما شارك في تحقيق النصوص ، أو تدبيج المقالات المختلفة الادبية ، والاجتماعية ، والسياسية ؛ وقد توفر على الخصوص على الحياة العقلية في الاسلام؛ وكان من ثمرات توفره ، فجر الاسلام ، في جزء ، وضحى الاسلام في ثلاثة اجزاء ، وظهر الاسلام في اربعة اجزاء ، ويوم الاسلام في جزء..

وقد ساق الدكتور زكي المحاسني العلم المعروض في هذه المؤلفات القيمة ، التي كانت لهـا اليد الطولى في تثقيف الجيل ، وتنويره ، فعرض أهم موضوعاتها بدقة ، وبراعة ، وتحليل ، مثل اثر الفرس في العرب ، والخوارج واثرهم في الحياة العقلية الاسلامية ، والمعتزلة ، والشعوبية ، وادبهم والشيعة ، والمرجئة .. ثم قضية العروبة اليوم ، وقضية فلسطين ، او حاضر الاسلام ايضاً .. كما حدثنا بدقة وتفصيل عن كتاب هام من كتب (احمد امين) وهو : ـ زعماء الاصلاح في العصر الحديث ـ ١٩٤٨ ، وتحدث فيه عن محمد بن عبد الوهاب ، والشيخ محمد عبده ، واحمد خان ، والسيد امير علي ، وخير الدين التونسي ، وعلي مبارك ، وعبد الله النديم ، وعبد الرحمن الكواكبي ..

ومن الابحاث القيمة في المحاضرات ، بحث ـ العالم الاديب ـ ص ١٦٠ — ١٧٣ ؛ اظهر فيه أدب (احمد امين) وعلمه ، وكيف انه لم يحفل بزخرف الالفاظ ، وبهرج الاسلوب، وانما عني بالفكرة، والموضوع يراجع ايضا ص ٥١ ـ ٥٥ وانه كان رصيناً ، حصيناً في قلمه ، يجمع بين الوعي الادبي ، والروح العلمية ، النابهة .. كل ذلك حق ، وبهي ، وجليل ؛ الا انني لاحظت في ابحاث المؤلف الدكتور المحاسني يقرر انه لم يكن لاحمد امين اسلوب بياني يتسم به قلمه ، كما اتسمت بالاساليب البيانية ، اقلام طائفة من الكتاب والادباء ص ١٧١ ؛ في حين اننا يمكننا تمييز اسلوب احمد امين ، بما يمكن نعته بالواقعية ، والرصانة ؛ فهو اسلوب رصين ، مفيد يمزج العلم بالادب ، ويتحاشى الخيال ، او زخرف اللفظ .، وهو ما أشار ليه المؤلف الدكتور في حديثه عن كتابه ، وادائه ، دون تخصيص ، او تمييز اسلوبي ..

وبالفعل اكتفى الدكتور المحاسني بهذه الدرسات ، والتحليلات ولم يفرد ، مثلا ، لكتاب (فيض الخاطر) بأجزائه التسعة دراسة مفصلة يضيق المقام ؛ وهو لعمري اهل لكل دراسة ، بكل ما حوى من افكار نيرة ، وصائبة في الادب ، والمجتمع ، والاصلاح ، وما عكس من اسلوب رصين ، معبر ؛ انه صورة حية ، وراقية من من صور جهاد أدبنا العربي الحديث ، في فن المقالة ، على اختلاف انواعهـا .. وكذلك يحدثنا الدكتور المحاسني في كتاب (الى ولدي) وهو يعكس روحاً انسانية كبيرة ، واسلوباً رصيناً ، سلساً .. او كتاب (الشرق والغرب) وفيه نظرات صائبة ، قيمة في مجتمعنا ، وحضارتنا ، معروضة باسلوب دقيق ، جذاب ..

هذه الملاحظات العابرة لاتقدح قط في قيمة هذا المؤلف العلمي ، والفني ، الدقيق ، عن احمد امين ؛ فتحية للمؤلف الأديب الدكتور زكي المحاسني على أريحيته ، وادبه ، فيه ؛ وشكراً لمعهد الدراسات العربية العالية ، بجامعة الدول العربية ، لعنايتها بجهود نهضتنا المعاصرة ، والحديثة . وأعلامها الغرة الميامين .

وزارة الثقافة والارشاد القومي

تعلن عن

مسابقتين للمسرحية النثرية والشعرية

تعلن وزارة الثقافة والارشاد القومي عن اجراء مسابقتين لتأليف مسرحية نثرية واخرى شعرية وفق الشروط التالية :

١ — يكون موضوع المسرحية النثرية اجتماعياً ، أما المسرحية الشعرية فيستوحى موضوعها من تاريخ العرب وأدبهم .

٢ — لاتزيد كل مسرحية عن أربعة فصول ولا يستغرق تمثيلها اكثر من ثلاث ساعات .

٣ — يشترط ان تكون المسرحية بالعربية الفصحى والاتكون مترجمة أو مقتبسة عن أي منثور عربي أو أجنبي .

٤ — ترسل المسرحيات الى الوزارة .. مديرية التأليف والترجمة ، حتى غاية ٢٦ / ١٢ / ٦٣ ضمن غلاف مسجل . مرفقة بغلف مغلق يذكر فيه اسم المؤلف وعنوانه وعنوان المسرحية والرمز الموضوع على غلافها .

٥ — يحق للوزارة طبع المسرحيات الفائزة وتمثيلها لمدة خمس سنوات ابتداء من تاريخ اعلان فوزها ويدفع لاصحابها عند طبعها بالاضافة الى الجائزة . اجور التأليف وفق القواعد المتبعة .

٦ — الجائزة الاولى للمسرحية النثرية ١٥٠٠ لس والثانية ١٠٠٠ لس .

٧ — الجائزة الاولى للمسرحية الشعرية ٢٠٠٠ لس والثانية ١٥٠٠ لس .

٨ — يسمي وزير الثقافة والارشاد القومي لجنة لدراسة المسرحيات وتكون قراراتها مبرمة بعد مصادقة الوزير عليها .

وزير الثقافة والارشاد القومي

القصة العربية عرض وتحليل

ربيع في الرماد

مجموعة قصص لـ زكريا تامر
منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي
دراسة بقلم: الدكتور ابراهيم كيلاني

عنيت القصة السورية بمجموعة جديدة نشرتها وزارة الثقافة والارشاد القومي هي: «ربيع في الرماد» للأستاذ زكريا تامر.

وزكريا تامر هذا أديب موهوب، عصامي بكل ما تحويه هذه الصفة من معاني الجهد والدأب والحرمان والتكوين الارادي والتطلع الى التكامل الذاتي. نشأ في بيئة شعبية فقيرة فذاق من جراء ذلك مرارة العوز والفاقة، وعمل حداداً، وهي مهنة قاسية تقوي القلب، وتشحذ الارادة، وتنمي في صاحبها الميل الى الايغال والصرامة والثبات في مغالبة الدهر، فكان لهذه المهنة اثر في خلق حاجة التعويض عن الفقر والجوع وضآلة المنزلة التي وجد فيها، بالدرس والمطالعة والتثقيف الذاتي تحقيقاً للجمع بين شعور بموهبة هي في حالة الكمون ونزعة الى اكتساب المعرفة، فقرأ ما وقع في يده من نتاج فكري عربي، وآخر عالمي مترجم، فاتسعت نظرته الى الناس والاشياء، وعظمت تجاربه الحياتية والذهنية، وعمق احساسه بالبيئة التي عاش فيها فنتج من ذلك كله رصيد أفادمنه في تكوين ادبه وبناء فنه القصصي، وهو اليوم في طليعة كتاب القصة السوريين المعترف لهم بالتفرد والاجادة والاصالة.

أقول هذا لان العمل الادبي، اي عمل أدبي، هو أثر مصنوع من خلال مزاج صاحبه، اديباً كان او فناناً، ومهما حاول صاحب الاثر الاختفاء او التمويه او التجرد فهو لا بد ان يبوح بمكنون نفسه، ويكشف مطاوي وجدانه الشعوري او اللاشعوري اذ يستحيل عليه ان يتجرد من ذاته، تلك هي حقيقة مسلم بها، واذا ما امعنا النظر في آثار زكريا تامر القصصية اي بمجموعتيه «صهيل الجواد الابيض» و«ربيع في الرماد» تراءت لنا من خلالها

موروثات المؤلف ونوازعه الخلقية والنفسية ، وتصوراته الذهنية ، وأمكن رد الموضوعات التي نسج منها قصصه الى افكار رئيسية انطلق منها بطل القصة الثائر على نفسه ومحيطه ، المفتقر الى الرغيف : رمز الفوارق الطبقية والظلم الاجتماعي والى المرأة التي تجرر وراءها مواكب اللذة البراقة والمتعة الجسدية ، النزاع الى السعادة في مختلف صورها الحقيقية والوهمية وايحاءاتها الحسية والنفسية التي تتجمع في مال هو عصب الحياة ، وجاه يرفع صاحبه فوق بيئته ، واستمتاع بالطبيعة الحنون ملجأ المحزونين والمظلومين والهاربين من لظى المتاعب الدنيوية ، يجري هذا كله عبر الموانع والمعاكسات والمثبطات المنتصبة دوماً في وجه بطل القصة والتي تكون فصول المأساة التي يعيشها الانسان العربي ، تلك المأساة التي تتوالى لوحاتها التي رسمها زكريا تامر ، في بيئة قاسية تحميها من التبدل تقاليد وأوهام تحول دون تفتح البطل وانسيابه عبر حياة سوية ، وتحرسها اوضاع تاريخية وحضارية تتأرجح بين جمود عقلي مخيف خلفته عصور الظلام وانفتاح ذهني على العالم هو وليد حضارة القرن العشرين الجارفة بوجهيها : المتألق الجميل ، والمظلم القبيح

كنت اود الاسترسال بعض الشيء في الكلام عن مجموعة « صهيل الجواد الابيض » وهي المجموعة الاولى التي نشرها زكريا تامر سنة ١٩٦٠ والتزم فيها صيغة المتكلم لكي نفهم جوه القصصي ، ففيها تركزت مفاهيم الفن القصصي عنده ، وفيها وضحت الافكار الكبرى التي انطلق منها في عمله القصصي ، وفيها حدد موقفه الوجودي ، وفيها عالج قضايا عصره وصراع الانسان العربي مع الحضارة الجديدة واصطلاحاتها وازماتها الاخلاقية ومشاكلها المادية والروحية الناتجة عن حاجات ورغبات خلقتها هذه الحضارة وخلقت معها في الوقت ذاته موانع تحول دون اشباعها مما دعا الانسان العربي الى الاعتصام بصوفية طوباوية فيها معاني اليأس والاشمئزاز والارتداد الى الطبيعة والبعد عن مدنية ماثلة في قصص زكريا تامر في البنايات الحديثة التي يكثر ذكرها عنده ، وفي المعامل والسيارات ، والنساء الجميلات ذوات الشعر الأسود المسترسل على الاكتاف ، والاثاث المترف واللهو الصاخب الداعي الى الفناء والضياع . ألم يقل البطل في اقصوصة صهيل الجواد الابيض : « أنا لست سوى مخلوق ما ضائع في زحام مدينة كبيرة قديمة .. لست دون جوان ..

لا أملك سيارة ولا بناية شامخة في شارع يسكنه الفقراء .. جبهتي لم تلمس مرة واحدة سجادة مسجد .. لست بطل ملاكمة او مصارعة ، صورتي لا يعرفها قراء الصحف والمجلات .. اشتغل في اليوم ثماني ساعات.. اتعب .. ابتلع الطعام بسرعة عجيبة.. ادخن سجائر طائلي سرت غليظة اجلس في مقهى ، اشترك في مناقشات عقيمة .. اقامر بمبالغ ضئيلة ، اضحك ببلاهة ... اغازل فتيات .... اروي بحزن حكاية حي ذات الختام الحزين . » .

وفي هذه المجموعة صور زكريا تامر مأساة المثقف العربي وحيرته والفراغ النفسي والعاطفي الذي يكابده ، كما صور جوعه الجنسي، ويأسه من محيط مستخف عما يجري حوله، وتململه وكآبته من القيود التي يرسف فيها والتي تقوده تارة الى الندبة واجترار نغمة الحرمان، وأخرى الى التمرد العلني او الغيظ المكبوت الذي ينطوي على الكفران ، باصطلاحات المجتمع وعدالته الاجتماعية والقيم الازلية التي تمسكت بها الانسانية طوال تاريخها المديد .

وفي مجموعة «صهيل الجواد الابيض» تركز اسلوب زكريا تامر في كتابة القصة وهو اسلوب قائم على المزج بين الرمزية السريالية والتجريدية ، ومن الواقعية العنيفة والخيالية الشعرية المجنحة ، وبين الكلاسيكية في دقتها وصرامتها وعنايتها بالمعنى والمبنى وبين الرومانتيكية المسترسلة وضبابيتها وشطحاتها .

وتتألف مجموعة « ربيع في الرماد » من احدى عشرة أقصوصة ضمها كتيب لطيف أنيق ، تتفاوت في الطول والقصر فمنها ما استغرق اثنتي عشرة صفحة صغيرة ومنها مالم يتجاوز صفحات ثلاثاً ، على أنها تؤلف بمجموعها كلاً هو في نظري امتداد لما جاء في مجموعة «صهيل الجواد الابيض» سواء من ناحية الافكار او الاسلوب والجو القصصيين، واذا كان لا بد من فارق بين المجموعتين اللتين تفصل بينهما ثلاث سنوات فيبدو في اختفاء طابع العنف والتحدي ، وفي التزام المؤلف قواعد الاحتشام التقليدية وابتعاده عن الصور الجنسية العنيفة والجمل الصارخة التي تصفع القارىء المتزمت .

تتميز الاقصوصة عند زكريا بالقصر الذي هو شرط أساسي في هذا النوع الادبي ، فهي شبيهة باللوحة الصغيرة التي تخرج من يد الفنان الماهر بعد ضربات معدودة مستوفية نصيبها من الخطوط والالوان والشيات ، حتى أنها لتغري القارىء الغر بقراءتها دفعة واحدة في حين

انها يجب ان تقرأ بتمهل وتؤدة فيها تذوق وتلمظ وترنم، فاذا كانت الرواية كما يقول الفرنسيون رجلا ذكراً فان الاقصوصة سيدة فيها صفات الانوثة واللطافة فهي بذلك جديرة بالرعاية والايناس والكياسة، وقد استطــــاع زكريا في هذه الاقاصيص المنمنمة أن يعرض علينا مقاطع من الحياة الانسانية من خلال الاشياء البسيطة بل التافهة حتى لتعدل كل اقصوصة عنده في شكلها المضغوط المكثف رواية بكاملها، ولا ريب في أن القصة والرواية وسيلتان تعبيريتان متساويتان في نظر الكاتب الاصيل يلجأ الى احداهما كلما رام توسيع موضوعه او تركيزه الى أبعد حدود التركيز. وعندئذ تبرز اهمية الايحاء والتشخيص واستحضار المرئيات وبعث المحسوسات في فن الاقصوصة التي ترص فيهـا الحوادث والكائنات والوقائع على ان لا يكون لهـا سوى منفذ واحد ومنظور واحـــد، فالاقصوصة تتجه عمودياً والرواية افقياً وهذا التركيز يقتضي يقظة الكاتب وانتباهه ويحتم عليه التقدم بحذر كيلا يتعــد القارىء عن نقطة الجذب والتشويق التي يستهلك فيهـا التأليف من تلقـــاء نفسه دون ان يترك شيئاً من الفضلات وهذا مايشعر به قارىء أقاصيص «ربيع في الرماد» فهو ابداً معلق الانفاس، مستوفز الاعصاب، شديد الميل الى متابعة التوسيع، متلهفاً لتكملة ما أشار اليه المؤلف معرضاً او مكنياً، او ما لمسه لمساً رفيقاً معتمداً بذلك على ذكاء القارىء وألمعيته. ولا ريب في ان القاعدة الكلاسيكية التي تفرض على الفنان التشذيب والاستغناء عن الزوائد والتزيينات والمحسنات انما يحققها القصاصون قبل سواهم. فهي قاعدتهم الجمالية المثلى، في حين أن الروائيين الذين يحرصون على قول كل شيء، والتقاط صور الحياة في تشعباتها المضللة، وتموجاتهـا السرابية ملزمون بالتمديد والتوسيع والتساؤل والتحري وبالتالي فهم محولون على الحشو والتضخيم، ولذا يتساءل قارىء «ربيع في الرماد» عما يمكن أن يكون مصير يوسف في اقصوصة «ثلج آخر الليل» كما يتساءل عن نتائج مقتل الجندي في اقصوصة «الباب القديم» فقد ظل باب الاقصوصة ايضاً مفتوحاً لانواع لاحصر لهـا من الوقائع والمغامرات، ولعـــل من دلائـــل الطرافة عند زكريا تامر مخالفته لما اصطلح عليه القصاصون والروائيون من ايصال القارىء الى نهاية حتمية، معقولة او غير معقولة يرضى عنها ويركن اليها مطمئناً،

فليس في اقاصيصه نهايات فهي ابداً خاضعة للاحتمالات، واعتقد ان قراءه يشعرون دوماً في نهاية الاقصوصة بشيء من الخيبة والمرارة لهذا البتر العنيف ، وقد ينسبه بعضهم الى قصر النفس وهو في الحقيقة مظهر من مظاهر البراعة في هذا الفن .

وهنـاك مزية اخرى في اقاصيص « ربيع في الرماد » هي اجادة الوصف فان القارىء يرى الاشياء بلمحة خاطفة ، اذ ليس لدى القصاص مجال للتحليـل والتشريح فهو يلم بالموصوف بكلمات معدودة أو جملة صغيرة ينعكس مفهومها في ذهن القارىء ومخيلته وما اكثر هذه الصور المبعثرة هناك وهناك ، كقوله في وصف رجل متعب وقد استعاض عن الكل بالجزء : « ان يدي يوسف مرتميتان بوجوم على ركبتيه كصديقين متعبين » . وهـذه الصورة المذبوح : « وجمع الرجل الجلاد قوته ، وضغط على المدية فاخترقت اللحم والعظم اللدن وفصلت الرأس الذي تدحرج مبتعدا عن قطعة اللحم الباقية ، وكانت قلباً و كتفين ، وظلت عينا سليمان الحلبي مفتوحتين تطل منها نظرة بلهاء ! » .

ويبـدو لي ان هنـاك نوعين من الاقاصيص : اقاصيص العمل واقاصيص الجواء ، او بعبـارة اوضح اقاصيص متحركة ، واقاصيص ثابتـة ففي الاولى يحاول القصاص أن يجذب القارىء الى خط سيره ويسلكه في نهجه ، ويشركه بعواطفه ، اما في الثانية فلا تتعدى مطامع القاص اطلاع القاريء على أجوائه الشاعرية واشراكه باحساسه ، فالنوع الاول حكاية ، والنوع الثاني تصوير ، ويدخل في النوع الاول عنصر مسرحي درامي سريع لا يخرج عن حدود مسرحية قصيرة ذات مشهد واحد ، تمر حوادثها بسرعة خاطفة تتوالى فيها العقدة والحل . اما اقصوصة الجواء فهي تحاول التأثير في القاريء بتقديم وصف دقيق للحظة والمكان والحادث. وعندي أن اقاصيص زكريا تامر من النوع الحركي فهو يعتمد على الحركة فتتوالى عنده المشاهد او اللوحات في جمل قصيرة ، وحركات سينمائية متتابعة يحاول فيها ان ينتزع اعجابك او موافقتك او سخطك ، يقودك بسرعة نحو النهاية الوهمية مخلفاً وراءه كثيراً من الدهشة والتساؤل. وسأكتفي ببعض الامثلة مما جاء في اقصوصة القرصان « وهجمت الخناجر وطعنت الرجل الشرير فصرخ متألماً ، وتدفق الدم من خمسة ثقوب » وقوله في اقصوصة الجريمة : « وأشار بيده بحركة ضجرة الى الشهود الثلاثة فتجمعوا في الحال

جدار العار

مجموعة قصص من تأليف : عبد الله الشيتي

عرض وتحليل : اسكندر لوقا

الاهداء الرقيق الذي خصني به الزميل القاص عبد الله الشيتي يجعلني مديناً له. ورغم أن « المجاملة » أصبحت في عصرنا هذا ظاهرة لا تغيب عن عين أحد ، إلا أن القضية عندما تتناول الفن ، فان تبادل المجاملات في رأيي يجب أن يأتي في الدرجة الاخيرة .

كان لا بد لي من أن أسوق هـذه السطور القليلة ليعلم الاديب الصديق أن المواقف الانسانية تختلف باختلاف ظروفها ، الفن لا يرتبط الا بالحقائق العظمى للحياة. إنه فوق المواقف الفردية النابعة من تبادل المصالح . وكلما كان بعيداً عن الاهواء جاء اكثر صفاء وصدقاً . ولهذا فان رأيي في مجموعة الصديق الشيتي لن تؤثر فيه معرفتي به ، ومدى علاقتي بانسانيته الشاملة التي خبرتها عن كثب .

إن مجموعة الزميل عبد الله الشيتي « جدار العار » مرتبطة الى حد بعيد بالحادثة . والحادثة لا مأخذ عليها من حيث المبدأ باعتبارها عنصراً اساسياً في القصة . إنها العمود الفقري الذي ينسج القاص حوله بناء قصته . ولكن معقولية الحادثة هي التي تجعل من الحادثة نفسها كياناً يستحق

متلاصقين في كتلة واحدة ، واتجهوا نحو الباب وما لبثوا أن غادروا الغرفة » وقوله في اقصوصة الوجه الاول : « واقبلت سيارة الاسعاف ، وحمل الصبي الى داخلها ، ثم ابتعدت مسرعة وظلت ساقا الصبي مطروحتين على سكة الترام »

ومن شروط الاقصوصة الاصيلة احتواؤها على فكرة وتوسيع خفي متواز مع الموضوع الظاهري او ما نسميه « المعنى الثاني » ففي كل اقصوصة من اقاصيص زكريا تامر معنى ثان ومدى خفي يكتشفه القاري مدفوعاً من حسه وخياله وتصوراته .

والخلاصة فان مجموعة « ربيع في الرماد » قلادة براقة ، اختلفت حجوم حباتها تعلق في جيد القصة العربية فتزيدها بهاء وروعة .

البقاء أو الاندثار . والحادثة عند الزميل الشيتي تخرج عن كونها حادثة لها أهميتها القصوى في استقامة البنيان ، وتصير، في حالات كثيرة، شيئاً متمماً للفكرة. وبهذا تبقى الفكرة على السطح، وتبرز في الوقت نفسه بالحادثة التي تحمل الحشو بشكل ما .

أقول « بشكل ما » لأن الحادثة في قصص الزميل الشيتي ، لا علاقة لها بفكرة ألا بمقدار ما تأتي مبرراً لنقلها من رأسه الى الورق . وإلا بمقدار رغبته في أن تنتقل من الورق الى رأس القارىء . والقارىء اليوم، قارىء القصة بوجه خاص لم يعد يقبل بالفكرة العابرة وحدها عندما لا تأتي على صلة وثيقة بكل كلمة في بناء الحادثة والمرافقة لها ، لم تعد الحادثة ظلاً للفكرة ، ولكنها أصبحت ركيزة أساسية لها . إنها تتحقق بالفكرة ، كما أن الفكرة لا تتجلى إلا بها .

وان من يقرأ مجموعة « جدار العار » يلاحظ أن الفكرة تمشي بمفردها مستقلة عن الحادثة ، والحادثة نفسها تعتمد على الحشو اكثر ما تعتمد لتحيط بالفكرة عبثاً تلك هي الصفة الغالبة على قصص المجموعة ،ومن الأمثلة التي يمكن ذكرها في هذا المضمار «خبر وصورة» و «الامتحان الأخير » وامرأة من نار » و « صندوق الأحلام » ، وحتى قصة « جدار العار » نفسها .

ان البحث عن الابعاد الفلسفية أو النفسية أو الخطابية لا تكفي لبناء قصة جيدة . فالقضية تبقى الى جانب كونها قضية عطاء عفوي واستجابة عفوية، قضية فنية تقوم على الدربة ، ولست مخطئاً فيما أرى اذا قلت انها تقوم على مبدأ المحاولة والخطأ فالقصة بمفهومها الجديد ليست حكاية . انها قطاع حي من الحياة . والحياة رغم معضلاتها التي تستعصي على الحل تبقى معقولة ، ومعقولة الى حد كبير . ومن ذلك القصة الواقعية التي يضع المؤلف نفسه في صف كتابها بمجموعته الاخيرة « جدار العار » .

ان اعتماد الزميل الشيتي على « ما لا لزوم له » في معظم قصص المجموعة جعلها تأتي مثقلة الجوانب . وأما القصة الجيدة ، ولا أقول الحديثة ، فهي التي تأتي خلواً من أي ثقل إلا ثقل الفكرة نفسها . وأما أن يخيل إلى الزميل الشيتي (أو سواه) بأنه من باب البراعة او الجودة زيادة السطور والصفحات وافتعال النتائج الصاعقة ، فذلك مرده الى اعتداده بما عنده من مفردات لا اكثر ولا أقل . ودليل ذلك ان الافكار المتناثرة بين دفتي « جدار

العار » خالية من أية شائبة . بمعنى أن النقص في الاسلوب وحده . ولا بد من مراعاة هذه الناحية كل المراعاة لأن الشكل لايستوي الا باتقانه .

أنا لا اريد ان اقنع نفسي بقول أحدهم « في الفن ، لايمسح القلم من شيء . فلو رد شكسبير الى الحياة لاستأنف النظر هملت نفسها .. » . لا اريد ان افعل ذلك كما فعل الزميل الشيتي ، لأن « هملت » هي « هملت » رغم العديد من الاجتهادات النقدية التي قدمت ضدها ومعها ، ولأن شكسبير لم يعد الى الحياة ليقرر ذلك بنفسه!

أم ترى الزميل الشيتي يريد اقناعنا بأن لو اتيح له اعادة كتابة « جدار العار » لفعل ؟ وهنا نسأله : لماذا لم يحدث ذلك ؟!

ان مجموعة « جدار العار » في الحقيقة تحتاج الى اعادة نظر ، ولا اقول الى اعادة كتابة . ولا اعني بقولي ان هذه الاعادة بنوعيها ينبغي أن تتناول الافكار ، وانما ينبغي ان تتناول الاسلوب ، الشكل ، الصيغة ، او ماشئت ، لتكون جديرة حقاً بمجموعة قصصية تضيف شيئاً جديداً على القصة السورية ولو طفيفاً .

قصة واحدة لا بد من الاشارة اليها هنا من باب الانصاف جاءت دليلا اكيداً على ان الزميل عبد الله الشيتي اهل لهذه المهمة ، هي : اجازة ليوم واحد .

في هذه القصة ملامح قاص يقف على اسرار المهنة ولكنه لا يريد الافادة منها!





ثمرة الصبير ...... تصوير ماجد ايوبي

الفوضى والليل

تأليف هنري دي مونترلان

هذه هي آخر قصة أنتجها الأديب الفرنسي مونترلان هذا الموسم . ولم يطبعها بطابع السرية الذي عرف عنه ، كما أنه لم يؤثر أن يحتفظ بها في درج مع بقية المخطوطات التي يؤثر عدم نشرها . وفي مقدمة الرواية بضعة سطور تحذر القراء بألا يقرأوا في هذه الرواية أية ترجمة شخصية للمؤلف ولكن الظواهر تدل على عكس ذلك . فمونترلان عودنا دائماً أن يكون بطل رواياته . وبطل هذه الرواية اسباني من الجمهوريين يدعى دون كلستينو مارسيلا هرناندز : وهو قريب الشبه ببقية أبطال المؤلف . وكل من قرأ «شارات المؤلف» سوف يتأكد من أن ردود الفعل واحدة سواء عند كلستينو أو عند دي مونترلان .

هناك على الاقل شخصيتان عند دي مونترلان . الاولى شخصية ايجابية ، متآمرة ، عدوانية ، تحتقر البشر وتتهالك على الجنس والاخرى شخصية حزينة قلقة رصينة . إن كلستينو أقرب الى تمثيل الشخصية الاخرى . وبالرغم من المقدمة ، فان الكاتب لايقوم بأية محاولة للابتعاد عن البطل . بل على العكس من ذلك : فانه يقطع السرد القصصي ليعلن بصوته أنه سوف يتمم الحادثة في الفصل القادم اذا مد الله من عمره ولم يتوفه في القريب العاجل !! إن دي مونترلان بهذه الطريقة يهجو نفسه ويعطف عليها تحت ظل الانحلال .

إن الاسباني الجمهوري ليس وسيلة صالحة للمؤلف كي يسقط شخصيته عليها . اذ أن ضمير دي مونترلان في الواقع أرستقراطي سابق ، مما يجعله دائماً رجعياً في مواقفه ، وإن كانت رجعيته بعيدة عن المعنى التقليدي المتعارف عليه . وهو بهذا المؤلف يلتقي مع الراديكاليين في بعض الاحيان . يضاف الى ذلك أن هذا الاسباني ليس جمهورياً بقدر ما هو فوضوي . بل إنه رجل محافظ مع احساس عميق بالشرف . وهو عدو للكنيسة أكثر مما هو محب للشعب . ويمكن الجزم بأن مجمل فلسفته السياسية لاتزيد الا قليلا عن كونها نظاما للكره .

عقدة القصة ضعيفة . إن كلستينو الاسباني يعيش في فرنسا مع ابنته باسكواليتا منذ نهاية الحرب الاهلية الاسبانية . وهو مقتدر على هذه الحياة بعد أن نظم أموره بحيث يصله دخله من ممتلكاته في اسبانيا الى مكانه في فرنسا حيث ينفق وقته بكتابة مقالات سياسية مغرقة في العاطفة والمغالاة الى درجة لاتجد معها ناشراً . ليس له اصدقاء ماخلا اثنين او ثلاثة من المنفيين وقد وصل كلستينو الى ابعد حدود الهياج بسبب شعوره القوي باقترابه من الموت ، لذلك يهجر اصدقاءه وهو يشعر بالألم تجاه ابنته التي لاتعرف احداً ولا تضمن لنفسها اي مستقبل ، وهو في الوقت نفسه حانق عليها لأن انوثتها تمنعها من الاهتمام بالموضوعات التي تعنيه ويتمنى ان يشاركه فيها احد ما.

وتسنح له فرصة العودة الى اسبانيا عندما تموت اخته ويضطر للذهاب الى وطنه ليتفقد ميراثه وهناك يذهب ليشاهد مصارعة الثيران ، ويكون في ذلك آخر مشهد من مشاهد نفوره : ان كل مافي مصارعة الثيران يثير اشمئزازه : الطقوس الدينية ، حركات مصارع الثيران ، رد الفعل عند الجمهور . وبعد ان ينتهي يعود الى فندقه مريضا ثم يموت وهو يعاني الألم على مراحل تشبه مراحل مقتل الثوار ، سوى انه على علم اكيد في لحظات احتضاره، بعبث الحياة وفقدانها لأي معنى .

ان الكتاب بأكمله ليس سوى مقدمة هدامة يحاول فيها دي مونترلان ان يغير مواقع الخصوم المتعارضين فيجعل الانسان يتلقى الالم عوضاً عن الثور ، فجاءت الرواية ملحمة مؤثرة بأسلوب اخاذ بعيد عن الروح الخطابية ، وقل بين الاحياء من كتاب فرنسا ان يوجد من يدانيه في التقاط التفاصيل الجوهرية وان يجرؤ مثله على عرض ميوله واهوائه بهذه الحساسية المفرطة .

إن مضمون الرواية شيء طالما عبر عنه دي مونترلان : ليس لشيء في هذا الكون معنى . وليس الوجود الانساني سوى فترة فوضى بين امتداد ليلتين طويلتين ؛ لذلك يصح ان يكون المزاج الفردي قانوناً بحد ذاته .

وحين يعثرون على كلستينو ميتا في غرفته ، يجدونـه غارقا في بحر من الدماء ، وفي جسده اربع طعنات في ظهره وعنقه : تماما كالطعنات التي تلقاها الثور حين قتل !! ومادام كلستينو قد مات وحيداً فليس للطعنات من تعليل إلا بأن هذا الرجل شهيد بمعجزة خرافية . إن المعجزة قاتمة لكنها تبقى معجزة ، وهذه هي المرة الاولى التي يستعمل فيها المؤلف المعجزات .

الرصاص في الجولة القادمة

تأليف : جيمس بالدوين

الكتاب مؤلف من مقالتين نشرهما الكاتب الزنجي جيمس بالدوين في جريدة (النيويوركر) في العام الماضي وهما تتصفان بالصفة الشخصية ، حتى كأن الكاتب يترجم لنفسه اكثر من كونه يعرض حالة الزنوج بصورة عامة . وقد وصف الكاتب طفولته ثم اعتناقه المسيحية بحماسة واندفاع، ثم فقدانه لكل هذا الايمان دفعة واحدة . وقد كتبت هذه المعلومات بنثر مليء بالحيوية وبلهجة عظيمة الحنو تكسب الى جانبها الكثير من القراء.

وهذا التعاطف مع تعاسة الزنوج لاينبعث من أي موقف مصطنع او وجهة نظر فلسفية ، بل هو متمثل في كيان الكاتب كانسان ولا يمكن فصل هذا التعاطف عنه . والكتاب بجمله يعطينا صورة عن رجولة الكاتب اكثر مما يصور لنا شخصيته . إذ ان وضعه الحالي ككاتب محترم، يكاد يكون معجزة بحد ذاته . لأن جيمس بالدوين ليس زنجياً فقط ، بل هو زنجي فقير نشأ في اكواخ حي هارلم ونمت ثقافته في الشوارع ، حيث اقتنع بالعنف اقتناعاً غريباً عن تقاليد الوطن الذي يعيش فيه ، لقد خضع للعنف الجسدي ، لكن الامر الخطير هو استسلامه للعنف النفسي الذي ابعده عن الايمان بقدرته على أن ينافس الرجل الابيض منافسة شريفة في معركة الحصول على الخبز والدولارات . وفي مثل هذه الوضاعة التي أكره عليها الكاتب ، نجد الكثير من الاسس التي يتشابه فيها بالدوين مع كارنيجي وكارلديل كمفكرين صعدوا من الطبقات السفلى في المجتمع . الا أن لدينا عاملا آخر نضيفه الى هذه الحالة :

« يالخوف الذي سمعته في صوت أبي عندما تأكد من أنني اعتقد أن بامكاني ان اقوم بكل الاعمال التي يقوم بها الرجل الابيض .. خاصة وانني مصمم على اثبات ذلك ! »

ان هذا الخوف يمت ببعض الصلة بخوف الكافرين من الله ، وان كان يختلف عنه ، انه يتصل به من حيث تعالي موضوع الخوف تعالياً غير متناه ، لكنه يختلف عنه لأنه لم يحدث بسبب خطيئة ما أو بسبب جريمة اقترفها الخائف . انه يخاف لأنه موجود . وهو لم يختر الحب ولم يختر الكره ، بل فرض عليه ذلك . وموضوع الخوف ليس امراً بعيداً في السماء أو بعد الحياة ، بل هو الرجال الذين يراهم الكاتب في الشارع ويدخلون أماكن محرم عليه دخولها ، ويفرضون عليه الجلوس في مكان خاص في الباص ... ويقتلونه أيضاً اذا رأوه لم يعد اهلاً للشفقة !!

ولعل اكبر ما تتسم به هذه المقالات أنها توضح لأول مرة مشكلة زنوج امريكا بكل تفصيلاتها . فالزنجي الامريكي محروم من الكبرياء ، مهان امام جيرانه ، خلق عبداً من البداية وعليه أن ينهك قواه ليحصل على مالا يسمن او يغني من جوع . وهو يعلم أن عليه ان يكون متعباً حتى يرجح مايقيم أوده ، وان يكون بالاضافة الى ذلك لطيفاً مهذباً ومفيدا لكل الناس وليس مايضاهي بيان الكاتب حين يتحدث عن اغراء الشارع ، واغراء رفاق السوء ، ومتعة الحياة مع العواهر اللواتي يمارسن المهنة امام اطفالهن . ويستطيع الانسان أن يفهم امورا لم يكن يفهمها من قبل ، كأن يصبح رجل من امثال سوني ليستون بطلا اسطورياً في محيط الزنوج . فهو زنجي قوي عظيم الهامة ، ويستطيع في وضح النهار ان يطيح بأي رجل ابيض او اسود دون ان يجرؤ انسان على التدخل في شؤونه . ولب القضية في هذه القصة ان البيئة التي ينشأ فيها الزنجي بيئة مادية شديدة الكثافة ، الى حد ان الاستجابة الجسدية وحدها هي الشيء الوحيد الذي يستحق التقدير دون سواها من القيم . والموضوع الاخير ، هو تحرر الزنوج اقتصادياً برفع مستواهم المعاشي . ان الضغط الاقتصادي لملايين الزنوج سوف يزج بهم في عالم البيض لكن هذا الحل لايبدو منطقياً بالنسبة للبيئة التي يصفها الكاتب ، فلو قاطع السود العالم الاقتصادي للرجل الابيض لتمكنوا من خلق بيئة خاصة بهم ، لكن هذا الحل لم يعد يرضي الرجل الاسود . انه يريد شاهداً محسوساً على انتصاره ، وليس من شهادة دامغة اكثر من الدم .. دم الرجل الابيض

رسائل المعرفة

من بيروت

النشاط الثقافي والفني في لبنان

في لبنان كل شيء يعرف الراحة والاصطياف عدا الآلة الطابعة ، فهي وحدها لاتذهب الى البحر فتبترد ، ولا الى الجبل فتصطاف . ان ٧٠ ٪ من المطبوعات في العالم العربي تصدر في بيروت .

وفي دوامة الانتاج ، وحمّاها التي لاتتوقف تقذف المطبعة الى الاسواق شتى أنواع الكتب ، والمجلات ، تتراوح بين حدّي الجودة والرداءة ، والنفع والاضرار ، والاصالة والزيف ، وليس بمستغرب أبداً هنا ان ترى دور النشر التي تصدر كتباً في الأدب والفلسفة والاقتصاد والاجتماع ، تصدر هي ذاتها كتباً رخيصة ، وقصصاً جنسياً مكشوفاً ، وكراسات خلاعية ومجلات إباحية .

وإزاء هذا السيل الدافق من الكتب ، الأنيقة الاخراج كلها ، وفي تيار سياسة الاغراق هذه ، يقف القارىء العربي حائراً لايعرف ماذا يختار ولا كيف ، مادام لايملك ناظماً يفرق بواسطته بين كل هذه البضائع المعروضة . ومادام مغريا كل ماتقذف به المطبعة .

لقد تدخلت التجارة فأفسدت الأمر ، واستغلت بعض دور النشر ، التي كسبت لفترة ثقة القارىء فراحت تتاجر من وراء ظهره على حسابه ، وحساب تكوينه الثقافي ، لقد غزتها حمى الكسب ، فراحت تنشر ترجمات ممسوخة تافهة في أكثرها ، مستغلة الضجة التي يحدثها بعض مايصدر من كتب بلغات أجنبية ، ولاشك أن ضرر هذه الترجمات الممسوخة ، يتوضح بشكل لا يقبل جدلا ، في ثقافة القارىء العربي الذي لايعرف لغة أجنبية لأنه مسوق اضطراراً الى قراءة هذه الترجمات الرخيصة المشوهة .

إن بعض أشهر الكتب العالمية يترجم هنا في يومين أو ثلاثة أو أسبوع . إن دور النشر تعتمد في ترجمة بعض الكتب القيمة على عشرة مترجمين يتوزعون فصول الكتاب ، وهات يا اخلاصاً في الترجمة ، ويا وعياً لروح الكاتب ، ويا نقاء في

الاسلوب . هنا الترجمة احتراف . حتى أن بعضهم يجعلها عمله الوحيد وقد افتتح لها مكاتب خاصة تماماً كمكاتب تخليص البضائع ، ومكاتب الايجار والاستئجار والاعارة وما أشبه .

بل إن دار نشر بعينها ، وهي مشهورة ، تعمد إلى نشر كتب مثيرة ، جنسية ، بينها كتاب « رجوع الشيخ ... » وقد كان صاحب الدار فخوراً وهو يقول ، إن هذا الكتاب باع في الأسواق نسخاً يبلغ عددها ضعف ما أصدره من كل الكتب الأخرى وأنه يخدع الرقابة بحيلة بسيطة ، فهو يطبع على الغلاف صورة شاب رياضي ويضع على الكتاب عنوان : « كيف تكون جسماً رياضياً » ويرسل نسختين من كتاب رياضي الى الرقابة ، وبعد الموافقة عليه ، يبدأ عمله بوسائله الخاصة ، بمباشرة ، بمن يعرفون كيف يصيدون اندفاع المراهقة وسواها على السواء . لقد قال لي : إن كتاب « رجوع الشيخ .. » در عليه ثلاثة أضعاف ما درته عليه كتبه مجتمعة وكان يتكلم لامبالياً وكأن نشر هذا الكتاب وإعادة نشره تسع عشرة مرة ليس فيه جريرة ، أو ما يخز الضمير : ماذا تريد إنهم لا يقرؤون إلا كتباً كهذا .

هذا الناشر نموذج لكثير من الناشرين هنا على أن لبنان لا يعدم دور نشر رصينة استطاعت فرض خطها على القراء العرب وأن تلائم بين واقع السوق ، وواقع الانتاج ، وحاجة الجيل الى ثقافة صحيحة . فلم تضطر الى سلوك سبل ملتوية ، وأساليب معوجة . وقد ساهمت هذه الدور (الطليعة ، والآداب ، ودار العلم للملايين مثلاً ..) في وضع الأدب العالمي الحديث بين ايدي قراء العربية في ترجمات أمينة مدققة ، وعرفت هؤلاء القراء في اكثريتهم الى أشهر مؤلفات الجزء الثاني من العالم العربي (المغرب وتونس والجزائر) والى ادباء المغرب ، كما انها شقت دربا لكتب الفكر السياسي وأحدث النظريات في الاقتصاد والاجتماع ، والأدب الثوري الطليعي إن عربياً أو أجنبياً .

ان اي دارس متتبع يستطيع ان يخرج بالاسباب الحقيقية الكامنة وراء ازمة الكتاب العربي الجيد وهي اسباب لا يمكن اهمالها :

١ – سياسة الاغراق التي تتبعها بعض دور النشر التاجرة المدفوعة بغايات الكسب دون سواها .

٢ – انعدام الرقابة الحقيقية على ما ينتج مما يتيح لكتب كثيرة ان تجد طريقها الى القراء بدلاً من اغراقها .

٣ – سوء التوزيع ، وعدم وجود سياسة مدروسة لتوزيع الكتاب العربي ، واحتكار بعض دور التوزيع توزيع كتبها الصادرة لديها .

٤ – الجهل المهيمن لدى اصحاب بعض دور النشر وتحويلها من مؤسسات عامة للثقافة الى مؤسسات خاصة للتجارة .

٥ – اتباع سياسة التمركز الافقي في الانتاج .

٦ – قصور وعي القارىء العربي ، وازمته الثقافية .

٧ – انصراف اكثر المثقفين الى مناهل الفكر الاجنبي .

٨ – انعدام النقد الموجه ، والصحافة الادبية الجادة .

هذا كله قائم في اساس الازمة . ولا بد من سؤال أخير : الى اين تسير الطابعة في لبنان : سؤال عسيرة الاجابة عليه . الا ان الظاهر الان على الاقل انها تنضم بكل بلاهة لتكون اداة تأديةخدمات كأكثر المؤسسات الاخرى بدلا من ان تكون اداة نشر المعرفة . هذا الان . اما ماسيحدد اتجاهها في المستقبل القريب فهو ازدياد نمو وعي القارىء العربي حتما . والى ان يتم ذلك ستظل مشكلة الكتاب العربي قائمة .

اخبار متفرقة

● « ديوان الشعر العربي » . منذ اول بيت قيل في الشعر العربي حتى اليوم . يقوم علي احمد سعيد بنخل الشعر العربي ، وباختيار مايعتبره شعرا حقيقيا ، ليجمعه في اول عمل من هذا القبيل في العالم العربي . ولم يسبق ان فكر احد بجمع انتولوجيا كاملة للشعر العربي . يصدر الجزء الاول من الديوان هذا الشهر عن دار المكتبة العصرية .

● « لادر في الصدف » المجموعة الشعرية الثالثة للشاعر خليل الخوري تصدر هذا الشهر عن دار المكتبة العصرية .

● « سيناء بلا حدود » رواية الاديبة سميرة عزام الاولى تصدر هـذا الصيف عن دار الاداب .

● « نصف الرجل الميت » صدرت هذا الاسبوع الى السوق . انها المجموعة القصصية الاولى للاديب محمود الخطيب . كانت روايةمحمود الاولى : « قبلة في الصدر » . ومحمود كاتب يمزج الواقع بالاسطورة وتتبدى كتاباته نوعاً من احلام اليقظة ، وتتميز بأسلوب لاعهد للقصة القصيرة به .

● « مجلة الدراسات العربية » مجلة تهتم بشؤون الفكر تصدر ابتداء من هذا الشهر عن دار الطليعة . يرئس تحريرها الاديب انعام الجندي .



كتب جديدة

● « العالم يغرق » مجموعة قصص صدرت عن دار ابـن زيدون بدمشق للقاص ياسين رفاعية قدم لها بدراسة فؤاد الشايب. وتضم المجموعة ١٣ قصـة كتبت مابين عام ١٩٥٩ - ١٩٦٣ سبق ان صدر للمؤلف نفسه كتابان هما « الحزن في كل مكان » و « جراح ».

● « ادب المغتربين » دراسة كاملة عن آثار ادباء المهجر صدر عن وزارة الثقافـة والارشاد القومي بدمشق للمغترب الياس قنصل.

● « فن العرائس » يحكي تاريخ مسرح العرائس وفن تحريك الدمى وهو من تأليف بوجو كوكوليا وترجمـة نجاة قصاب حسن ومراجعة جوليان ماركوفينا، وصدر عن وزارة الثقافة والارشاد القومي.

● « تاريخ المعرة » وهو الجزء الاول من كتاب يؤرخ مدينة المعرة منذ فجر التاريخ وهو من تأليف المرحوم سليم الجندي ومراجعة عمر رضا كحالة وصدر عن وزارة الثقافـة والارشاد القومي.

● «جدار الماء» عنوان المجموعة القصصية الجديدة التي صدرت مؤخراً للقاص عبد الله الشيتي. سبق ان صدر للمؤلف عدة كتب منها: القديسة العارية - معجزة العراق - مشكلة عمان.

● « خمر وشعر » عنوان الكتاب الذي صدر عن دار الرائـد بحلب لسامي الكيالي، وقد تضمن الكتاب دراسة وافية للشعراء الذين أنشدوا في الخمر منذ الجاهلية حتى عصرنا هذا.

● « القلب الذهبي » محـاولة في الرواية صدرت عن دار ابن زيدون بدمشق من تأليف بنت بردى.

● صدر عن دار الثقافـة في بيروت في سلسلة « المسرح العربي - دراسات ونصوص »: مارون النقاش وفيه لمحة عن حياته مع عدد من مسرحياته، وكتاب آخر بعنوان « الشيخ احمد ابو خليل القباني » مع دراسة وافية عن حياته ونصوص بعض مسرحياته وذلك من اختيار وتقديم الدكتور محمد يوسف نجم.

● اما الاديب العراقي الدكتور يوسف عز الدين فقد صدر له كتيب صغير يحوي دراسة واسعة في شعر الاخرس شاعر العراق في القرن التاسع عشر.

● « اعلام الكفاح في سورية » كتاب

يروي حياة الرجال الابطال الذين ناضلوا من اجل حرية سورية والعروبة صدر حديثاً وقد اشرف على طبعه وجمع مواده نخبة من الصحفيين السوريين .

● « شاعرية يوسف عز الدين » عنوان الكتاب الذي صدر للاديب العراقي خضر عباس الصالحي عن مكتبة المثنى ببغداد .

محاضرتان في علم الجمال والزخرفة العربية

.. وفي الشهر المنصرم ألقى عدنان بن ذريل محاضرة في مركز الفنون التشكيلية عن ـ الجمال وعلم الجمال ـ اظهر فيها مجالات الدراسة الجمالية ومناهجها المختلفة . ومما اوضحه في المحاضرة الفارق بين الجمال الطبيعي ، وهو هذه الالوان ، والخطوط ، والاشكال . والاضواء الخام التي تقدمها الطبيعة ، والجمال الفني ، وهو هذا الخلق الفني الذي تمتزج فيه التجربة الشخصية للفنان مع المعطى الطبيعي الخام ، وقد اظهر المحاضر كيف ان موضوع علم الجمال هو الفن ، والجمال الفني الذي هو اكثر ثراء ، وتوفيراً للقيم الفنية . .

وفي مركز الفنون التطبيقية ألقى ابن ذريل ايضاً محاضرة عن ـ الفن والزخرفة العربية ـ تحدث فيها عن الفن العربي ، وخصائصه ، وتطوره .. وعلى الخصوص في المجالات الصناعية العملية التي ازدهر فيها ، وترعرع ، من معمار ، او خزف ، او صناعة نسيج ، أو صناعة كتب .. وقد عرض المحاضر آراء النقاد والدارسين في الزخرفة العربية ، وظاهرة التكرار فيها ، والتي فسرت تفسيرات صوفية ، ودينية ، ونفسية ، واجتماعية ، ثم قدم تفسيراً جديداً يعتمد على المقولات الجمالية التي نجدها في هذه الزخارف من جميل ، او لطيف ، او رائع ، او بسيط ، أو معقد ، وفسرها تفسيراً صنعياً فنياً .. وقد لاقت المحاضرتان صدى مستحباً لدى الجمهور الفني ، والطبقة المستنيرة ، المثقفة .

ندوة للقصة والشعر

احيت جمعية المسرح الحر ندوة قصصية شعرية لعدد من الشباب الناشئين نذكر منهم السيدة ليلى اليافي ، الآنسة هالة الميداني وغيرهما وقد اشترك في هذه الندوة كضيوف الشاعر عبدالحق حداد والقاص عبد الله الشيتي .

المسرح القومي والاخوة كارامازوف

كلفت وزارة الثقافة والارشاد القومي المخرج المسرحي اسعد فضة اخراج رواية (الاخوة كارامازوف) للمسرح القومي ومن المعروف انه من تأليف الكاتب الروسي دستويفسكي ، وسيعتمد المسرح القومي على الترجمة الامينة التي قام بها السيدان حسن سالم وحبيب جبور .

وقد بدأت تدريبات المسرح القومي على هذه الرواية ، التي تستمد موضوعها من فكرة وجود الله ، والصراع الذي يعانيه الانسان في تخبطه بين الالحاد والايمان ، والنتيجة المؤلمة التي تترتب على ضياع الانسان وعدم اهتدائه الى طريق يسير فيه وعاقبة انقياد المرء خلف شهواته ورغباته واهماله للقيم الاخلاقية والاجتماعية .

وزارة الثقافة تنظم اسبوعاً للتبرع بالكتب لجامعة الجزائر

عقد اجتماع في مكتب الدكتور يوسف شقرا الامين العام لوزارة الثقافة والارشاد القومي، حضرة الامين العام لوزارة الاعلام والامين العام المساعد للشؤون الثقافية ومدير الشؤون الادارية والقانونية ومدير العلاقات العامة، وذلك لبحث تنظيم اسبوع خاص للتبرع بالكتب العربية لمكتبة جامعة الجزائر التي اتى الحريق على مكتبتها الاصلية اثناء ثورة التحرر من الاستعمار، فتقرر ان يبدأ هذا الاسبوع يوم السبت ٢١ ايلول الماضي ويستمر حتى نهاية يوم السبت ٢٨ ايلول .

وفي نهاية الاسبوع المنظم ترسل الكتب المتجمعة الى المركز الثقافي في مقر كل محافظة، وهو يرسلها بدوره الى المركز الثقافي بدمشق حيث تقوم الوزارة بفرزها تمهيداً لاهدائها لجامعة الجزائر .

دولة الشعر في البرازيل

ألقى الشاعر أسد موسى قصيدة بعنوان « دولة الشعر » في معرض الشعر لدورته الرابعة التي أحيتها في بهو النادي الحمصي في البرازيل جمعية متخرجي جامعة بيروت الاميركية المقيمين في البرازيل وقد جاء في هذه القصيدة

رضعنا كانا ثدياً ولكن
بفضل الضاد كنا الافضلينا
فقري أمنا عينـــا فانا
لامرتك الجنود الطائعونا
وابراق المتاف مجلجلات
تذيع على الورى ماتلهمينا
مرى تقحم جحيم الترشوساً
فتصلي النار ابليس اللعينا
بلاغك عندنا فرض يؤدى
جهاراً في وجوه الناقمينا

الصحافة الأدبية في شهر

- « وحدة الثقافة العربية » بقلم الدكتور محمود محمود
  الرسالة ـ القاهرة

- « الادب ومشكلة التعبير » بقلم أمين شنار
  الافق الجديد ـ القدس

- « تزكية العاطفة » بقلم محجوب بن ميلاد
  الفكر ـ تونس

الرسالة ـ القاهرة

في العدد « ١٠٢١ » من مجلة الرسالة التي يرأس تحريرها الاستاذ احمد حسن الزيات نشرت عدة بحوث ذات اهمية منها « كان مولد الرسول مولداً لعالم جديد للاستاذ الزيات ـ الحقوق والواجبات بين الفرد والمجتمع لمحمد محمد المدني ـ وحدة الثقافة العربية للدكتور محمود محمود ـ مأساة اورشليم للدكتور محمد مندور ـ التجربة العربية في الطب البشري » بالاضافة الى عدة ابحاث مختلفة .

نقدم فيما يلي مقاطع من المقال الذي نشره الدكتور محمود محمود تحت عنوان « وحدة الثقافة العربية » قال الكاتب :

ان لوحدة الشعوب مقومات اكتملت عناصرها كلها في الامة العربية . فالعرب في كل مكان من عنصر واحد بقدر مايسمح اختلاط الشعوب بوحدة العنصر ، وهم يتكلمون بلسان واحد . هو اللغة العربية ، التي قد تختلف قليلا في لهجاتها من قطر الى آخر ، ولكنها في الفصحى هي بعينها في كل مكان ، والتراث الادبي والفني واحد مشترك ويدين اغلب السكان بدين واحد هو دين الاسلام الحنيف ، وان يكن الدين ليس ضرورة في وحدة الامة وبخاصة ان كانت الاديان الاخرى سماوية بعيدة عن الالحاد . والعادات والتقاليد متفقة هنا وهناك ، لافرق في ذلك بين سوري ومصري او عراقي ولبناني او اي فرد ينتمي الى هذه الامة المجيدة . وقد وحدت محنة

الاستعمار بين مشاعر الافراد والفت عداوة الصهيونية بين قلوبهم فوحدوا الصفوف في النضال واثبتوا مكانتهم ويقظتهم للعالم اجمع .. وكلما مرت بنا محن واحداث ازددنا تماسكا واتصالا .

وبعد ان يشير الكاتب الى اهمية وحدة العرب في دولة واحدة يؤكد ان الوحدة الثقافية من اهم دعائم هذه الوحدة وان التربية والتعليم هما مجال هذه الوحدة ثم يقول : اذا كان الاستقلال السياسي والاقتصادي هدفاً من اهداف كفاحنا في هذه المنطقة التي نعيش فيها فان الاستقلال الثقافي كذا ضرورة لابد منها حتى تتمكن البلاد العربية من الاعتماد على نفسها فلا تكون تابعة لغيرها او ذيلا لسواها ، ولست اقصد بالاستقلال الثقافي ان ينبذ العلوم والمعارف والاختراعات والصناعات الغربية التي تجعل حياة الانسان على الارض اكثر راحة واكثر رفاهية .

وانما اعني به احتفاظنا بما ورثنا عن آبائنا من عقائد وآداب وعادات وتقاليد ولغة واخلاق ونظم الاجتماع وطرق العيش .

ذلك ان المعرفة انسانية عامة ، اما العقائد والنظم فقومية خاصة .

واذا نحن فرقنا بين المعرفة والعقيدة امكننا ان نصمد امام تيار المذاهب المنحرفة التي تحاول ان تغزونا من الخارج كالالحاد والشيوعية والحط من شأن الحضارة العربية والوجودية المبتذلة .

ولست بطبيعة الحال اعني حينما ادعو الى التمسك بتراثنا الثقافي الاجتماعي ان نبقيه جامداً لايتطور مع الايام . او كما هو وكما وصل الينا عبر القرون ، فهذا من غير شك تعصب وحماقة وانما اعني ان اسس هذه الثقافة تلائم طبائعنا ، اما تفصيلاتها فمن حقنا ان نطورها مع السنين وفق حاجاتنا في كل ظرف وحسب مقتضيات الحياة في مختلف المناسبات . فهي تراث مقدس في اصوله مرن في فروعه ، يتطور ويتغير مع تطور التاريخ ، ولكن هذا التطور وذلك التغيير لايخرج به عن اطار قيمه الاصلية .

الافق الجديد ـ القدس

اشترك في تحرير عدد ايلول من مجلة الافق الجديد الذي يرأس تحريرها الاستاذ امين شنار عدد من كتاب العربية منهم : احمد العناني ـ عبد الرحمن صدقي ـ فتحي بلعاوي ـ محمد ابو شلباية ـ علي سعيد خلف ـ علي عيسى ـ الدكتور عبد الله صبري وفدوى النجار وعبد الرحيم عمر وهند الحسيني ويوسف النجار وغيرهم .

وتحت عنوان « الادب ومشكلة التعبير » كتب الاستاذ امين شنار قائلا : العجز عن التعبير مشكلة يواجهها اقل الناس حظاً من الاطلاع اللغوي ، ويواجهها . وربما الصعوبة اكثر ، اوفرهم حصيلة لغوية وموهبة ، وثقافة وعطاء نفسياً .

فعلى صعيد التعبير ، قد يقف العامي الذي يتلعثم في صياغة جملة واضحة جنباً الى جنب مع الشاعر او الكاتب الذي يحاول ان يترجم مدلولا معيناً في النفس متوارياً في الاعماق لايكاد يشف حتى يحتجب فلا يستطيع ان يجد كلمات يحس فيها رياً وشبعاً واكتفاء .

يواجه هذه المشكلة ايضاً ، وبشكل اكثر حدة واشد مرارة كل من يعاني الترجمة من لغة

اجنبية عالمية الى اللغة العربية ، فهو يبحث طويلا عن الكلمة العربيـــة الواحدة التي تعطي مدلول الكلمة الاجنبية بكل ظلالها وايحاءاتها ، فلا يجد؛ فيضطر الى ترجمة المعنى لا الكلمة ولو بشكل تقريبي وبجملة طويلة .

ويقول الكاتب في ختام مقاله : الزمن يسير . والوسائل والاشكال المادية تتغير . فتفرض على الناس معاني جديدة ، ودلالات جديدة . فكيف تتوقف اللغة ، وهي اداة الفكر والمعنى ، والدلالة . هل يجمد اللسان على الفاظ ماتت ، ام تزداد اللغة ثراء مع الحياة .

ثم مرد رحلة الادب وراء الفكرة ، ماجدواها اذا لم تنقل للناس كلاماً صافياً نقياً . صفاء الفكرة ونقاءها اذا كان الناس يبتكرون اشكال الحياة فلم لايبتكرون معها الالفاظ .. ؟

هذه الأسئلة تقف بين حقيقتين ، الاولى : يجب ان تقترن طاقة اللغة بطاقة الفكر ، لكي تصب الطاقتان معاً في عملية بناء الامة من جديد . والثانية : ان انهاض اللغة العربية من رقدتها واجب . على المفكرين والكتاب وذوي الاختصاص ان يتنادوا اليه بوضع الكلمات الجديدة اشتقاقاً وارتجالا وتجاوزاً . وباطلاق القياس وبالتسليم والتعريب .

ويختم الكاتب كلمته قائلا : على الادباء تقع التبعة الكبرى في هذا الواجب . ان رسالتهم تحتم عليهم ان يخدموا الكلمة كي يستخدموها ، من بعد ، جسراً الى الناس ، فليكن لكل اديب قاموسه ، يقيمه على حصيلة لغويةغنية ، ويجدده بكل ما يقتضيه تغير الوسائل واختلاط الشعوب وسير الزمن من الفاظ ، وزخم وحياة . اما أن يظل بعض ادبائنا ورثة ، وموسوعات : وكليشيهات الجمل التي « راحت مثلا » لايتحولون عنها الى لغة يسمون بها العصر .. وان يظل بعضهم الآخر مقطوع الصلة بالتراث ، عامي الاداء ، في عجز لايبرره الادعاء بان روح العصر يقتضي سهولة التعبير ، فان ذلك هو الخسران المبين . للغة والفكر والأدب جميعاً .

الفكر ـ تونس

ختمت مجلة « الفكر » التونسية في عدد تموز الماضي سنتها الثامنة ، وان المعرفة تنتهز هذه الفرصة لترجو لزميلة « الفكر » النجاح والتوفيق .

وقد نشرت المجلة في هذا العدد مقالا للاستاذ محجوب بن ميلاد تحت عنوان « تزكية العاطفة القومية » وهو نص محاضرة القاها الكاتب في المؤتمر الفلسفي الباكستاني العاشر الذي عقد في نيسان ١٩٦٣ ـ وقد جاء في هذا المقال قول الكاتب : وليس من شك عندي في ان مايعترض ـ اليوم ـ الشعوب الاسلامية كافة من متنوع المشاكل في الميادين الاقتصادية ، والصناعية ، والفنية ، حيثما تحرص على تأسيس اسس اقتصادها وصناعتها ، وتقدمها الفني . لتتلافى ما فاتها ايام انحطاطها ـ وما اكثر ما فاتها ايام انحطاطها ـ ليس من شك عندي في ان ذلك كله على خطورته ـ لاشيء يذكر ، بجنب مايجب عليها ان تجابه من المشاكل العقلية بوجه الاجمال فبناء العقول الاسلامية هو الشرط الاساسي الاول المهيمن على الشروط الاساسية الاخرى كلها .

وهو الكفيل بأن يفجر لنا من جديد شبيب الاخلاص الحي للذات الحية في صولة اقتدارها وفي نظام صمودها بدروب ماشئت وشاء الاخلاص من مشاريع الحياة في عالمنا الذري الجديد .

ولست اذكر لك ان « تهافت العقول » وهي عبارة مرادفة عندي « لتهافت الضمائر » هو اصل كل تهافت وما تجشمه من الوان الخراب في شتى الاوضاع المادية بالاقطار التي تسمى اليوم بالاقطار المتخلفة ليس الا ناشئاً عما يشاهد من امارات الخراب الشامل في حلبة عقولها .

فتجديد العقول بتجديد بنائها هو الذي يضمن لك – اذاً – تجديد كل بناء في الافق الانساني : سواء اكنت في الميادين العلمية او الفنية او الصناعية او الاجتماعية او السياسية او الخلقية او الدينية او الروحية على الاطلاق .

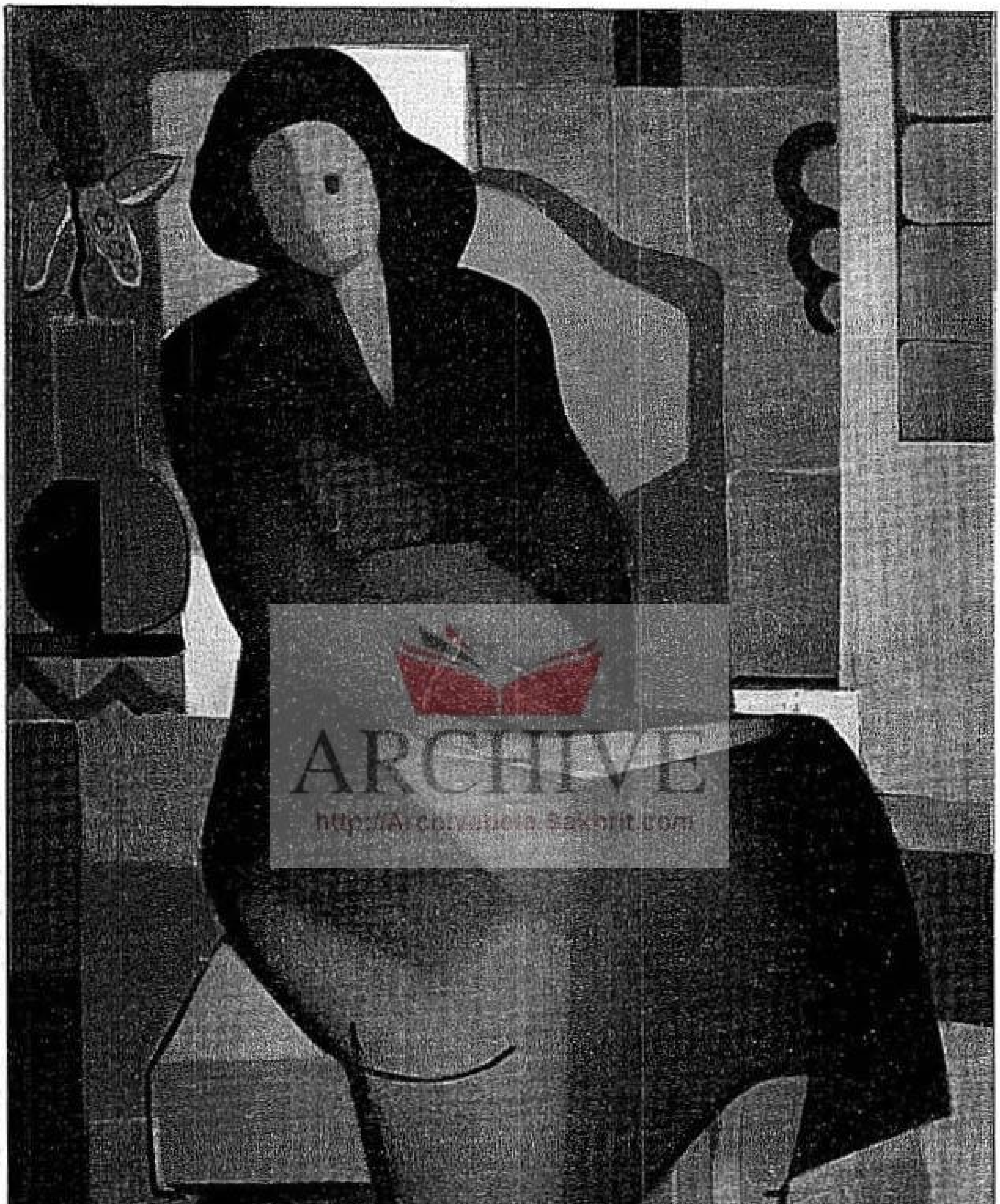
وبعد ان يشير الكاتب الى ما لاحاه في الطريق بين تونس وبشاور يقول : ولا تظن ان تجديد بناء العقول ينحصر في امر التربية والتعليم في محدود آفاقها « الصناعية » او في محدود الآفاق التي تعودنا ان نفهم فيها التربية والتعليم فشؤون البشر معقدة وشؤون البشر دقيقة الاسرار وشؤون البشر لطيفة الجوهر ، وشؤون البشر متداخلة تداخل اخفى خيوط الحرير وادقها .

وآية آيات هذا التداخل العجيب تضامن لا اشمل منه ولا اشد صرامة ولا اوكد اقتضاء .

وبالرغم من انك في ساعة التحليل تفصل بين الشؤون المادية والشؤون الاقتصادية والشؤون الصناعية والشؤون الفنية والشؤون العسكرية والشؤون العائلية والشؤون السياسية والشؤون العقلية والشؤون الدينية والشؤون الروحية او ماشئت من شؤون هذه الشؤون وغيرها على اختلافها المدهش – فلابد لك في آخر الامر من ان تعتبرها .. كلا عجيباً واحداً متماسك الاجزاء سحري التماسك ، ويسري في هذه الاجزاء على اختلافها روح واحد هو « الروح » الذي يجعل لكل حضارة من الحضارات البشرية المخلصة لذاتها : وحدة الملامح او وحدة الحقيقة او وحدة العبقرية .

وليس يمكن لك ان تدرك ادنى جزئية من جزئياتها بله وظائفها السامية – او اجهزتها المركبة التي تحتل في نطاق نظامها جليل الرتب الا بالعودة الى الاصول الجوهرية التي هي اصول ذلك « الروح العبقري » الذي يحددها جميعا !

ذلك ان تلك الجزئيات وتلك الوظائف وتلك الاجهزة ليست في الحقيقة الا « السنة » تنغم اشواق عين « الروح العبقري » الذي هو روح الحضارة مثلما ان مختلف الآلات الموسيقية – النبيلة والوضيعة – تنغم بقدر اقتدارها وثروتها وفي نطاق عين السنفونية اشواق عين العبقرية التي نسقت انغامها .



اسعد زكاري — امراة حبشية

اسعد زكاري

ولد عام ١٩٣٠ في دمشق وتعلق بالرسم منذ صغره ، ثم درس الرسم والتصوير في الاسكندرية في مرسم (واني) ، اثناء دراسته للهندسة المعمارية . وعاد الى دمشق ليساهم في الرسم والديكور .

امرأة حبشية

الفنان في أكثر لوحاته التي عرضها ميال الى الانطباعية الحديثة ، التي ترتكز على تطوير هذه الانطباعية نحو التجريد الحديث ، ويلاحظ في اللوحة شدة ابتعاد الفنان عن الانطباعية ، وان كان في غيرها من الاعمال الفنية أقرب اليها ..

فنون

يقدمها : حسن كمال

الجمهورية العربية السورية

معرض الطيور المحنطة

اعتادت مدينة دمشق ان تشهد في كل عام معرضاً علمياً طريفاً يقدمه لها السيد نزار قطيفاني عن الطيور المحنطة ، وفي معرضه اليوم لم يقدم الطيور المحنطة فحسب وانما قدم الكثير من النقاط العلمية الدقيقة وتحدث باسهاب عن سلوك تلك الطيور وخصائصها .

كما حاول صاحب المعرض خلق الاطار الطبيعي حول أكثر الطيور الممثلة والمناطق التي تعيش فيها وتعرض الى هجراتها ... وقد زود المعرض بالكثير من اللوحات التوضيحية عن سرعة بعض الطيور فيقول مثلاً أن البط الاوز تبلغ سرعته ٦٠ ميلا في الساعة بينما تبلغ سرعة الشاهين ١٥٠ - ١٨٠ ميلا في الساعة .

وعندما نرى زاوية الزرزور نعجب كل الاعجاب بكياسة هذا الطائر وعواطفه النبيلة تجاه اناثه التي اعتاد أن يقدم لها اثناء حضانتها بيوضها الازهار العبقة كهدية للحب والاخلاص.

ويقول أن الوقواق وهو احد الطيور المحنطة المعروضة يبيض بيوضه في اعشاش الطيور الاخرى التي كثيراً ما تحضنها ولهذا نرى عاطفة الابوة خفيفة عندها . خلافا للبجع الذي يضحي بحياته في سبيل صغاره . وفي المعرض المذكور العديد من الطيور الاخرى التي لم نأت على ذكرها أو ذكر خصائصها .

وهناك حقيقة لابد من ذكرها وهي ضرورة انشاء متحف علمي في بلدنا وحبذا لو اهتمت وزارة التربية والزراعة والجامعة السورية باحداث متاحف علمية مماثلة تضم هذه النماذج من الطيور وبذلك تكون لنا متاحف علمية الى جانب المتاحف الاثرية والفنية والحربية اسوة بالدول الاوربية المتقدمة .

تكريم فرقة باورسيا الشعبية

أقام السيد وزير الثقافة والارشاد القومي حفلة لطيفة تكريما للفرقة الروسية التي أدت أروع الرقصات على مسرح معرض دمشق الدولي وقد أقام الحفلة في قصر العظم وكان في استقبال المدعوين موظفو الوزارة والمديرية العامة للآثار والمتاحف وقد قدمت الفرقة الشعبية لوزارة الثقافة العديد من الرقصات الرشيقة على أنغام الآلات الشرقية التي أعجب بها الضيوف ايما اعجاب

وكانت أروع لحظة ساعة اشتراك بعض أعضاء الفرقة الروسية مع اعضاء الفرقة السورية وأدوا جميعهم الرقصات الشعبية السورية وكان اعجاب الحضور عظيماً عندما أدى الضيوف الرقصات الشعبية السورية خير أداء .

وغادر الضيوف القصر بمثل ما استقبلوا به من الحفاوة بعد ان زاروا أقسام القصر وابدوا اعجابهم بالفولكلور السوري الفني والمختلف باختلاف المناطق السورية السهلية والجبلية والساحلية ....

لقاء فني بين دمشق وبغداد

توثيقاً للروابط الثقافية القائمة بين الجمهورية العربية السورية والجمهورية العراقية فقد رأت وزارة الثقافة والارشاد القومي ارسال معرض فني ضخم يضم اجمل المنجزات الفنية السورية في ميدان الرسم ، حاول منظمو المعرض ابراز كافة الاتجاهات الفنية السورية ليكون المعرض خير ممثل لحركتنا الفنية الناهضة .

وقد افتتح المعرض في منتصف الشهر الماضي وشاهده الوف من الزوار الذين ابدوا اعجابهم بالنشاط الفني السوري وبالصورة المشرقة التي اعطاها المعرض المذكور .

وحبذا لو اهتمت السلطات العراقية بارسال معرض مماثل الى سورية ليقف الشعب العربي السوري على النهضة الفنية في القطر الشقيق وبذلك تزداد الروابط الثقافية متانة ويتاح للشعب السوري التعرف على النهضة الفنية العراقية .

معرض الحفر الروماني

اقيم في الشهر المنصرم في الجمعية السورية للفنون وتحت اشراف رعاية وزارة الثقافة والارشاد القومي التي دأبت على اطلاع جمهورنا على منجزات الفن في العالم وقد رأت صوابا رعاية معرض الحفر الروماني الذي يعتبر من اهم المعارض في موسمنا الفني . وفن الحفر ليس فناً حديثاً علينـــا فهو معروف من عدة قرون الا انه اخذ في التطور يوما بعد يوم واذا كان انتشاره في بلدنا مازال في اول الطريق فهو في اوروبا منتشر على نطاق واسع . ومن تطوراته التي حققها هو الحفر الملون الذي لايتطلب مهارة فنية فحسب وانما يتطلب كذلك دقة في الصنعة .

وتعتبر لوحة الربيع جبر بوايفا من أجمل لوحات المعرض في تعبيرها عن الحركة والرشاقة والدراسة العميقة للناحية التشكيلية . وكذلك لوحة منظر من تيميش الرائعة في الوانها وحسن بنائها وهي من اللوحات الملونة التي تفيض حيوية وانسجاماً وكذلك لوحة مستودع الاسماك للفنانة دوميتريسكو ايمليا وهي لوحة تنطق حيوية وواقعية والواناً مشرقة حسنة التوزيع ، اما لوحة التراكتور فتتجلى فيها دراسة عميقة الى جانب اصالة ملحوظة وهي خير ممثل لاعمال الفنانة.

يبدو ان الفنان الروماني يعيش احداث بلده ويتفاعل معها فالتقدم الصناعي الذي حققته رومانيا في السنوات القليلة الماضية لفت نظر الكثيرين من الفنانين الذين عبروا عن هذه النهضة اجمل تعبير ومنهم بيترا شكوماريايا التي رسمت لوحات كثيرة في هذا الميدان ومنها لوحة نافخو الزجاج



رجل النوامل

للفنان
كازار فاسيلي

التي تحمل تعبيراً قوياً عن مستوى الصناعة قديماً وحديثاً .

اما زابو بيلاجي فيرى في عالم الاطفال بحرا لاينضب له معين فقد عالج في لوحاته افراحهم والامهم واجواءهم ... وفي لوحاته نلاحظ تقسيما متزنا وبناءقويا في حين أن كازار فاسيلي عبر عن الحياة الزراعية اجمل تعبير خاصة والزراعة في رومانيا لا تقل أهمية عن الصناعة وقد تطورت آلاتها تطوراً كبيراً

وهناك فنانون آخرون عالجوا جانباً من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والتربوية ... وما ذلك الا لان الفن في اوربا الشرقية يجب أن يتناول حاجات المجتمع ، واما نظرية الفن للفن فليست مقبولة لوحدها بل لا بد وأن يكون الى جانبها فكرة الفن في خدمة المجتمع خاصة والفنان لسان مجتمعه .

الهند

قررت اللجنة التنظيمية لمؤتمر المستشرقين الدولي في احدى جلساتها الاخيرة أن يعقد المؤتمر السادس والعشرين للمستشرقين في دلهي الجديدة ، سيبدأ المؤتمر في اول كانون الثاني ١٩٦٤ ومن المتوقع أن يمتد حتى العاشر من الشهر نفسه . ويقول الاستاذ همايون كبير أن اللجنة التنظيمية قد وجهت الدعوة الى الالوف من رجالات الادب والتاريخ في مختلف بلدان العالم .

كما تبنى مجلس الهند للروابط الثقافية معرضاً للرسوم من انتاج الفنان بيتر لوساردا أحد الرسامين اليوغسلافيين الشهيرين في كل من دلهي وبومباي وأن الفنان نفسه قد رافق معرضه واعجب بالهند التي أوحت اليه بالكثير من اللوحات الحلوة .

فرغانا

آسيا الوسطى

اكتشف في اراضي آسيا الوسطى في جبال كيرغيزيا الجنوبية معبد أثري كان يخص في العصور القديمة الاقوام التي كانت تعبد الامطار والثلوج . والمعبد المذكور مؤلف من قاعة اسطوانية الشكل تعلوها قبة ، ولم يعثر العلماء المنقبون فيها عن أية دلالة تشير الى وجود موقد. وقد اكتشف تحت ارض المعبد حوض حجري ومجار كانت تستخدم لايصال الماء الى هذا الحوض .

وقد تم اكتشاف المعبد الهام عالم الآثار بافيل كوبويليا وهو المعروف باكتشاف آثار الانسان القديم وقد قال : حتى الآن لم نعلم بوجود عبادة الأمطار والثلوج في آسيا الوسطى الا من خلال كتاب البيروني « الآثار الباقية من القرون الخالية » أما الان فقد تم لنا العثور على الدليل المادي لذلك ، مما يثبت أن سكان وادي فرغانا كانوا يعبدون الامطار والثلوج حتى فتح آسيا الوسطى من قبل الخلفاء العرب.

فرانسا

معرض رونوار

اقيم في الاسابيع القليلة الماضية معرض هام للفنان رونوار احد زعماء المدرسة الانطباعية الفرنسية الذي ترك من الاثر الفني والمذهبي مالم يتركه فنان آخر . والمعروف ان الفنان رونوار كان غزير الانتاج ومبتدع نادر ، الامر الذي جعل انتاجه موزعاً في كل متاحف العالم الكبيرة ولما كان المعرض الذي نحن بصدده يستهدف ابراز انتاج الفنان في مختلف مراحله فقد اضطر صاحب فكرة تنظيم المعرض وهو نائب مرسيليا الى الاستعانة بمتحف اللوفر ومتحف



فتاة ووردة

للفنان رونوار

بوسطن والمتاحف الاجنبية والفرنسية الاخرى وكذلك المجموعات الخاصة التي يملكها الافراد.

وقد ضم المعرض صفوة انتاج الفنان وروائعه النادرة وخاصة عارياته اللائي ابدع فيهن ابداعاً نادراً وعبر عن جمال المرأة اروع تعبير وقد شبهها المؤرخ شارل موريس عند رونوار بالحدائق الغناء التي تفيض جاذبية وغنى ومازال المعرض يستقبل الفيض من الزوار المعجبين لفنه المتمتع بلوحاته الحية بريشته ابد الدهر ●

معرض صحاف بيكاسو

في صيف هذا العام قام الرسام بيكاسو برسم مجموعة من الرسوم الحلوة على عدد كبير من الصحاف الخزفية بينما كان يقضي اجازته الصيفية في مدينة كان ، وقد ألحت بعض المتاحف وصالات العرض اقامة معرض له تعرض فيه تلك الانتاجات الفنية الحديثة ، في هذه المجموعة الحلوة النادرة تتجلى خلاصة تجاربه الفنية ، ومن الجدير بالذكر

ان الفنان يعمل في الآونة الاخيرة بصناعة الخزف وله في هذا المضمار انتاجات فريدة من نوعها اقل ماتوصف بأنهـا شاذة في الجرأة ان في اشكالها او في تزييناتها .

المملكة المتحدة

اقيم في الاسبوع الاول من الشهر الحالي معرض رسوم الاطفال في لندن وقد ضم المعرض قرابة اربعمائة عملا فنيا من اعمال الأطفال ، وقد وجدت لجنة اختيار اللوحات والقطع النحتية صعوبة كبيرة في اختيار الانتاجات القوية من بين ٤٠٠٠ قطعة قدمت للاشتراك وكانت الجائزة الاولى من نصيب احد الاطفال وقدرها ٣٠٠٠ جنيه استرليني واشترطت اللجنة المنظمة للمعرض ان يصرف المبلغ لتنمية ميول الفائز الفنية .

الاهتمام بلوحات الكاتب د . ه لورانس

الكاتب د . ه لورانس المعروف اشتهر بالاضافة لكونه كاتباً عالميـاً كرسام وقد رسم ابان حياته الكثير من اللوحات الا ان اغلبهـا لم يبع وهو موزع هنا وهناك ويجري الان البحث عنه عند اصدقائه ويقوم بهذا العمل الجليل مارفين ليفي أحد كبار النقاد الانكليز اذ استطاع حتى اليوم جمع (٣٤) لوحة من مختلف انحاء العالم ومن المتوقع ان ينشر ليفي هذه الصور بعد دراستها دراسة عميقة ويروي تروتر احد اصحاب صالات العرض بانكلترا ان سلطات البوليس صادرت ذات يوم لوحة للورانس ووضعتها في احد زنزانات الشرطة بحيث يكون وجهها نحو الجدار كي لايراها احد وعندما ذهب الكاتب لاستلامها طلبت اليـه سلطات الامن اخراجها خارج انكلترا وقد تطوع هاستنج لشرائها بخمسة جنيهات . وقد حاول الباحثون على لوحات لورانس العثور على الشاري لاتمام مجموعته فلم يفلحوا .

وكان كاتبنا الفنان يهتم بمصير لوحاته اكثر من اهتمامه بمصير كتبه وبلغ من حبه لرسومه ان اقسم ألا يرسم لوحة اخرى في انكلترا بعد الذي حدث .

وتتوزع اليوم لوحاته بين اللورد استود وكلارك الذي تزوج اخت لورانس والذي رفض بيع مجموعته البالغ عددها ثماني لوحات .

وهكذا ندرك محاولة الغربيين دوما الاستفادة من نشاطات افرادهم مهما تضاءلت لأن مجموع تلك النشاطات تتكون على مر الايام والسنين ثروة لاحد لها .

امريكا

ليوناردو فانسي في نيويورك

يؤكد الخبراء الفنانين في الولايات المتحدة الاميركية انه تم منذ ايام اكتشاف لوحة على جانب من الاهمية للفنان الايتالي ليوناردو فانسي وكانت تلك اللوحة حتى ذلك التاريخ في عداد اللوحات المفقودة منذ اربعمائة سنة ، ويقدر الخبراء قيمتها اليوم بحوالي عشرة ملايين ليرة

سورية واللوحة المذكورة تحمل اسم « المسيح بين الحكماء » ويشاهد هذه اللوحة المعروضة اليوم في احد صالات العرض في نيويورك آلاف المتفرجين يومياً معجبين بفن الفنان الذي رأوا رائعته المشهورة « الجوكندا » منذ اشهر تتجول في انحاء الولايات المتحدة الاميركية .

المانيا الاتحادية

معرض الفن الحديث في ايسن

اقيم في الاسابيع القليلة الماضية في مدينة ايسن بالمانيا الاتحادية معرض الرسم الهولندي المعاصر وذلك في متحف التقاليد الشعبية ، ويرى النقاد الفنيون ان الرسم الهولندي له مظهران احدهما يستوحي من فيرمير والآخر من فان كوخ وانه منذ الحرب العالمية الثانية اخذ المظهر الثاني في السيادة على فن الرسم وخاصة في كل من كوبنهاجن وبروكسل وامستردام .

ساهم في هذا المعرض اثنا عشر رساماً وقدموا ستاً واربعين لوحة حديثة وكان في مقدمة العارضين الفنان كارل آبل وتجلت في رائعة «حسناء الليل» حيوية وتعبير نادرين اما جيريت بيتر فهو الممثل الحقيقي الاصيل للمدرسة التعبيرية الهولندية ويمارس فنه بنوع من البساطة وذوق سابق تحضير وبكثير من الاندفاع .

واغلب اللوحات المعروضة تنضوي تحت لواء المظهر الثاني الذي يستوحي من فان كوخ . ولقد استقطب المعرض انتباه الجمهور لما توفر فيه من خلاصة تجارب الفنان العظيم فان كوخ التي تطورت عبر السنين .

معرض المثال هـ . هاجيك

أقيم في برلين الغربية معرض يمثل فن النحت لأكبر نحاتي المانيا انه المثال هـ - هاجيك الذي ولد في عام ١٩٢٧ ودرج على حب النحت منذ نعومة أظفاره وبالرغم من حداثة سنه فقد انتشرت انتاجاته في العديد من متاحف أوربا ، وأما معرضه الذي أقيم في صيف هذا العام فقد قدم دليلا على تمكنه من فنه وقدرته على الاجادة فيه يوما بعد يوم ومن أعماله الهامة الجدار الذي أحاط به مقبرة فرانكفورت والذي زينه من الداخل والخارج بالحفر النافر والغائر . يتوافد الناس يومياً لمشاهدته عند زيارة المدينة وقد زاره أكثر الفنانين الأوروبيين كأثر فني عظيم جدير بالتقدم .

المانيا الديموقراطية

بدأت اليوم افريقيا وخاصة بعد استقلال العديد من بلادها بدأت تحتل مكانة رفيعة لدى الدول التي تتطلع الى تقدم تلك القارة بنية حسنة وها هي اليوم بعض تلك الدول ومنها المانيا الديموقراطية تمد يد المعونة لها .

ومنذ اسابيع افتتح في مدينة ليبزيغ في متحف السلالات البشرية معرض يمثل نشاط افريقيا الفني ويعطي صورة واضحة لتاريخ القارة

وفنونها ويقول مدير المعرض الاستاذ هانس دام ان اهداف المعرض هو تعريف الزوار على النوعية الفنيــة والتصوير الزاخر الفني والعمل اليدوي الدقيق لسكان القارة الافريقيــة اما المعروضات فتتضمن العاج ومصنوعات الجلود والنحت والحفر على الخشب و كذلك المصنوعات الفنية المعدنية مــن أسلحة ومجنات كما تمثل الفنون والصناعات الدقيقة في كل من الجزائر و كينيا والكونغو وروديسيا والسودان ... ودول أخرى غيرها .

استهدف منظمو المعرض دحض المزاعم القائلة بعدم وجود ثقافة شعبية رفيعة في افريقيا الأمر الذي يكذبه الواقع اذ ظهر في المعرض مستندات مصورة من امبراطورية بينين الزنجية التي عملت على تطوير العاج والبرونز بشكل رائع.

لقي المعرض من النجاح في الموسم الثقافي الحالي ما لم يبلغه اي معرض آخر لما تضمنه من عناصر الفن الرفيع الذي لم يكن معروفاً قبل اليوم في ألمانيا .

جولة الشهر

مع تيارات الفكر العالمي

يقدمها : فؤاد الشايب

تتمة عرض السير التاريخي لتطور الرأسمالية نحو التخطيط الاقتصادي ـ رأس المال في ذروة الجشع مع دوره الانحصاري ـ لماذا يقبل رأس المال بتدخل الدولة وكيف يسير الاقتصاد تحت وطأة الانحصار ـ عوامل تدخل الدولة في الاقتصاد ـ وانواع هذا التدخل ـ.

ثم هل يجب ان تأخذ الشعوب المتخلفة بسياسة التخطيط ـ ولماذا !؟! وما هي اهداف التخطيط لديها ؟! ان الشعوب المتحررة ، ترمي الى احلال حضارة المشاركة ، بديلاً عن حضارة التفوق والتحكم .

رأينا في جولتنا الماضية ـ العدد السابع ـ ايلول ١٩٦٣ ـ كيف انساق رأس المال في حمى التسابق الى الربح، من دور الاقتصاد الليبرالي ـ دور الحرية والمنافسة ـ الى الاقتصاد الاحتكاري ـ دور التنكر للحرية ووقف المنافسة ـ وكيف جمع رأس المال شباكه من المياه الحرة لينظم شبكة واحدة للسيطرة على البحر والصيد معاً ، وعلى المستهلك والعامل ، وأوردنا بعض أوصاف المنظمات الاحتكارية من (كارتيلات) و (تروستات) التي تعمل جميعها باسلوب أو بآخر ، للاحتفاظ بسوية الاسعار المناسبة للرابحين اصحاب رؤوس الاموال ، او لرفعها وفرضها على الاسواق والمستهلكين ، باساليب لا تقل همجية عن اساليب الابادة ، والقتل الجماعي .

وان يكن الدور الاول ـ الليبرالي ـ قد اتصف بظلم العمال ، حتى بات شقاء العامل في عصر الازدهار والرخاء ، سُبّة في جبين العصر ـ كما وصفنا ـ فان الدور الثاني ـ الاحتكاري ـ قد اتصف بما هو أمر وأدهى . وحسبنا أن نذكر من ويلات الدور ارتفاع الاسعار وضمور قوة الاستهلاك ، وتقليص الانتاج ، ومكافحة الرخاء ، واتلاف الارزاق ، واقفال المعامل وتشريد العمال ، وتثبيتهم في حالة بطالة دائمة ، بالاضافة الى خلق أسواق صنعية لتصريف الانتاج الى الخارج ، بالاستعمار وغزو القارات البعيد وتسخير سلطات الدولة لاذلال الشعوب توسيعاً للاسواق ، ونهباً للمواد الاولية . وبالاضافة الى ايجاد بديل عن المستهلك العاجز ، بمستهلك قادر ، هو الدولة ، التي تحمل السلاح ، وتستعمل السلاح وحدها وغالباً ما أدى حمل السلاح الى استعماله ، فلم يكن غريباً أن يكون لرؤوس اموال الصناعات الثقيلة في أوروبة دور رئيسي في اثارة النزاعات على نطاق دولي ، وتأزيم الخلافات ، وتفشيل المؤتمرات ، وتغذية النعرات والعصبيات ، وبالتالي قذف القوى المسلحة الى ساحات الحروب ، حيث

السوق الكبرى لاستعمال بضاعة اصحاب الصناعات الثقيلة .

سنأتي على هذه الخطوط العامة ببعض التفصيل ، قبل ان ننتقل ، كما هو مقرر ، الى الدور الثالث من تطور النظام الرأسمالي في ظل التخطيط .

تفصيل مراحل التطور

ان رأس المال في سبيله الى الربح على حساب العامل والمستهلك ، والدولة ، هو الذي اوجد ، كما علمنا وفرة الانتاج كما وكيفا ، وقد أدت الوفرة ، بالطبيعة ، ــ طبيعة العرض والطلب ــ الى هبوط الاسعار ، وكان هبوط الاسعار يؤدي دائماً الى تلك الكوارث والهزات التي يتحملها في الدور الليبرالي ــ رأس المال وحده ، بافلاس مجموعة او مجموعات من الاعمال الصناعية والتجارية ، يتبعها لزاماً دور بطالة العمال بالمجموعات الكبيرة. **على أن الدور الاحتكاري الرأسمالي ، كان يرفض أن يتحمل الهزة وحده ، ويلجأ الى التجمع الانحصاري تارة او الى الدولة تارة أخرى لتفادي الافلاس والهزات ، فيطيل بذلك عمر الأزمة ، ليطيل عهد المرابح .** والدولة عندما تدفع ثمن التفادي ، انما تدفعه من خزانتها ، وخزانتها جيوب المساكين ، من المواطنين الابرياء والعمال العاطلين . ويقول الاشتراكيون في هروب رأس المال من مسؤوليته ــ وتحمل المسؤولية هو عماد الحياة الديموقراطية الليبرالية ــ انه دليل واضح على افلاس النظام الرأسمالي . وان صح ان الرأسمالية قد لجأت الى قلعة الاحتكار لتحمي نفسها من هجمات المستهلكين ، فالأصح أن رأس المال بهذا اللجوء ، قد فضح عداءه للشعب ، الذي طالما غرر به ، وأحال نفسه الى التقاعد سلفاً ، في قلعة لن تكون حصينة الى امد طويل .

الاقتصاد الاحتكاري

ها هو الاقتصاد الاحتكاري ، يكافح الانتاج والرخاء ، ويبتر الاسعار ، وتيارات الانتعاش العام ، وكان بامكانه لو قنع رأس المال بالربح المعقول ، أن يتفادى اثم الانحصار ، ومأساة التجويع العام . ان رأس المال في الدور الاحتكاري ، يلجأ الى تحديد كل شيء : كمية الانتاج ، الآليات والادوات ، اليد العاملة ، الاستيراد ، ممارسة بعض المهن ، انشاء بعض المصانع ، وفتح بعض المتاجر ، زرع بعض الاراضي ، وتطبيق بعض وسائل العلم والاختراع .. ولكي يحافظ على حظه الاكبر من الربح ، يحكم على الحياة العامة بالشلل التام والمرة الثانية يحكم رأس المال على نفسه بسوء السمعة ، لأنه دخل في التناقض البين من تعزيز الانتاج الى تقليصه وتضميره : فهو ــ كما يصفه الاشتراكيون ــ الآن عدو الحرية ، عدو المسؤولية ، عدو الانتاج والرخاء .

انه يذهب الى ابعد من الاجراءات السلبية لوقف عجلة الانتاج . بل هو في الضيق والحرج

من تدني الاسعار ، يلجأ ايجابياً الى اتلاف الحصاد الناتج من المال، والعمل ، والارض ، لينجو هو برأسه وربحه . في اوروبة والامريكيتين ، لاسيما في السنوات العشرين بين الحرب الكبرى الاولى ، والحرب الكبرى الثانية ، اتلفت ملايين الاطنان من الحبوب ، والبن ، والمواشي ، للاحتفاظ بحد معين لأسعار الخبز والقهوة واللحوم، بينما يجوع الملايين لا من سكان الارض فحسب، بل من سكان البلاد التي تتلف ارزاقها ، ولا يجد الملايين الآخرون ما يتبلغون به من ادنى العيش والادم. بل قد اقتلعت الكروم من جذورها ، واحيلت مساحات لا تقدر من اراضي الاشجار المثمرة الى احطاب ، لكي تقر عين رأس المال بالربح ... بالربح الكبير . ومشت الدول في ركاب رأس المال ، في الدور الاحتكاري ، وراحت تمنح الجوائز والمكافآت ، لتقليل الانتاج ، لتبطئ حركة العمل ، لتخريب الآلة ، لاتلاف الحصاد . فأي ذروة من الجنون ، يبلغها نظام فرانكشتايني ، يأبى قبل أن يستسلم ، إلا أن يردي كل من حوله.

وكانت بطالة العمال ، في الدور الليبرالي ، بطالة دورية ، تماشي الازمات الدورية ، وتنتهي بانتهائها ، فتدور العجلة من جديد ، ويعود العمال الى اعمالهم ، أما في الدور الاحتكاري ، تصبح البطالة داء مزمناً تحت قانون الانحصار ، وتخفيض الانتاج ، واغلاق المصانع . وقد عانت دول اوروبة وأمريكا المصاعب الحادة من ازمات البطالة بين اعوام ١٩٢٠ و ١٩٣٩ ، وكان الذين يسرحون من مصانعهم ، لا يعودون اليها ثانية . وكان على الدولة أن تنهض باعباء الملايين من العاطلين ، ، ورأس المال واقف يتفرج .

النجاة من الأزمات بالحروب

قيل أن الأزمة العالمية بدأت تنفرج ، بدءاً من عام ١٩٣٥ في جميع دول اوروبة ، بسبب لجوء اكثرها الى تعديل العملات ، والتلاعب بالنقد، وبسبب آخر اكثر وجاهة وفعلاً ، وهو التسلح والاستعداد للحرب ، وبالواقع فان عدداً كبيراً من الصناعات بدأ يتحول من وضع السلم الى وضع الحرب ، فدارت العجلة وتوافر العمل للجميع ، واقبل الملايين على مستقبل الحرب ، كأن لا سبيل الى الانفراج ، الا بها وحدها ، وبئس الفرج ! ومن طريف المفارقات ان بعض (التروستات) الصناعية ذات الفروع كانت تسلح دولتين متنافستين أو متحاربتين في وقت واحد معاً ، وكانت كل صفقة من الاسلحة تباع الى دولة يقابلها طلب مماثل من لدولة الاخرى ، دون حرج أو خوف من تناقض ، أو لوم ودون أي رادع وطني أو خلقي ، لأن لعبة (التروست) بفروعها هنا وهناك على الصعيد التجاري الدولي البحت ، كانت من الذكاء والدقة وحسن التصرف بحيث تجنب تهمها ملامة شرعية أو تقريعاً اخلاقياً ، أو مسؤولية وطنية . بل تقوم الصناعة الثقيلة احياناً بممارسة الضغط على الدولة ، لتصرف بضاعتها في السوق الداخلية أو في اسواق خارجية ، تحت ستار ما من مبررات السياسة وغالباً ما تثير هذه الصناعة القادرة ، تلك المبررات واساليبها ، بما تملك من

ـاسباب السيطرة على منابر توجيه الراي العام... الخ ... الخ . !

اذن وكما رأينا بايجاز ـ فالدولة غدت تشارك رأس المال في تحقيق مغامراته من جهة، والدولة غدت تتحمل وجدها تبعات تلك المغامرات من جهة ثانية يعني ان الدولة وجدت نفسها ذات يوم طائعة او كارهة ، مسوقة الى التدخل احياناً لحماية رأس المال ، واحياناً أخرى تحت ضغط الجمهور الجديد ـ العامل ـ لحمايته من طغيان رأس المال .

ومن كتف هذه الحقبة التاريخية ، تنحدر الى المرحلة الثالثة ، مرحلة الاقتصاد الموجه والمخطط ، بعد مرحلتي الاقتصاد الليبرالي ، والاقتصاد الاحتكاري .

عوامل تدخل الدولة في الاقتصاد

ويمكن تلخيص دوافع تدخل الدولة بالخطوط التالية :

أ ـ ان رأس المال في آخر أدوار المرحلة الليبرالية ، أصبح ينشد مساعدة الدولة وعلى الاخص ابان الأزمات ، بالقروض ، بفتح اسواق جديدة بفرض تعرفات جركية على المستوردات لحماية الانتاج الوطني ، وسوى ذلك ، وكان كيان الدولة قبل ذلك مقسماً الى قطاعين يتجنب احدهما الآخر : الاقتصادي والسياسي ، بمعنى ان الاول حر ، والثاني لايتدخل . وكانت ظروف الناس هي ظروف الازمات والحروب فحسب ، حيث ينشد عون الحكومة ، او هي نفسها تنشد العون .

ب ـ ان رأس المال ، اصبح يرى في الدولة الحديثة المتزايدة حاجاتها ومسؤولياتها ، زبوناً دسماً ، لتصريف انتاجه ، بل قد غدا يخترع لها الحاجات ويسبقها الى التفكير والتدبير ، وكان لابد لذلك من اقامة دبلوماسية جديدة بين الدولة ورأس المال ، غير قطيعة الحرية ، وعدم التدخل فسعى رأس المال الى الدولة بذكاء واقام بينها وبينه العلاقات العامة والخاصة ، ومن هنا منفذ الاقتصاد الى السياسة ، كالتاثير على الانتخابات العامة ، وكاستعارة جاه الوزراء في ادارات الشركات ، وكاستعمال القاب الجنرالات السابقين، في ممارسة اعمال تجارية وصناعية ودعائية ، كأن يعين الجنرال (اومار برادلي) ـ كما تكتبها عمر ـ احد ابطال الحرب العالمية الثانية مديراً عاماً لشركة ساعات امريكية ـ مثلاً واحداً من عشرات الامثال ـ او كالسعي لانتقاء شخصيات لامعة من المجتمع لعضويات الشركات والادارات، ممن يصلح ذات يوم لأن يتوسد وزارة اوعضوية برلمان ، او أي منصب ذي وجاهة وسلطان . ثم جاءت ظروف ، فاصبح العامل الاقتصادي قواماً على العامل السياسي في ادارة الدولة .

وواضح من الحالتين اللتين ذكرناهما أن رأس المال هو الذي تحرش بالدولة واستدرجها الى التدخل ، ثم الى التفرد ، ففرض السيطرة والسيادة ، في المجالين

الاقتصادي والسياسي، ضد تقاليد الحرية السائدة في دور الاقتصاد الليبرالي.

فالحرية اذن كما يؤرخها الاشتراكيون - ليست من الصفات الطبيعية اللازمة للنظام الرأسمالي. ان هي إلا عملة يداولها رأس المال لمصلحته وحدها، وأنه ليعدل عنها عندما تتنافى مع صفته الاساسية اللازمة له أبداً وهي الربح بأي ثمن وعن أي طريق.

وثمة عوامل اخرى دعت الى تدخل الدولة بغير سعي رأس المال بل ضد سعيه وسلوكه:

ج - أن مظالم رأس المال، وفجوره في الإستئثار والاذلال، بالاضافة الى الكوارث والازمات التي جرها على المجتمع، دعت الدولة الى التدخل، لوقف المظالم، او لتدارك بعض الأذى والفوضى، أو لحماية العامل، والمستهلك أيضاً. ومن هنا منشأ قوانين العمل، وتحديد الاسعار، ومراقبة الانتاج، ومكافحة الغش، وتنظيم التأمين الاجتماعي، والاشراف على السوق، وفرض الضرائب التصاعدية، والقيام على بعض الصناعة والتجارة مباشرة. وتنظيم ارباب العمل، والعمال، في نقابات، وانشاء مجالس تحكيم وادارات وساطات. الخ الخ.

د - بل أن الوعي العمالي، الذي سمي من بعد بالوعي الطبقي، قد سبق الدولة الى الشعور بمظالم رأس المال. فراحت الثورات العمالية تنفجر في اوروبة بدءاً من الربع الثاني من القرن التاسع عشر. وكانت الانتفاضات الاول، على ما يرافقها من عنف وتدمير ودماء، تنتهي الى الفشل أزاء تضامن أرباب العمل أصحاب رؤوس الأموال، لاسيما وأن وعي الدولة لهذه التمخضات الاجتماعية كان وعياً ناقصاً مطحلباً. ثم عندما استوى العمال في منظمات نقابية، وفرضوا على أرباب العمل والحكومات الاعتراف بها، غدا الصراع الطبقي في ذروة التنظيم من الجانبين وبينهما الحكومة. وكان على الدولة أن تعبيء جزءاً كبيراً من طاقاتها للتدخل والحيلولة دون تفاقم الصراع الى حروب أهلية طاحنة. بل قد قامت حروب فعلية بين العمال وارباب العمل، ليس أعنف مظاهرها، التوقف عن العمل والاضراب، اذ قد تعدت ذلك الى تخريب المعامل والآلات، والدخول في معارك دامية، حيث اصبحت الدولة بالذات طرفاً في الخصومة، اذا لم تلزم الحياد على الاقل، او تقيم ميزان العدل، وتوطد دعائم الامن بتحديد بواعث الفوضى والاضطراب تحديداً واضحاً.

أين الداء؟

وسواء أكان التدخل، بسعي الدولة - ج - أم بفرض الوعي العمالي - د - فقد كان على الدولة ازاء نشوء (القضية الاجتماعية) الجديدة، أن تذهب الى أبعد من الوقوف على الحياد، ومن التزام العدل، وحفظ الامن، ومنح الحقوق، وردع الظلم، وسن التشريعات وفرض الرقابات، كان عليها أن تضع اليد على مبعث الداء في النظام الاجتماعي السائد، **وأن تقرر صلاحه ام عدم صلاحه كلية**، اذ ليس المائة او المائتان من اصحاب

المـال وارباب العمل هم الخصوم الذين يجب ان يخاصموا وتقام دونهم المحاكم والتحكيم وسلطات الامن ويوجه نحوهم الحقد الطبقي ، **بل هو النظام الاجتماعي الذي يمكن أن تعيش في بيئته عناصر الخصومة .**

لهذا قامت انظمة جديدة في الحكم والادارة والسياسة ، بدءاً من نهاية الحرب العالمية الاولى ، يقول بعضها بفساد النظام الرأسمالي اصلاً ، ويقول بعضها الآخر بصلاحه اصلاً ، مع انحرافه وامكان تقويمه. **وتشعبت المذاهب في القول الاول ــ الماركسية واجتهاداتها ــ كما تشعبت في القول الثاني ــ الديموقراطيــة واجتهاداتها ــ ولم يكن ثمة مناص من هذا التشعب والتنوع في ناحيتي الاجتهاد النظري ، والتطبيق العمـلي ، لأن لكل شعب ودولة ظروفها الزمانية والمكانية والمعاشية .**

وكان لابد ان يكون لكل ظرف لبوسه الاشتراكي او الاصلاحي العادي ، بصرف النظر عن المنبع النظري المثالي الذي تنحدر منه المذاهب الرامية الى احلال السلام الاجتماعي بديلاً عن النزاع الطبقي . والسلام هذا ، انما هو الهدف النهائي الذي ترمي اليه النظريات مهما تعددت واختلفت الى الغاية وسائطها .

ففي امريكا الشمالية تطورت الاوضاع بالرضى أو بالقسر الى ارتفاع المستوى المعاشي لطبقة العمال ، الى جانب ماتوافر لهم من اسباب الضمان والتأمين فكان ذلك حجة لامكان الاصلاح بالعدل دون المس بالاساس الذي يقوم عليه نظام الحكم وهو النظام السياسي والاقتصادي الرأسمالي الذي من أجله ومن اجل سلامته لاتحجم عن الحرب واغلى التضحيات . وفي البلاد الاسكندنافية تمكنت الدولة من احلال السلام الاجتماعي باعتمادها على مجالس نقابية منظمة لكلا الطرفين المتخاصمين ، بحيث لايتخطيان في كل خلاف اصول المفاوضة والتحكيم والقبول بالاحكام عندما تصدر عن منظمات معترف بها تقوم مقام الدولة نفسها في معظم مايدور بين العمال وارباب العمل . ويقول الاشتراكيون الفرنسيون أن فرنسا نفسها كانت في طريقها الى مايشبه السلام السكندينافي قبل الحرب العالمية الثانية . لولا حدة النزاع السياسي بين اطراف اقصى اليمين ، واقصى اليسار ، مما أخرج القضية الاجتماعية عن حوضها بتغليب الهوى السياسي على كل رغبة شعبية في العدل والسلام .

ومهما يكن مذهب الدولة في وقف الصراع الطبقي ، أو تغليب جانب على آخر ، أو التوازن بينهما ، في سبيل السلام الاجتماعي ، فثمة قناعة عامة تسود دول العصر ، أن لا سبيل الى هدف قريب أو بعيد ، مرحلياً كان أم نهائيـاً ، الا بالتوجيه أو التخطيط الاقتصادي ، سواء أتم بدعوة من جانب رأس المال ، أو من جانب العمل ، ام أبرمته الدولة نفسها بناء على منهج عملي او نظري مرسوم .

انواع التدخل الحكومي في التوجيه الاقتصادي

فيما تبقى لنا من فسحة في هذه الجولة ، نوجز انواع التدخل الحكومي في توجيه الاقتصاد الوطني ، كما عرفت في العالم الغربي ، الاوروبي ، بصفة خاصة .

النوع الاول ، وهو العادي المألوف الذي يمكن ان يدعى **بالتدخل المطلق** ، أي غير المخطط . وهو ضرب من ضروب المعالجة الاقتصادية لموقف ما من المواقف الطارئة ، بقصد تخفيف ضائقة، او تفادي ازمة ، او ازالة حيف، وغالباً مايتم هذا التدخل بين تشريع اجتماعي ، عمالي ، نقابي ، يهدف الى تعديل اوضاع سائدة في السوق ، في السعر ، في ساعات العمل ، في فعالية التنظيم والتحكيم الخ ... او بفرض رسم جمركي ، او تبديل مالي ونقدي ، او بمنح قروض وجوائز لانعاش صناعة او زراعة ما . وهو تدخل عاجل ، مرهون بظرف ، مفروض اعتباطاً ، لايعالج الازمات والضائقات من جذورها ، ويصنف عادة في صف الادوية المسكنة او المخدرة ، ويناسب الاقتصاد في دوره الليبرالي ـ غالباً ـ

النوع الثاني — ويدعى بالاقتصاد الموجه — وهو تدخل حكومي مرسوم بتصور وتصميم مسبقين . يتناول جملة من الشؤون الاقتصادية ، بتدابير ذات قواعد عامة يفهم منها نهج الدولة في الاشراف المباشر على الحياة الاقتصادية ويتميز هذا النوع من التدخل المطلق الموصوف آنفاً ، في أنه يعالج الازمات الاقتصادية من جذورها ، فيتحكم ـ مثلا ـ بالسوق ، بديلا عن قانون العرض والطلب السائد في الاقتصاد الليبرالي، ويحدد احياناً كمية الانتاج ، وسعره . وبهذا يأخذ من رأس المال اهم وظائفه التي كان يستبد بها ويستغل ويسيء الاستغلال فيؤذي نفسه ويؤذي المجتمع معه . واحياناً يمنح القروض الصناعية والزراعية ، ويعدل موازين النقد ، ويفرض سياسة اسعار ، ليحمي الصانع، والعامل ، والتاجر والمستهلك بلا تمييز ، وبالاجمال فهو لايمس قواعد رأس المال ، بل قد يحدد مداها ، ويغل سيطرتها، وقد يكون في ذلك حماية لها من افلاس او من مغامرة بادية الفشل . وقد اخذت بهذا النوع من التدخل لتوجيه الاقتصاد الوطني ، كل دول اوروبة والولايات المتحدة الامريكية ، وعلى الاخص في السنوات العشر التي سبقت الحرب الكونية الثانية ، عندما كانت تطبق بخناق العالم الديموقراطي الغربي ازمة اقتصادية عنيفة ، لم تهبط فورتها ، الا باقتراب شبح الحرب ، وانشغال الدول بالتسلح ، ودخول اقتصاد الحرب ، في التأثير على الاقتصاد العام .

ان التدخل بالاقتصاد الموجه ، على كل حال لايمس المصالح الاقتصادية، الا برفق. ومن اهم وظائفه اقامة التوازن والتعادل، لمصلحة العدد الاكبر من العمال والمستهلكين ، وغالباً مايفسح رأس المال ، مجال التدخل بلا اصطناع العقبات ، لأن رأس المال في هذه المرحلة يكون في حالة عجز عن اخذ زمام المبادرة

والتحكم ، او هو يقبل بتحمل الدولة مسؤولياتها، بقدر من التضحية يبذلها في الممر الحرج .

النوع الثالث من التدخل - بالاقتصاد المخطط - وبهذا التدخل تمارس الدولة سلطاناً حقيقياً ، غير رفيق ولا متميع على الاسواق كلها. **ان الدولة هنا ، تمسك بيد قادرة ، بكل عناصر التوازن الاقتصادي ، فتتحكم بالسعر ، وبكمية الانتاج - واكثر - بكمية الطلب . فلا التاجر حر ، ولا المنتج حر ، ولا المستهلك نفسه .**

وبذلك تقضي الدولة بالاقتصاد المخطط على كل تلقائية السوق الليبرالية ، ومفاجآتها ، وتقرر لاعوام معدودة سلفاً سير الاقتصاد خطوة خطوة وشبراً شبراً . ولعل اشهر اقتصاد مخطط ، واسبقه ، هو الاقتصاد السوفيتي وعلى الاخص منذ بدء تطبيق المناهج الخمسية عام ١٩٢٨ . ومشت المانيا النازية في طريق الاقتصاد المخطط، منذ عام ١٩٣٣ ، مع الفارق بين الاقتصاد الاشتراكي في الاتحاد السوفيتي ، وبين الاقتصاد الرأسمالي في المانيا الهتلرية ، كما سارت دول اوروبة الديموقراطية في سياسات التخطيط ، تدرجاً على الغالب ، بدءاً من القمح والسكر مثلاً الى سواهما . ولزمت بريطانيا تخطيطاً اقتصادياً قاسيا شاملاً خلال الحرب لازمها اعواما بعد انتهائها مجابهة لمتاعب اقتصادية جمة ، وتمرساً بسياسة اجتماعية بشر بها الاشتراكيون .

ويمكن تلخيص الحوافز الى سلوك الاقتصاد المخطط ، ونجاحه في معظم الدول التي اخذت به، بنسبة اتقانها ادارته - بثلاثة :

الاول : فشل الاقتصاد الموجه في كثير من الدول التي مارسته ، لان المقاومة الرأسمالية الخفية أو الظاهرة لسياسة التدخل عامة، جعلت بعض الاجراءات الاقتصادية تؤدي الى عكس ما رمت اليه الأهداف النظرية ، كأن تقضي سياسة الدولة بتخفيض الانتاج ، فيزداد بدلاً من أن ينقص ، أو كأن تفشل سياسة التسعير ، بتغلب السوق السوداء ، لان الدولة في الاقتصاد الموجه ، لا تمسك بجميع الخيوط ، ولا تتحكم بنتائج التوجيه ، الذي غالباً ما تترك نتائجه رخوة متحركة . واذ تشعر الدولة بفشل التوجيه ، تعمد الى تعزيز قبضتها وتشميل تجربتها ، مما يجرها بالتدرج الى التخطيط الشامل .

الثاني - وهو حافز اوروبي خاص - تقريباً - نجم عن اقتراب الحرب العالمية الثانية التي ترعرع التخطيط في جوارها - من قبل ومن بعد - وكان التخطيط ضرورة وطنية ملزمة ، لا للخروج من ازمات خانقة فحسب ، بل لمواجهة ما هو امر واعنف ، عندما تكشف السلامة العامة ، ويصبح كيان الدولة والامة في متناول الخطر الساحق . **ومن البديهيات أن الدولة الحديثة المعدة نفسها للخطر ، لا تحارب باستعدادها العسكري وحده بل بتعبئات من طاقات صناعية وزراعية ومالية جديدة بان تدعم ما يسمى**

باقتصاد حربي يقوم عليه كيان الدولة ومصير شعب برمته .

الثالث ـ وهو حافز اجتماعي ـ نجم عن شعور انساني متزايد ، مع التجارب التي مرت بهـا الشعوب كبيرها وصغيرها ، قاصيها ودانيها ، أن اسطورة الرخاء في دور الرأسمالية الحرة ، لم تكن سوى حريـة ورخاء للقلة من الناس ، وعبودية وفقراً للاكثرية الغالبة ، وان هذا التفاوت الفاحش، قد ارث الأحقاد ، ووضع فئات المجتمع في طبقـات ومعسكرات ، وان الوحدة الوطنية ، اصبحت مفقودة به السلامـة الاجتماعية . **وانه لا بـد من تغليب مبدأ المصلحة العامة على مبدأ الربح ، ولابد من التحكم بالانتاج وبالتوزيع سبيلا الى العدالة والمساواة ، وردم الفوارق الاجتماعية .**

التخطيط والشعوب المتخلفة

وان يكن شعور الدول الرأسمالية نفسها العريقة في رأسماليتها ، المقيمة حضاراتها على فلسفة الرخاء الرأسمـالي ، المرسلة جيوشها للتوسع وللتفتيش عن اسواق جديدة بدافع من مغامرة رأس المال ، وطموحات النظام الرأسمالي ـ ان تكن هذه الدول نفسها، قد فدحها الظلم الاجتماعي في ظل نظام جائر، أفلس في جلب الرخاء، وانقلب الى سلسلة من الكوارث والازمات ، وأفلس حتى في حماية نفسه وحريته ، فكان اسبق من سواه الى الاستهتار بالحرية ـ ان تكن هـذه الدول نفسها قد نهضت الى مقارعة النظام الجائر بأساليب وتدابير تتراوح شدة وليناً ، تبعـاً لمجموعة من سياساتها المعقدة ، ونشأ فيها وترعرع في ارضها الفكر السياسي الاشتراكي ، بمختلف انواعـه واهدافه ، وأخذت اخذاً وثيقاً بسياسة التدخل بالتخطيط ، مع بقاء رأس المال ، او بدونه ـ ان تكن هذه الدول نفسها ، قـد وضعت (القضية الاجتماعيه) فوق قضاياها كلها ، لأنهـا قضية الانسان ، والكرامة الانسانية ، فأولى بالشعوب المستضعفة ، الموسومة بالتخلف ، الطالعة من ظلام القرون المضرسة بانياب الغزو والاستعمار، المعتبرة بدروس التاريخ ، وتجارب الامم ، الطامحة الى حياة حرة كريمة، الناشدة جرياً سريعاً في موكب التطور تحت طائلة الرجوع الى البدائية أو البقاء فيها ابداً ـ **أولى بهذه الشعوب أن تنظم أدوات وعيها وطموحها ، وتحدد مفاهيم حريتهـا واستقلالها ، وترسم خطوط سيرها وتطورها وتبدأ بآخر ماوصلت اليه التجربة الانسانية ، في معالجة الصعاب والازمات والمواقف وأن تخطط للعمل الاجتماعي وللعمل الاقتصادي ، وللعمل السياسي . فهي احوج ماتكون الى التخطيط في كل مرفق ، ومع كل خطوة تضعهـا في طريق التقدم .**

قيم التخطيط

ان يكن للتخطيط الاقتصادي ، اشتراكيا كان أم غير اشتراكي لدى الدول الكبرى والصغرى صاحبة التجارب العريضة في السياسة وانظمة الحكم ـ ان يكن للتخطيط عندها مآرب أخرى غير الرخاء والعدل ، وكان لحساب السيادة والتفوق والسلطان السياسي العالمي ، والاستعداد لكسب معارك الحروب ، من باردة الى حارة ، دفاعاً عما تسميه مثلها وانظمتها ومبادئها ـ مقام اول في حساب الاعتبارات السياسية والاقتصادية ، فان التخطيط الاقتصادي ، لدى الشعوب الناشئة ، الماضية في طريق الحرية والتطور ، لايعني سوى مزيد من الرخاء ، والعدل والحرية ، لاينشد وراء الألفاظ معاني غريبة عنها ، ولا وراء التسميات مسميات ، وليس للتخطيط الاقتصادي ، اي استراتيجية مبيتة ، اللهم إلا استراتيجية التحرر من قروض الاستعمار ، ومناطق النفوذ .

ان التخطيط الاقتصادي لدى شعوب الدول الناشئة المقول متخلفة ، يرمي الى اهداف يمكن ان نحصرها بثلاثة :

الحماية ، والتنمية ، والمشاركة الحرة .

أما الحماية ، فتشمل كل فعالية وتدبير للحفاظ على الثروة الوطنية التي كانت تدعى في دور الاستعمار المباشر **بالمواد الاولية** ، والتي كانت نهباً مباحاً للدول الكبرى ورؤوس أموالها ، تأخذها خاماً بالثمن البخس . وتردها مصنوعة بالثمن الفاحش ، وفقاً لسياسة مرسومة هي سياسة الافقار والاذلال ـ هذا من جهة ـ .

ومن جهة ثانية تشمل الحماية كل فعالية وتدبير لانقاذ السوق الوطنية من الغزو الخارجي ، وبذلك يباشر الاقتصاد الوطني اشرافه على السوق الوطنية من السلعة الخام ، الى السلعة المصنوعة .

اما التنمية ، التي يجب أن تمضي جنباً الى جنب مع الحماية ، فتشمل كل تدبير وفعالية ، لاستثمار الثروة الوطنية ، واخراجها من حالة الكنوز الدفينة الى حالة الثروة المتداولة **ولا تستقيم الحماية وحدها دون تنمية ، كما لا يستقيم الأخذ بمبادىء العدل ، دون الأخذ بمبادىء الانتاج في الوقت** نفسه . **اذ لا يفيد الحرص وحده** ، بلا عمل وكما **لا يفيد التوزيع** العادل اذا لم يكن **ثمة مانوزعه .**

أما المشاركة الحرة ، فهي الخطوة التي تباشرها دولة التخطيط الاقتصادي ، وقد ملكت زمام سيادتها على اقتصادها ، لتلج ساحات التعامل العالمي ، على قدم التكافؤ ، غير منطوية على نفسها ، وغير منغلقة على العالم الواسع ، **فتأخذ وتعطي ، بلاخوف من ان يستعبدها الاخذ ، ولا أن يفقرها العطاء** . ولديها هذه الشعوب الاخذة بالتطور ، من الثروات والطاقات ، ما يمكنها ابداً من الدخول في مساومات شريفة ، مع تلك الدول التي تنشد يدها وفنها ومالها للتسريع في مشاريع التنمية ، ودفع عجلات التطور .

نقول هذا ، ونجزم بأن صيغة التعامل الدولي ، قد تبدل انشاؤها في منعطف النصف الثاني من

القرن العشرين . ولسنا هنا في مجال التدليل على ذلك بأكثر من حجة ، وحسبنا أن نرى في قيام السوق الاوروبية المشتركة ـ التي افردنا لها ثلاث معالجات متتاليات في جولة الشهر (١) ـ دليلا كبيراً على أن دور الغزو الاستعماري التقليدي قد مضى وانقضى وأن الدول صاحبة التقاليد الاستعمارية المعروفة قد عدلت عنها نهائياً تحت قهر الواقع الانساني ، الى استراتيجيات اقتصادية ، ذات حوار جديد مع الشعوب .

وسواء أبدلت الدول الكبرى ذات الاستراتيجية الاستعمارية بالامس ، والاقتصادية اليوم ، من حوارها ، تحت قرع الاحداث ، مع الشعوب الصغيرة ، شعوب آسيا وافريقيا ، ام لم تبدل ، فان للشعوب الجديدة والمستيقظة ، هدفاً انسانياً حضارياً رفيعاً في نضالها العنيف ضد استراتيجيات الدول الكبرى ، وذلك باحلال حضارة المشاركة ، مكان حضارة التفوق والتحكم . وسيكون للحضارة الانسانية ، مع هذه المشاركة الخيرة ، تاريخ جديد ، وآفاق جديدة ، لاحصر لاحتمالاتها ووعودها .

موضوع الجولة القادمة

الى هنا ، واحسب أن بحث التخطيط لم يستوف من حيث المقارنة بين حسناته وسيئاته ، وعقبات تنفيذه على الأخص ، لدى الدول الناشئة ، وقد وعدت في جولة العدد السابق ، ببحث موضوع الحرية بين النظام الرأسمالي ، والنظام الاشتراكي ، وأرى الآن أن الدخول في هذا الموضوع ، يوجب التوسع ، مدخلا ، في بحث التخطيط نفسه . لأن التخطيط ، تقنين للحرية بالذات ولاغنى عن النظر في مبررات التقنين ، وظروفه الملابسة .

---

(١) انظر (جولة الشهر) في العدد ٢ السنة الاولى والعدد ١ والعدد ٢ السنة الثانية من مجلة المعرفة .